كسرُ الوهم

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2021م

فهرس المحتويات

المقدِّمةُ... 6

الوهمُ 8

الوَاهمُ:..11

الموهومُ:...11

الموهمُ به: 12

كسرُ الوهم:...12

معطياتُ كسر الوهم:..13

من المعطيات الرَّئيسة لكسر الوهم:.................................15

الموقظاتُ من الوهمِ:...18

سرابُ الوهم:..20

أوهام القبليَّة:..32

أوهامُ التفويض:...38

أوهامُ التكنوقراط:...44

أوهامُ النفعيّين:...45

أوهام الشَّخصنة:..48

صِدامات الوهم:...50

أوهام الخوف من الإسلام:..53

استغوال الوهم:..57

كسرُ الوهم ولو كان معتقدًا:.......................................61

(أسلِم تسْلَمْ) تكسرُ وهمًا:..61

المعجزةُ كسر وهم: 65
قُلْ، كاسرةُ وهمٍ: 71
أوهامُ النشوز: 75
الجزيةُ تكسرُ الوهم: 97
نظريّة الأوهام الأربعة عند بيكون: 104
أوهام قاتلة: 108
الوهمُ بين الواقعِ والحقيقة: 110
أوهام ميكيافيللي: 111
أوهام ديفيد هيّوم: 111
أوهام إخوان الصّفا: 113
من أوهام فرعون: 115
أوهام رفض الآخر وآرائه: 116
أوهام المعتزلة: 117
أوهام في عهد الرّشيد: 121
وهمُ الخيالِ وأساطيرهُ: 123
عقولٌ واهمة: 130
أوهام الدَّولة الدينيَّة: 134
دولة الفاتيكان: 135
دولة إسرائيل: 136
الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانية: 137
دولةُ الخلافة: 137

الخِلافُ على وهم الخلافة: 144
أوهامُ الدّولة العسكريَّة: 147
أوهام الدَّولة القوميَّة: 155
الدّولة المدنيّة:... 158
الدّولة العلمانيّة: 159
الدَّولة الوطنيَّة:... 160
الاستبدال بين حقيقة ووهم:... 164
أوجه الاستبدال السِّياسي: 166
أوجه الاستبدال:.. 168
مرتكزات الاستبدال بين الحقيقة والوهم: 170
معاهدات توليد الوهم الدولي: 179
معاهدة سايكس بيكو:.. 179
معاهدة أوشي (لوزان): 181
معاهدة لوزان الثَّانية: 182
معاهدة يالطا: 185
الفِكرةُ الحلّ تكسر الوهمَ:.. 186
تطوّر الفِكَر يكسر الوهم:.. 199
الآملُ يَكسرُ الوهم: 204
التحدِّي يكسرُ الوهمَ:.. 207
اللَّاشيءُ بين وهمٍ وحقيقةٍ:.. 209
المنهجُ بين وهمٍ وكسرِ وهم 220

كسرُ أوهام القوّة:...237
كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ المُتَوَازِيَةِ مَعَ خَطِّ الْوَطَنِ: 237
كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ يُمَكِّن مِن إِعَادَةِ التَّوازنِ:..........................242
كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ مُغَالَبَةً:..247
كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ يَطْوِي صَفَحَاتِ الخِلَافِ:.........................250
كسرُ أوهامِ الخوف:...254
كسرُ أوهام إدارة العقل: 263
كسرُ أوهام الوسطيّة:..267
صدر للمؤلّف 284
المؤلّفات 285
المؤلّف في سطور...303

المقدّمةُ

مع أنّ كسر الوهم فعل موجب ولا يتحقّق إلَّا عن إرادة أو منقذ، فإنَّه على الرّغم من إيجابيَّته فتحقيقه أو إنجازه ليس بالأمر الهيّن، ومع ذلك فكسر الوهم واجب على الواعين والمسئولين إن أرادوا للدَّولة مكانة وللشَّعب رفعة.

ومع أنَّ الوهم سراب، فإنَّ الَّلاهثين وراءه لا يرونه إلَّا ماءً، وحتى لا يُسكب الماء ويصبح النَّاس عِطاشًا بلا أملٍ ارتأينا البحث في هذا الموضوع الذي جاء عنوانه في مؤلفنا: (كسرُ الوهم).

فكسر الوهم مع أنَّه جاء معرّفًا (الوهم) فإنَّه يعني: أيُّ وهم، سواء أكان وهم السّياسيّين، أم وهم الاقتصاديّين، أم وهم الاجتماعيّين، أم وهم الَّذين اتخذوا من دون الله أربابًا، وكذلك الذين أوهموا النَّاس بما أوهموهم به حتى جعلوا منهم تبّعًا على غير هداية.

وقد تمَّ في مؤلفنا هذا كشف العلاقة بين الوهم، والخوف، والحاجة، والضّرورة، والطّغيان، مع تبيان لنماذج من أوهام الدّول، والتنظيمات الدينيَّة والسياسيّة، والمفكِّرين، والفلاسفة، والسَّاسة.

كما تمَّ البحث في المفاهيم والدّلائل التي لم يحسم أر إيضاح مفاهيمها ودلائلها بين المفكرين الإسلاميين، بل لقد كان الخلاف كبيراً بين البعض والبعض الآخر وبخاصَّةٍ مفاهيم: الجزية، وأسلم تسلم، وقل، ومعجزة الرَّسول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، ونحن من وجهة نظرنا البحثيَّة

التي أوليناها اهتمامًا خاصًّا قد اتضحت أمامنا نتائج ترسّخ المفهوم وضوحًا ودلالة.

كما تمَّ التمييز بين العلل والأسباب التي تجعل من الأنا متطرِّفًا على حساب الآخر، وتجعل من الضعيف مبايعًا للآخر بعلل الحاجة والقبضة الأمنيَّة التي بيد القمم السُّلطانيَّة، التي تولّت أمور الحكم في بعض الأوطان وبخاصَّة في البلدان العربيَّة.

كما تمَّ كشف أوهام المعاهدات الدوليّة التي عُقدت الاجتماعات واللقاءات بشأنها بين الدّول العظمى؛ لتقسم أوطان الشّعوب، ثُمَّ تحتلها كرهًا؛ لتستغل ثرواتها، وتكسر موروثها الثقافي والحضاري؛ لتمسخ هويَّتها، وتجعل من شعوبها تُبّعًا لا يمتلكون الإرادة ولا السِّيادة، ومع ذلك فالشُّعوب استقلّت بعد أن دفعت الثّمن غاليًا قتالًا وجهادًا.

وكذلك تمَّ التعمُّق في مفاهيم ودلائل الشّيء واللاشيء، والتمييز بينهما، كما وُفقنا بعزّة الله وتأييده في تبيان المنهج وأهميَّته، وكيفيّة البحث به ونظم المعلومات بعد تفكيك وتركيب يمكن من بلوغ النتائج وتفسيرها.

وبما قمنا به من مجهود بحثي تمكّنا من معرفة مخاطر القوَّة المتوازية مع قوّة الوطن، والتي إن لم تكسر ستكون خطرًا عظيمًا على سيادة الوطن وإرادة شعبه، وهذه الخطوط المتوازية مع قوّة الوطن قد تكون حزبيَّة، وقد تكون قبليّة، أو طبقيّة، أو جهويَّة.

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2021م

الوهمُ

الوهمُ هو ما يجثم على العقل البشري من معلومات مملوءة بالمخاوف، وفاقدة للمصادق، ويتم التمسّك بها والتعصب لها، والوهم يؤدّي بأصحابه إلى المبالغة في الانقياد والتبعيّة، أو المبالغة في المواجهة مع المخيف، ومن يشكّل الوهم عنده قناعة يظل واهمًا إلى وقت متأخر قد تضيع فيه فُرص الصّحوة والعودة إلى المعرفة الواعية بما يجب الإقدام عليه وما يجب الإحجام عنه.

ومع أنَّ الوهم يؤدِّي إلى تطويع العقل وانقياده إلى الاتجاه الخطأ فإنَّ المتمسّكين به كُثر؛ فتراهم في مواضع الخلاف يدافعون به ويحاججون عنه وهمًا مع ظنهم أنَّه سيتحقّق لا محالة.

ولذا يعد كل ما يُغيّب العقل عن معرفة الحقيقة وكشف الزّيف عنها وهمًا، ودائمًا حال الوهم من الحقيقة كحال الكذب من الصّدق، وحال السَّراب من الماء، ومعظم الواهمين إذا ما أتيحت لهم فرص الاختيار فلا يرون من الألوان إلَّا أحد اللونين: (الأسود أو الأبيض)، وهذا أيضًا حال المتأدلجين فهم لا يرون إلَّا بعين الغير الذي أوهمهم بأنَّ أعينهم لا ترى صوابًا، ومن ثمَّ فهم في حاجة لسلامة عينه التي ترى دون غيرها كلّ شيء بما فيها شئونهم؛ وبهذا يُسلّمون أمرهم إليه وهم يعتقدون أنَّه لا مستقبل لهم إلا المستقبل الذي يرتضيه، ويوجّههم إليه، مما يجعلهم كالأوراق المسحوبة نسخة واحدة (إنَّها أوراق الوهم).

ومن ثمَّ: فمن يقنع نفسه بأنَّه البطل، أو العالم، أو الزّعيم، أو القائد، أو الخليفة فهو لا شكّ أصبح يعيش حالة من الوهم، ومع ذلك فقد يصدّق البعض ادعاءاتهم وأوهامهم وأخصُّ بالبعض: (الذين هُزموا في معارك سابقة، أو ضاقت بهم الدنيا بما رحبت، أو من تكون لهم أوهام مرجوة) فيتعلقون بمثل هؤلاء وكأنّهم المنقذ، فيضحُّون بمستقبلهم من أجلهم حتى يقبرهم الوهم واحدًا واحدًا، أو ينعم الله عليهم بغضبٍ يقلب الطاولات على رؤوس الموهِمين، أو أن تلد لهم الأرض طفلًا مثل ذلك الطفل الذي رأى الملك عاريًا؛ حيث يُحكى: أنَّ أحد الملوك خدعه خيّاط محتال وأقنعه بأنَّه سيصنع له ثوبًا سحريًّا عظيمًا لا يراه إلا الحكماء. اقتنع الملك بمهارة الخياط المحتال فظهر على وزرائه من على شرفة القصر المطلة على الحديقة عاريًا تمامًا، وقال: انظروا ما رأيكم في هذا الثّوب السّحري الذي لا يراه إلا الحكماء؟! فخاف الوزراء من غضب الملك فقالوا وكأنَّهم يقرأون أنشودة سبق لهم وأن حفظوها: إنَّه ثوب عظيم يا مولانا، وأضاف بعضهم: لم نر في حياتنا أجمل ولا أروع من ثوبك هذا، ولكن المفاجئة جاءت من طفل كان من بينهم في حديقة القصر، فقال ببراءة: أين هو الثّوب الذي ترونه؟! ثمَّ صاح بأعلى صوته: إنّي أرى الملك عاريًا... إني أرى الملك عاريًا.

هكذا هي بالتمام حقيقة التُّبع والذين تأدلجت عقولهم بأوهام وأفكار لا تَمتُّ للحقيقة بصلة، وجميعهم ينطبق عليهم: (إني أرى الملك عاريًا)؛ ولهذا دائمًا الوهم مخالف للحقيقة؛ ومن ثمَّ يجب أن يُكسر قبل أن يجعل من الأسوياء معاقين.

إذن فالتأدلج وهم يجعل من المتأدلجين أدوات مسخّرة بأيدي كبير الواهمين، والواهم أوّل ما يوهم نفسه بأنّه يفهم أكثر من غيره، ويعلم أكثر من غيره، ومن ثمّ على الغير اتباعه وطاعته وإلّا فهم في ضلال، ولا منقذ غيره؛ فيتظاهر وهمًا أنّه الزّعيم، أو القائد، أو المنقذ، أو المفكّر، وعندما يستشعر أنَّه في أعين البعض يبدو كذلك يزداد في تصنّعه قائدًا أو زعيمًا أو مفكّرًا حتى يثبت بحق أنّه الواهم.

وعليه: فالوهم تضخيمٌ للأنا الذي يبلغ الحال به وهمًا أنَّه لا يرى مركزًا للعالم إلّا هو دون غيره، ومن ثمّ يرى وجوب دوران العالم من حوله دون سواه. وبهذه الحالة لا فرق بين الواهم والكاذب الذي يعرف حقيقة نفسه أنَّه يكذب، ومع ذلك عندما يجد النَّاس تستمع له فيصدّق وكأنَّه الصَّادق؛ ولهذا فالمصدّقين لما يقال من دون تبيّن ولا امتلاك شجاعة مثل شجاعة ذلك الطفل سيظلون واهمين بلا إرادة، وسيظلون في حاجة لمن يساعدهم على كسر ما ألمَّ بهم من وهمٍ؛ ولهذا لا يكسر الوهم إلّا بإظهار الحقيقة وكشف الزّيف عنها.

ومن ثمَّ علينا أن نميّز بين حقيقةِ: أنَّنا نحلم، وحقيقة: أنَّنا لا نصدّق أحلامنا (لا نصدق ما نراه يجري أثناء نومنا، ولا نأخذ بما جاء فيه) ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر حقيقة السؤال القائل:

لماذا لا نشك في أنّنا نحلم، ونشك فيما نحلم به؟ أي: بما أنَّنا نحلم يقينًا وحقيقة فلماذا لا تكون أحلامنا هي الأخرى حقيقة ينبغي الأخذ بما يورد فيها؟

أقول: مع أنَّ ما يجري في أثناء النّوم حُلمًا حقيقيًّا فإنَّه لا يزيد عن كونه حقيقة نائم؛ ولأنَّه كذلك فالواهم بأنَّ الصواب في أحلامه صدقًا لا يزيد عن كونه لا زال نائمًا، ومن يأخذ بما حلم به فلن يجد أمامه بعد الصّحوة واليقظة إلّا سرابًا؛ ولهذا قبل أن يُوهم نفسه ويقنعها بذلك ينبغي أن يُنصح بحقيقة أحلامه؛ كي لا يسكب الماء الذي بين يديه بغاية أن يشرب من السَّرابِ ماءً.

الوَاهمُ:

الوَاهمُ: هو من يوهم البعض عن قصدٍ بأشياء لم تكن من أصل الأشياء، فيغيِّب الحقيقة عنهم ويحجبها ببدائل مزوَّرة، ويدّعي أنَّها ذات أصلٍ، وبهذا يكون سببًا في تغييب العقول عن معرفة الحقائق من خلال تزويره للمعلومات الصَّائبة بالمعلومات الخاطئة؛ ولذا فالواهم هو من أظل نفسه وأظل غيره بما لا حقيقة من ورائه.

الموهومُ:

الموهومُ: من يثق فيما يقال أو يُكتب دون أن يخضعه للتحليل والقياس والتقصّي، ولا يوصف بهذا الوصف إلّا من حُجبَ عقله عن معرفة الحقيقة بمعلومات مضلّلة وهو لا يدري أنَّها كذلك؛ فَيُسلِّم بها، وقد تجعله على عقيدة بها تنكسر الحقائق ولا ينكسر وهمه.

ولهذا فمن يعتقد أنَّه مصدرٌ للحقيقة فهو واهم، ومن يدّعي ذلك فهو في حاجة لمن يوقظه من الوهم الذي ألمَّ به، وغيَّبه عن معرفة الحقيقة، التي لا تستمد إلَّا من الحقِّ وحده.

ومع أنَّ معرفة الحقيقة وتجلّياتها ذات علاقة بالفِكْر فإنَّها كذلك ذات علاقة بالواقع؛ فالواقع عندما يكون متقدّمًا على الفِكْر ينبغي أن يغَّير الفِكْر؛ كي يواكب الواقع الذي تقدَّم عنه، وفي المقابل عندما يكون الفكر متقدّمًا على الواقع ينبغي أن يغَّير الواقع؛ كي يواكب التطلّعات الفكريّة السَّاعية إلى بلوغ الغاية التي من ورائها مأمولات إنسانيَّة عظيمة.

الموهمُ به:

الموهم به: هو ما يُوعَدُ به من قِبل الواهِم للموهوم في حالة ما إذا تحقق الوهم؛ ولأنَّه الوهم فلا إمكانيَّة لتحقّقه أو بلوغه ونيله، ولكن يظل الواهِم موهومًا به حتى النهاية ما لم يكن من بين الموهومين طفلًا يرى الملك عاريًا، أو أن يحدث الله أمرًا.

والموهوم به يُمكِن أن يكون وظيفة أو منصبًا رفيعًا، أو مكافئة ماليّة، أو وهمًا لا تنطبق عليه أيّ صفة من الصّفات، ومع أنَّ الوهم هو الواهم، فإنَّ الواهم عندما يكون آمنًا تختلف وعود أوهامه عمّا إذا كان في مواجهات مع الخصوم؛ فالأولى لا تكون إلَّا محدودة، والثانيّة لا تكون إلَّا مضخَّمة، إضافة إلى الوعد بالوهم الواحد لأكثر من شخصٍ واحد؛ كأن يَعِد الحاكم أحد أتباعه برئاسة أركان جيوشه بعد أن يتحقق النَّصر، ثمَّ يَعِدَ بذات الوظيفة والدّرجة ثانٍ، وثالث ومن بعده رابع.

كسرُ الوهم:

المقصود بمفهوم كسر الوهم: إنَّه من الممكن فكّ قيده والتخلّص منه إذا ما أتيحت الفرص للعقل أنْ يفكِّر فيما يفكّر فيه في الوقت الذي

هو فيه يفكّر، وفي المقابل لا إمكانية لفك قيود الوهم إذا ظل الإنسان خارج دائرة الانتباه العقلي الممكِّنة من التمييز بين ما يجب وما لا يجب مع فسحة الاختيار بعد التبيُّن.

ولأنَّه الوهم؛ فهو الغمّةُ التي إذا ما أزيحت عن الصدور انفرجت كربها، وتيسَّرت أمورها تفاعلًا وتعاونًا من أجل ما يجب تجاه الآخر الذي لا تزاح الغمَّة عنه إلَّا بكسر قيد الوهم، وعودة الواهمين إلى عقولهم وعيًا؛ ولهذا يعد كسر الوهم إفسادًا لمشاريع المفسدين، وإصلاحًا لأحوال الواهمين.

معطياتُ كسر الوهم:

الوهمُ كونه تيهًا وضياعًا ولا مأمول من خلفه فإنْ لم يُكسر بحجَّة دامغة للباطل لا شكّ أنَّه سيكون سببًا في كسر من لا يودُّ للوهم أن يسود بين النَّاس؛ ولأنَّ الوهمَ لا ينفصل عن عقول الواهمين؛ فالخلاف بين الواهمين والعازمين على نيل المأمولات الرّفيعة يؤدّي إلى الصدام والنزاع والاقتتال؛ ومن ثمَّ فإن انتصر الوهم انكسرت الحقيقة، وإن انتصرت الحقيقة انكسر الوهم.

ولذا فالذين لا يرون لهم مستقبلًا إلّا بالعودة إلى الماضي ونسخ الحقيقة منه هم بطبيعة الحال واهمون؛ ذلك لأنَّ معطيات الماضي مختلفة بالتمام عمَّا نحن عليه في عصرنا؛ أي: معطيات ما قبل الميلاد ليس بمعطيات ما بعده، ومعطيات إنزال الوحي على النبي محمَّد صلى الله عليه وسلّم ليس بمعطيات ما قبله وما بعده، وحتى معطيات القرن العشرين لن

تعد صالحة بالتمام للقرن الواحد والعشرين، بل معطيات ما قبل كورنا 19 لن تكون المعطيات اللاحقة عليها.

ومع ذلك لا ينبغي أن نغفل عن أهمّيّة معطيات الماضي عِبرًا واتعاظًا، وفي دائرة النسبيّة ليس بالضرورة أن يرتبط الأمل ونيل المأمول بالمستقبل، سواء أكان بعيدًا أم قريبًا؛ فأبونا آدم بعد أن أوهمه الشيطان بما أوهمه به وهو الأكل من تلك الشّجرة المحرّم الأكل منها؛ عصى ربّه وأكل منها مع زوجه، ولكنَّه بعد المعصية ندم، فاستغفر ربّه فتاب عليه، ثمَّ أُهبط به مع المخالفين على الأرض أرضًا، ومن بعدها لم يبقَ لأبينا آدم إلَّا أمل العودة إلى تلك الجنّة التي أُخرِج منها هبوطًا على الأرض؛ أي: أصبح أمل آدم عليه السَّلام مرتبطًا مع الماضي، ولا علاقة له بالمستقبل، ولكن هذه خصوصيّة لآدم وزوجه، أمَّا ما بعد آدم فلا وجود لأملٍ يؤمل نيله إلَّا في المستقبل (قريبه وبعيده)، مع العلم أنَّه لا إمكانيّة لبلوغ الأمل ونيله في مرضاة الله إلَّا عملًا متميّزا ولا وهم.

أمَّا أوهام الحاضر فهي لا تعشش إلَّا في عقول من يظن أنَّ الحاضر هو الحلّ ولا حلّ من بعده، وكأنَّ الزّمن سيتوقّف عند حاضرنا في الوقت الذي سيكون المستقبل أفضل بكثير إن عملنا من أجل بلوغه ونيل مأمولاتنا منه؛ ولذلك وجب كسر الوهم الذي لا يزيد عن كونه مخادعة للنفس، وتحايلًا على الآخرين. وعلينا أن نميّز بين أفكار ترسّخ الوهم وأفكار تنير العقل وعيًا.

ولأنَّنا نعرف أنَّ العقل الذي يكشف الحقيقة قادر على إخفائها أو تزويرها فلا استغراب من تغيير المواقف من وهمٍ إلى حقيقة، أو بعكس ذلك تمامًا؛ ولهذا دائمًا المعلومة الصّائبة تصحح المعلومة الخاطئة بغاية معرفة الحقيقة وكسر الوهم.

من المعطيات الرَّئيسة لكسر الوهم:

_ **الدِّين**: جاء نورًا لربط العلاقة بين السَّماء والأرض عدلًا؛ ليظهر العلاقة والحدود بين: (المستحيل، والمعجز، والممكن) ، ويكسر الجهل الذي به أُوهِمَ النَّاس بأربابٍ من دون الله، الذي تتعدد صفاته وهو الواحد الذي لا يتعدد، وهو من يعلم أحوال الكليَّات والجزئيَّات، ويعلم يوم يبعثون؛ ومن هنا جاء الدّين نورًا وحلًّا من خارج العقل إليه (من العليم إلى من هو في حاجة لأنْ يعلم)؛ ولذا فلا أقدميَّة للكون تجعل له أسبقيّة، ولا أزليَّة تجعل له البقاء الدّائم، وكذلك لا مصادق لخلقه من العدم، بل الكون باتساعه وسرعة تمدّده التي لم تتوقّف بعد. ولم تنته بعد هو الكون المخلوق من لاشيء يذكر؛ حيث لا سبب يسبق المسبب، وكل ما يخالف ذلك لا يزيد عن كونه وهمًا فكريًّا سواءً أكان صادرًا عن تهافت الغزالي في هجومه على الفلاسفة، أم كان صادرًا عن تهافت ابن رشد في دفاعه عنهم، أم كان صادرًا عن غيرهم وعلى رأسهم الفيزيائي الأمريكي (لورانس كراوس) الذي قال: (خَلق الكون نفسه ولم يكن من ورائه خالق).

_ **اصطفاء الرُّسل وبعثهم**: جاء تحدٍّ لكسر أوهام حواجز الخوف من الظَّالمين والمتكبِّرين والمتجبِّرين والطّغاة، ولهداية النَّاس للأحسن بالتي هي أحسن؛ ومن هنا جاء النبأ من: (المنبأ إليه إلى من أرسل إليهم نبيًّا).

_ **الشَّك**: شكٌّ في ما هو كائن حتى يتمّ التعرُّف عليه وعيًا (هو كما هو)؛ كي لا يتمّ الأخذ به من قِبل البعض وهمًا من بعد وهمٍ؛ ولهذا جاء الدين لكسر وهم الجهل، وجاء الشَّك لكسر وهم التسليم العقلي لأيّ شيء بلا تبيُّن، وفي مقابل ذلك يظل الظن في معظمه وهمًا، ويظل المنطق مرافقًا لنا بغايةٍ: (أريد أن أعرف، وأتبيَّن عن وعيٍ؛ خوفًا من الوهم).

ولأنَّه الشَّك فلا يكون شكًّا إلَّا فيما هو موجود، أي: لو لم يكن موجودًا فلا شيء يشكّ فيه، وهذا بالتمام ما حدث مع الفيلسوف ديكارت حينما قال: (أنا أفكر أنا موجود) بمعنى: لو لم أكن موجودًا ما فكّرت في وجودي، أي: بما أنّني موجود فلماذا شكّكت في وجودي أساسًا؟

وعليه: فكلمة (أنا أشكُّ) تؤكِّد وجودي يقينًا، ولأنَّ ديكارت يؤمن بالله فلا يرى في الشّكّ إلّا اعترافًا بوجود نقص في من يشكّ، أو في المشكوك فيه، وبذلك لا يرى كمالًا في مَنْ يشكُّ، وفي مقابل ذلك يرى الكمال لله وحده؛ ولهذا فالكامل خير من الناقص الذي يشك، مع أنَّ الشّك منهجٌ يُمكّن من المعرفة التَّامة كما يُمكّن من معرفة الكامل الذي لا نقص فيه، ومن هنا ينبغي أن نشّك في كل منقوص حتى علم اليقين وعينه، وبلوغ المعرفة الواعية الممكنة من كسر الوهم.

_ **المنطق**: هو ما ينظّم التفكير العقلي على الحجّة والقياس بالحقيقة، التي تدافع عن مغازيها بدلائلها وبراهينها إذا حدثت مواجهةٌ مع الباطل؛ وبذلك فالمنطق يستند على قواعد ومعايير تُمكِّن من التمسُّك

بمبدأ: ماذا تقول يا سيدي؟ بدلًا من السَّمع والطَّاعة، وهذا المبدأ يعنى: (لا سيادة لأحدٍ على أحدٍ، والكل سيِّد).

_ **الفلسفة**: تُعرَفُ الفلسفة بالجهود التي تُبذل بغاية توليد الحكمة من الحكيم، والتتبُّع الفكري للعلل والأسباب (استقراءً، واستنباطًا، واستدلالًا)، ومن خلال القوانين المؤسّسة للعلوم والمعارف، وهي في أساسها علم جاء لكسر وهم التقديس لغير المقدّس، ثمَّ لمعرفة الحكمة من وراء المقدّس الذي بإمكانه أن يؤثِّر في العقول اتعاظًا وعبرة، وهي الممكِّنة من المعرفة المجرّدة، والتفكير في الكيفيَّة حتى بلوغ معرفة المعجز والمستحيل والوقوف دونهما تسليمًا؛ إذ وراء كلّ معلول علّة، ووراء كل سبب مسبب، ووراء كل بداية نهاية.

_ **العلم**: يُمكّن من اليقين تسليمًا بأنَّه لا أزليَّة لمخلوق حيث لكل بداية نهاية، ويمكِّن من عين اليقين مشاهدة وملاحظة بأنَّه وراء كل مخلوق خالق، والخالق يرى مخلوقاته، ومخلوقاته في عالم الوجود الدنيوي لا يمكن لها أنْ ترى خالقها، كما يُمكِّن من حقِّ اليقين تجربة فيها المعايشة تُمكِّن من فرز الأوراق بنتائج يتم قبولها، أو رفضها بحقائق تكسر الوهم ولا تَقبل أنْ تقوم له قائمة.

الموقظاتُ من الوهمِ:

ولأنَّ الواهمين في غفلة من أمرهم بمعلومات مزوَّرة بقصد تحييدهم عن معرفة الحقيقة لصالح من أوهمهم؛ فهم في حاجة لمنقذ يتقبَّلهم كما هم من أجل الأخذ بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه موضوعيًّا؛ إذ لا مجال للمنقذ أن ينحاز لغير الحقِّ وإحقاقه، ومن ثمَّ يمكّنهم من التخلُّص من وهم التبعيّة، والانقياد تجاه المجهول (الموهوم به).

ومع ذلك فالموهوم به يظل عند الواهِم حلمًا حتى ينكسر الوهم، أو يصبح الواهِمُ في خبر كان.

وعندما يصبح الواهِم وقد بلغ الحال به إلى قفل معلوماته بمعلومات خاطئة، فلا إمكانيّة لكسر وهمه إلَّا بتصحيح المعلومات الخاطئة التي تستغرق من الوقت وقتًا، ومع ذلك قد لا يفيق من وهمه إلَّا بعد دخوله معركة تكون الخسارة فيها كفيلة بإيقاظه.

ومع ذلك فإنَّ لكل قاعدة استثناء فالبعض دخل أكثر من معركة ولم يصحَ من وهمِهِ حتى ورَّثه لأحفاده من بعده، ويا ليته لم يورِّث؛ فمثل هذا التوريث يجعل من الجيل الثَّاني نسخة موهومة بالجيل الأوَّل.

ولأنَّ لكل قاعدة استثناء فسيظل التنوّع ساريًا معنا، والمصلحة والمنفعة عندما تقطف ثمارها تغيِّر المواقف بمواقف بديلة، وأحيانًا تكون بمواقف متضادة؛ وذلك عندما تكون قاعدة الوهم منقلبة بين الواهم والموهوم والموهوم به؛ أي: عندما يصبح الوهم وكأنَّه عُملة بيع وشراء فالمواقف بالضرورة تصبح متبدّلة ومتقلّبة.

ومن هنا تستبدل المصالح بين المتبدِّلين في مواقفهم، وفي المقابل تصمد القيم الحميدة، والفضائل الخيِّرة عندما تكون المواجهة من أجل ما هو أعظم؛ كالدِّين، والوطن، والشَّرف؛ وبهذا تنكسر الأوهام التي غيّبت كثيرين عن معرفة الحقيقة، وفي بعض الأحيان لا ينكسر الوهم إلَّا بكسر الواهمين؛ فعلى سبيل المثال: التكبُّر وهمٌ عظيم؛ ولأنَّه كذلك فلا إمكانيَّة لكسر وهم التكبُّر إلَّا بكسر المشاريع الواهمة وأصحابها، وهكذا التسلُّط يعدُّ وهمًا ولا ينكسر إلَّا بكسر الواهمين، وأيضًا من يرى نفسه زعيمًا ولا زعيم معه أو لا زعيم من بعده فهو واهم، ومن يرى نفسه أنَّه عالمٌ ولا عالم معه أو من بعده فهو واهم، وهكذا من يرى نفسه أو يراه الواهمون بأنَّه المرجعيَّة التي لا مرجعيّة سواها فهو ومن يراه كذلك واهمون؛ ولذا وجب كسر أوهامهم بإرادة العارفين قبل أن تتسع رقعة الواهمين على حساب وعي النَّاس؛ ذلك لأنَّه لا خليفة على النَّاس إلَّا النَّاس أنفسهم؛ كونهم الجنس المفضَّل على من خلق؛ ولذا فمن يدّعي أنَّه خليفة لغيره فهو واهم، وينبغي أن يكسر وهمه بنور الله الذي جعل الإنسان خليفة.

وحتى خلفاء رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ليسوا بخلفائه؛ فالرّسول لا يخلفه إلَّا رسولٌ، والرَّسُول يصطفيه الله مباشرة دون غيره، وينبئه بالنبأ العظيم، أو يرسله برسالة من عنده، وهذا ما لم ينطبق على خلفاء محمَّد رضي الله عنهم؛ فصحابته الذين استخلفهم النَّاس لم يستخلفهم الله؛ ولهذا فالفرق كبير بين من يصطفيه الله رسولًا، ومن يختاره البعض مسيّرًا لشؤونه السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والحربيَّة؛ ولذا فمن يرى نفسه خليفة

للمسلمين فهو واهم؛ إذ لا خليفة للمسلمين إلَّا كتاب الله وسنَّة رسوله، زمن ثمَّ لا رسالة ولا رسول من بعد محمَّد.

سرابُ الوهم:

مع أنَّ الوهم يُحفّز على ركوب المخاطر فإنَّه لا إمكانيَّة للتحدّي به، فهو يوصلك راكبًا إلى نصف مقصدك، ويتركك هناك حافيًا حيث لا وسيلة للمفرِّ من الوقوع في المصيدة، وفي حالة ما حاولت الفرار فلن تجد طريقًا خاليًا من الأشواك، وعندما تصبح الطّرق والمنافذ مليئة بالأشواك يعرف الواهم إنَّها من تلك البذور التي بذرها وهمًا بين النَّاس.

وعندما يقع الواهم في الفخّ وتنكسر هيبته وسياسته يتخلّى عنه معظم الواهمين مصلحةً، بل ويُلبسونه ما لم يكن قد لَبِسَهُ من قبل، وعندما يقع في الفخ تلاحقه اللعنات، وكأنَّه لم يكن لهم رمزًا، ولم يكونوا له من قَبلُ سندًا.

ومن ثمَّ فرؤوس النّصر دائمًا كثيرة، أمَّا الهزيمة فلا رأس لها إلَّا الوهمُ؛ ولهذا عندما تضعف الدَّولة وتنهزم لن تنال الاحترام حتى من أهلها، وهكذا حال القادة عندما يُهزمون يتخلّى عنهم الأقارب والأباعد، وبخاصّة إن كانوا ممن امتلكوا المال وأفسدوا، وهذه تتضح جليًّا في مجتمعات دولة العصبيَّة.

وعندما تسقط الدّولة؛ إذ لا مؤسّسات، ولا نظم ولا قوانين، ولا رجالات أمن يعود البعض إلى قبائلهم التي بهتت صورتها من القدم؛ لينفخوا الرّوح فيها بغاية الاحتماء من الفوضى ودرء المخاطر، إلى أن تعود

مؤسَّسات الدّولة لطبيعة عملها فيعودون، وفي الوقت ذاته تَبعث روابط التماسك روح العصبيّة في أهل المدينة من أجل البقاء الآمن، وتفادي المخيف. وفي معظم الأحيان الرؤوس التي تظهر في زمن الفوضى ليست برؤوس وطنيّة، ولا اجتماعيّة، بل في معظمها رؤوس سلب ونهب وإفساد لرأس مال الوطن.

ومع أنَّ لكل وهمٌ ردة وهمٌ فإنَّ منهاج الواهمين واحدٌ وإن اختلفت الأساليب، فالسَّارق هو السَّارق، والكاذب هو الكاذب، والواهم هو الواهم، وهؤلاء في معظمهم في الدّول الفاسدة يفضّلون على غيرهم من أهل القيم الحميدة، فيجندون من قبل أجهزة القمم السُّلطانيَّة، وفي المقابل لا ضحيّة لهؤلاء إلَّا الشُّعوب ومؤسّسات الدّول.

ومن ثمَّ تجد رجال الأمن السرِّي يكتبون التقارير في الكلّ، والكل عندما تتاح له الفرصة يكتب التقارير في رجال الأمن؛ ومن ثمَّ في زمن تحكّم الوهم في الدّولة لا سقف لكتابة التقارير ونشر الوشايات، وزرع الفتن، واختلاق المؤامرات، ودس المكائد، ولكلٍّ وهمهُ؛ فالحاكم الواهم حتى وإن جاءته في أحد المواطنين وشاية كاذبة فلا يظنها كذبًا، بل يعدُّها صادقة ما لم يثبت التحقيق بالإكراه بطلانها؛ ولهذا سُجن من سُجن ظلمًا، وقُتل من قُتل ظلمًا، وهاجر من هاجر ظلمًا، ومن هنا لا شيء يُطمئن قلب الحاكم كرها إلَّا المبايعات وإن كانت وهمًا، والمبايعة التي لا تجدَّد بمبايعات من بعدها تعد باطلة ولا يؤخذ بها، ولا ثقة في أهلها؛ ولذلك تسجّل المبايعات وتعرض على الشاشات المرئيّة أكثر من أيّ موضوع ولو كان المواطن في حاجة ماسّة إليه.

إذن عندما يصبح هكذا فلا صفة للدّولة إلّا (الوهم)، ولنفرِّق بين الدّولة الواهمة والدّولة غير الواهمة؛ ففي الدّولة غير الواهمة الدين ينتشر بالحُجَّة، وفي الدّولة الواهمة المذاهب تنتشر تحت مظلة السُّلطان الواهم، وهذا الأمر يجعل الصّراع داخل الدّولة على المنابر بين من يدعو لله، ومن يدعو للحاكم.

ولأنَّ الدّين السَّماوي من عند الله فبعض الحكَّام المسلمين يتخذونه مظلّة ليقال عنهم إنَّهم أهل التقوى، وفي الوقت ذاته منهم من يتقدّم ليصلِّي بالمصلّين ولا علاقة له بتقوى الله، وفي هذا الشأن فإنَّ أخطر شيء يمكن الإشارة إليه أن يتحالف السُّلطان مع الفقيه، وحينها تلتحف السّياسة بالدين، ويلتحف الدين بالسّياسة؛ مما يجعل وهم السّياسة في الدين، ويجعل الدين في السّياسة وهمًا.

أي: يُصبح الفقيه داعية للسُّلطان، والسُّلطان داعية للفقيه، ومن بعدهما لا يبقى أحدُ المسئولين في الدّولة داعيّة للدين، وعلى هذا الغرار انقرض المذهب المعتزلي، وانتشر المذهب الأشعري بعد أن اعتنق صلاح الدين الأيوبي المذهب الأشعري، وأصبح الأزهر الذي كان شيعيًّا إسماعيليًّا أيَّام الدّولة الفاطميّة سُنيًّا، ومن ثمَّ نشرت السُّلطة المذهب الأشعري، وتغيّر الفقهاء والمشايخ والقضاة، ثم ألغي تدريس المذهب الشيعي في المعاهد الدينيَّة؛ ذلك لأنَّ دائمًا حوالي 90% من المشايخ والعلماء هم في الاتجاه المرضي للسُّلطان الحاكم، وفي المقابل السُّلطة تعمل على نيل رضاهم وعدم معاداتهم؛ لما لهم من أثر على العامّة وبخاصَّة على المتتلمذين.

ولأجل أن يستمر السُّلطان أمنًا ولا تكون الفتنة بين المذاهب استوعبت الدّولة المملوكيَّة المذاهب الإسلاميّة الأربعة: المالكيّة، والحنيفيَّة، والحنبليّة، والشافعيَّة، كما أنّها اهتمت بالصوفيَّة أيضًا، ومع ذلك فالتصالح مبدأ مستمر بين السُّلطان والفقهاء، وهذا المبدأ مثلما جعل للوهم السُّلطاني حدًّا جعل لوهم الفقيه حدًّا.

ولأنَّ الوهم لا يفارق عقول الواهمين خوفًا أو طمعًا، فالعلاقة بين آراء السُّلطان والفقيه فيها من التوفيق ما فيها، وفيها من التلفيق ما فيها؛ إذ هناك من الأمور السُّلطانيّة ما لا إمكانيَّة لتمريرها ما لم تُجزْ من الفقيه ولو بشيء من المجاملة والتنازل وغض النَّظر، وكذلك هناك من الآراء الفقهية ما يعيقها ما لم تُجزْ هي الأخرى من السُّلطان بشيء من المجاملة والتنازل، ومع أنَّ البعض لا يرى تنازلًا إلَّا عن قناعة فإنَّ تنازلات مثل هذه لا تتم إلَّا وهمًا.

إذن هناك علاقة بين الوهم وتقديم التنازلات؛ فتقديم التنازلات كرهًا له ردَّات فعل قاتلة في الزّمن غير المتوقّع؛ ولذا فالسُّلطان الذي أسَّس حكمه كرهًا سيكون واهمًا إن نام يومًا من دون أوهام مزعجة، أمَّا تقديم التنازلات ضرورة وإرادة فهي لا تخرج عن تبادل المصالح وسلامة البقاء الآمن، ومع ذلك فأمر الضرورة فيه من الوهم ما فيه.

ولنأخذ أنموذج التحالف الذي جرى بين محمد بن عبد الوهاب، ومحمد ابن سعود 1158هـ - 1745م بغرض أخذ النصرة المتبادلة؛ حيث تنازل محمد بين عبد الوهاب عن السُّلطة السياسيَّة لمحمد بين سعود

بغاية مفادها: لك السّمع والطّاعة بشرط الدّفاع عني، وفي المقابل يصبح محمد ابن سعود داعمًا لأفكار محمد بن عبد الوهاب ومدافعًا عنه، كما نصّ ميثاق الدرعيَّة على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة التوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع والخرافات[1].

إنَّه اتفاق من أجل البقاء، ومغالبة لمن لم يكن مشاركًا؛ ولهذا فمن لم يكن مشاركًا ولا مُبارِكًا سيظل خصمًا وإن اتبع تُقية يستظل بها أمام أعين المؤيدين والمناصرين.

ولهذا فالوهم وإن غيَّب الذاكرة يصعب عليه أنْ يُغيِّب العقل بالمطلق، أي: إذا غُيِّبَ ما يُوعِظ أو تؤخذ العبر منه أو يُذكِّر، فمن الصَّعب ألَّا يفكر العاقل في غَدهِ ولو كان وهمًا.

والعقل الذي قيَّد نفسه بإمكانه أن يفكّر في كيفيَّة فك القيد عنه، أي: العقل الذي أوهم نفسه بما أوهمها به، فهو في دائرة الممكن بإمكانه أن يكسر قيد الوهم عنها.

والعقل الذي لا يرى مرجعيَّة له إلَّا الماضي، ولا مستقبل له إلَّا بالعودة إليه فهو واهم، ومن ثمَّ فمن ينقلب على نظامٍ سياسي، أو اقتصادي ويستخدم المنهج والوسيلة نفسها، سيكون واهمًا إنْ ظنَّ أنَّه سينال رضا مَن أيَّده ساعة انقلابه على تلك الأفكار والأساليب التي أعطت مبرّرًا لتأييده منقلبًا.

---

[1] سليمان بن عبد الله، التوضيح عن توحيد الخلاق، الرياض: دار طيبة، 1404هـ، ص25-26.

وفي المقابل من ينقلب على نظامٍ سياسي أو اقتصادي ويلغي كلّ الجهود التي سبقته بناءً؛ فهو واهمٌ إنْ اعتقد أنَّه سيكون ناجحًا في تحقيق منجزات أمنيّة، أو سياسيّة، أو اقتصاديَّة، وهذا ما حدث بالتمام في العراق بعد الانقضاض على الرّئيس صدَّام حسين وإعدامه، حيث صدر قانون العزل السّياسي الذي به تمَّ القضاء على أهل الخبرة والدراية والتجربة؛ فدمرت إدارات الدَّولة، وتأخرت نهضة البلاد، وهكذا كان الحال في ليبيا بعد الثّورة على العقيد معمر القذافي والإطاحة بنظامه واستصدار قانون العزل السياسي، الذي هو الآخر كان سببًا في التصادم والاقتتال، والهيمنة والإقصاء لأهل الخبرة والدراية والتجربة؛ فكان الاقتتال بين بني الوطن شدّةً ولا رأفة فيها.

ومع أنَّ هذه من العيوب المترتبة على التغيير فإنَّ الكفّة المقابلة لكفّة العيوب قد رجحت بمميز كسر الوهم وامتلاك الحريّة ولا مخاوف.

وإنَّ الذين لا يرضيهم التغيير حُلمًا منهم بعودة المجرَّب الذي سئمت الشّعوب منه فكرًا، ومنهجًا، وأسلوبًا، وفشلًا؛ فهم كمن يأمل عودة الميت من قبره، أي: إنَّهم الواهمون إن لم يقلبوا الصَّفحة من أجل مستقبل مرضٍ يكونون ركيزة من ركائزه.

ولأنَّه لا مستقبل لفرض الأمر الواقع، والتمسُّك بالمجرَّب فشلًا ووهمًا فلِمَ لا يُحسم الأمر عدلًا بانتخابات نزيهة بها تُفرز الأوراق بكل نزاهة وشفافيَّة، مع أخذ الحيطة والحذر من أوهام المرشَّحين بدعايات فاقدة للمصادق. فهم بما يدَّعونه قبل إجراء عمليَّة الانتخابات لا شكّ أنَّهم

سيكونون مخالفين لما بعد الفوز وممارسة أعمال حَمْل المسئوليَّة الوطنيّة، وأكثر النَّاس ضحيّة للدّعايات الانتخابيَّة هم: الشَّباب، والمرأة الذين سينكشف لهم الزيف وانعدام المصداقيّة من خلال بقاء العهود الزائفة وهمًا من بعد وهم؛ إذ لن تجد المرأة المكانة التي حلمت بها في تلك الدّعايات، ولن يجد الشّباب من يسأل عنهم، أو حتى يذكر اسمهم كما كانت تتصدّر الصّحف والإذاعات المسموعة والمرئيَّة.

والوهم مع أنَّه يتكرّر فإنَّه لا يفقد حيويَّته؛ ولهذا فالبعض يقع في المصيدة أكثر من مرّة، والوهم مثل لاعب الورق يمكن أن يخسر، ويخسر، ثمَّ يخسر وفي كل خسارة الوهم لا يفارقه، بل يمده بالحيويَّة التي تعيده إلى المنزل ولا شيء لأبنائه بين يديه، ومع ذلك سيكون مترقّبًا للصّباح أو المساء بوهمِ العودة وحيويَّته إلى لعب الورق وهمًا.

هكذا هو الوهم عندما يسيطر على المدركات الموجّهة للعقل، أو الفعل، أو السُّلوك، ويتّضح مثل هذا الوهم عندما يلتقي المتخالفون، أو المتقاتلون عن طريق الوسطاء فينكشف حال ذلك النّصر الموهوم به بلا مكانة على طاولة المفاوضات، بل الوهم وحده مطأطئ الرَّأس أمام الحقيقة (انتصار من لم يكن واهمًا وهزيمة الموهوم)، وفي هذا المشهد سيكون المنتصر في جلسة التفاوض هو من يُملي شروطًا، وفي المقابل سيكون المنهزم هو من يقدّم التنازلات، ومع ذلك وعن غير وهمٍ لا استغراب أنْ يسقطك الخصم أرضًا، ولكن الاستغراب ألَّا تهمّ وتنهض.

وعندما يكون التفاوض بين السّياسيين وأهل الفضائل الخيّرة ستكون دلالات المفاهيم في أثناء التفاوض مختلفة؛ وذلك باختلاف الأغراض والغايات؛ فالسياسي في بعض الأوقات لا تهمه الأخلاق، بل ما يهمه كسب المواقف، ومن ثمَّ عندما يقال للسياسي: أنَّ فلانًا مُشركٌ أو كافرٌ ولا أخلاق له؛ سيقول: لا يهمني دينه ولا أخلاقه، بل ما يهمني أن يكون حليفًا لنا، وفي المقابل سيقول صاحب الفضائل قول الله تعالى: {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}[2].

أمَّا في حالة اعتدال كفَّتي التفاوض فسيكون الواهمُ هو مَن يبدأ بإعطاء التنازلات، فهو إنْ قَبِل بالنّزول درجة من على درجات السُّلّم يقابله المفاوض خصمًا بالصّعود درجتين على ذات السُّلّم؛ إذ في بدايات التفاوض لا وجود لحُسن النيَّة في قواميس المتخاصمين، وكل طرف متربّص بالآخر؛ مما يجعل النتيجة بينهما صفريَّة؛ ولن تحدث حركة موجبة بينهم في اتجاه الحل إلَّا إذا عرف كلّ منهم أنَّ الطرف الآخر متمسّك بالحقيقة، فحينها يبدأ الميل والاقتراب من المركز (الحقيقة، وتصبح التفاهمات وحدها هي المخرج من التأزُّم.

ولأنَّ الحياة مدرسة فعلينا أن نتعلَّم فيها حتى ننجح، فنعرف كيف نتّفق، وكيف نختلف، وكيف نفكّر، وكيف نواجه، وكيف نتحدَّى، وكيف نصنع أملًا من ورائه مأمول عظيم.

---

[2] البقرة 221.

ولأنَّ زمن التنظيرات السياسيّة قد ولّى فعلينا بالالتفات إلى عقولنا فهي قادرة على الإصلاح، وقادرة على تجاوز مرحلته وبلوغ الحلّ، فالذين كانت عقولهم تقاد بعقلِ مشيل عفلق، أصبحت عقولهم اليوم ممتلئة بمشاغل الحياة، ولا وقت لديهم للضياع، ومع أنَّ مشيل عفلق لم يعد على قيد الحياة فالوهم ما زال حيًّا، ومن تعلّقت عقولهم بعبد النَّاصر فعبد النَّاصر قد مات، ومن تعلّقت عقولهم بأفكاره فمعطيات الحياة قد تغيَّرت، وكذلك الذين تعلَّقت عقولهم وقلوبهم بأفكار حسن البناء وسيّد قطب فإنَّهما قد ماتا، ولم تعد هناك تربة صالحة لإنبات أفكارهم، ومن يوهم نفسه في هذا العصر بحرث الأرض وزراعتها بأفكارهما؛ فهو كمن يحرث في البحر، وهذا بالتمام حال الدّول التي تأسّست أو بُنيت بأفكار شخوص قد انتهت، بل سقطت كما سقط الاتحاد السوفييتي الذي تأسّس بعد ثورة 1917م على أفكار ماركس وهيجل ولينين، وهكذا لم يعد لأفكار ماو تسي تونج مكانًا في الصّين، وسقطت جماهيرية القذافي وطويت صفحاتها كما طويت من قبل صفحات المدينة الفاضلة والإمبراطوريات عبر التَّاريخ.

وعليه؛ فإنَّ دائرة التّاريخ دائمًا مملؤة بالمفاجئات والعجائب والمستغربات، فبالمقارنة بين ما تلعبه أمريكا من أدوار، وما كان يلعبه الاتحاد السوفييتي وحفيدته اليوم (روسيا) من أدوار، لا يجعل البعض يتوقّع أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة هي التي أصبحت تتبنّى ثورات الشّعوب، وأنَّ الوريث الشّرعي للاتحاد السوفيتي (روسيا) هو المتخلّي عن هذا الدّور الذي كان أكبر متبنٍ له. أي: إنَّ الزّمن الكفيل بترويض الطُّغاة، سيكون هو الكفيل باستبدال المواقف بين متوقّع وغير متوقّع.

ولذا عندما لا يسيطر الوهم على عقولنا فلا استغراب أن نرى من نراهم اليوم في صدارة المشهد السياسي الليبي خارجه بالتمام، وسنكون واهمين إن قلنا: سيخرجون منه بيسرٍ وسلامٍ، ومع ذلك عندما تضع المؤسّسة الأمنيّة أقدامها على أرض الدَّولة فلن يكون أمامها رؤوس العصابات ومساعديهم وأعوانهم مخيفين، ولن يكون لمن شيَّخ نفسه على من شيَّخ شيخًا، ولن يكون من تصرَّف في المال العام سلبًا ونهبًا وتحويلًا فالتًا من الملاحقة والعدالة.

وكلّ من يعتقد أنّه يستطيع أن يتربّع على مقاعد القمم السُّلطانيَّة تحت أيّ عنوان من العناوين المحروقة؛ من قبليّة، وحزبيّة، وطائفيّة، وجهويّة؛ سيكون واهمًا؛ ذلك لأنَّ الوطن إن لم يحكمه مواطنوه، لن يكون وطنًا أمنًا ولا مستقرًّا.

ومن ثمَّ فإذا تعرّض الوطن لخلافات وصدامات بأيِّ علّة من العلل فلا مخرج آمن للمواطنين إلّا أحد أمرين:

الأوَّل: المصالحة الوطنيَّة التي تستجيب لمطالب الجميع دون استثناء؛ فلا غالب ولا مغلوب، فمن قتل نفسًا بغير حقّ فحكم الله فيه مرضٍ، ومن هتك عرضًا؛ فالقصاص عدل لا مفرّ منه، ومن نهب مالًا فعليه ردّه، أو تقبّل العقاب القانوني، ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة في قلوب النَّاس، والصُّلح خير، ولأنَّ الصّلح خير، فيجب أن يأتي الجميع لهذا الخير، وبخاصّة من يرى نفسه منتصرًا حتى لا تضيع الفرص الجامعة للشمل الوطني.

الثاني: بناء الدّولة الوطنيَّة التي تستوعب الجميع، ولا تستثني أحدًا، إلّا من استثنى نفسه بفعل يجرّمه القانون؛ ولا إقصاء، ولا تهميش، ولا حرمان، ولا هيمنة، ولا عزل سياسي؛ ففي الدّولة الوطنيَّة تمارس الحقوق، وتؤدَّى الواجبات، وتحمل المسئوليَّات وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات الدستوريَّة والقانونيَّة[3].

وعليه: لقد ولَّى زمن التنظير واتباع الأوهام، فالشّعوب اليوم لا تريد من يتحدّث لها عن الوطن، أو يتغنى به، بل تريد أن تعرف ماهيّة الوطن الذي ينبغي أن تتغنى به؛ فأخبار اليوم في الوطن العربي الذي أصبح أوطانًا مختلفة في مجملها أخبار وطنيَّة، ولكن عندما يخبرونك عن الوطن فهم بالتمام كمن يخبرك عن كتاب، وليس له ما يقدِّمه منه سوى الغلاف، ونسي أنَّ القُرَّاء يريدون كتابًا وليس غلافًا.

ولأنَّ كل شيء قابل لأنْ يتغيّر، فالواهمون قابلون للتغيير في حالة ما إذا قُمنا بكسر أوهامهم بمعلومات صَائبة، ومع أنَّ الواهمين ليسوا بتلاميذ في فصولٍ دراسيّة فإنَّهم يتعرَّفون على الحقائق عندما تسود الحجّة في وسائل الإعلام، وخُطب السّياسيين، ومنابر العلم والعبادة.

وبما أنَّ كل ما دون المعجز والمستحيل ليس بمطلقٍ، إذن فالوهم ليس بمطلق، ووفقًا لهذه القاعدة المعرفيّة فمن يرى: أنَّ الولايات المتحدة

---

[3] عقيل حسين عقيل، الهوية بين متوقع وغير متوقع، القاهرة: الزعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2014م، ص 381 – 382.

الأمريكيَّة قوّة لا تكسر فلا إمكانيَّة لنا إلّا أن نقول عنه لأنت واهمًا؛ لأنَّه لا قوّة في دائرة الممكن إلّا وتكسر.

وبناء على ذلك أقول: إنَّ مفهوم الضّعف في مواجهة مفهوم القوّة يعني: مواجهة مكسورٍ مع قابل للكسر، أي: إنَّ المكسور هو الضَّعف أو من أصبح ضعيفًا، أمَّا الذي لم يُكسر بعد فهو القوي أو مَن لا زال على القوّة؛ ولهذا تصبح القاعدة العلميّة: لا ضعف إلَّا من بعد قوّة، ولا قوّة إلَّا من بعد ضعف.

وفي هذا الشأن أقول لمن يرى أنَّ أمريكا قوّة لا تُقهر: إنَّ عليك أن تتذكّر ما جرى وكُتب في صفحات التَّاريخ البعيد والقريب، من سقوط الاتحاد السوفييتي الذي ظنَّ كثيرون لوقت قريب أنَّه لا ينكسر، ثم عاد ليقلّب الصفحات إلى الوراء لعرف أنَّ الشَّمس أصبحت تغرب عن تلك المملكة التي قالوا عن شمسها: لا تغيب، وأنَّ الإمبراطوريّة العثمانيَّة لم يبق منها إلّا تركيا، وأنّ التتار، والمغول، والعرب في الأندلس لم يبق لهم شيء يذكر إلّا الأثر، ثمَّ عليه أن ينتبه إلى الصّين التي لم تتحرَّر من الاستعمار الياباني إلّا في التَّاريخ القريب 1945م وبعد دعم ومناصرة روسيَّة أمريكيَّة، وهي لا تعد إلّا من دول العالم الثَّالث، ولينظر إليها اليوم؛ إنَّها أصبحت الدَّولة العظمى المنافسة والمتحديَّة للولايات المتحدة الأمريكيّة.

ومن هنا فالضعيف إنْ هَمَّ من بعد سقوطٍ فبإمكانه أن ينهض، والقوي مهما عظمت قوّته ليس له من بعد القوّة إلّا الضّعف وحتى وإن حافظ على قوّته أعوامًا ودهورًا؛ وهكذا هي سُنن التدافع.

أوهام القبليَّة:

مع أنَّ القبيلة رابطة اجتماعيَّة أصلًا وانتماءً، فإنَّ روابطها لا تتمركز إلَّا على العصبيَّة، ورأسها الشّيخ، وحميّتها: (أنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب)، والسّياسة في عصرها: لا للاستقرار، وأحكامها عرفيّة، وقِصاصُها الثّأرُ، ولها مِن مكارم الأخلاق مع الكرم مكانة، وقواعدها القتاليّة الدّفاع عن القبيلة ومراعيها والأودية التي تحرثها.

أمَّا في عصرنا فلم تعد تلك القبيلة مثل القبيلة هذه؛ فتلك القبيلة لم تستظل يومًا تحت مظلّة الدّولة ودساتيرها المشرّعة، وقوانينها الضابطة، أمَّا القبيلة هذه فمظلتها الدّولة، إدارة ورعاية وضبطًا.

ومع أنَّ تلك القبيلة لم تعد كما كانت، فإنَّ الصَّفاء المعرفي لبعض أفراد القبائل لم يكن كما يقولون ذهبًا خالصًا؛ ولهذا عندما تَحدُث تأزُّمات على مستوى الوطن فإنَّك ترى الواهمين من الذين تعود جذورهم إلى تلك الخيمة التي صُنعت من شعر المعز، أو من وبر الإبل يعودون إليها خوفًا؛ ليستظلوا تحتها، وإن كانت بِقدمِ الزّمانِ قد رَثَّت.

إذن فمن يعتقد أنَّ القبيلة هذه ستحمي الدّولة إذا ما سقطت مؤسّساتها فهو واهم؛ لأنَّ العقل القبلي المورَّث من تلك القبيلة يقول: إنَّ أفراد القبيلة يحمون قبيلتهم ويذودون عنها إذا ما تعرّضت لعدوان من أيِّ قبيلة، أمَّا الدَّولة فلا يدافع عنها إلّا من جُنّد من قِبلها.

وعليه: عَبر التَّاريخ لم تسقط دولة وأعادتها قبيلة، أو حتى مجموعة من القبائل؛ فالقبائل لو أنَّها تعيد الدّولة، أو حتى تحافظ على النّظام فيها

لأعادت دولة الكويت عندما احتلتها جيوش صدام حسين، ولو كانت القبيلة تعيد الدّولة والنِّظام لأعادت العراق، وليبيا، واليمن. وهنا وجب القول: إنَّ كلمة وطن بالنِّسبة إلى العقل القبلي هي أوديتهم وجبالهم التي ورّثهم فيها الأجداد قبل أن تقوم الدّولة وتُصبح وطنًا؛ ولهذا فهم يهبّون للدِّفاع عن أوطانهم ولا يهبّون للدفاع عن الوطن.

ومع أنَّ تلك الأنظمة، وتلك الرؤوس قد والتها معظم القبائل في أوطانها؛ فإنَّها في أيَّام سقوطها لم تقف قبيلة واحدة صفًّا واحدًا مع أيِّ نظام من تلك الأنظمة، وبما فيها تلك القبائل التي تنتمي إليها تلك الرؤوس التي سقطت من القمم السُّلطانيَّة؛ ومن ثمَّ سيكون واهمًا من يعتقد أنَّ القبيلة ستوالي نظامًا آيلًا للسقوط، أو نظامًا لم يستقر بعد؛ فحسابات العقل القبلي تختلف عن حسابات العقل المدني؛ لأنَّ العقل القبلي كما يخشى على نفسه يخشى على القبيلة، أمَّا المدني فلا يرى له عبئًا على المدينة؛ ذلك لأنَّه يعرف أنَّ مسئوليّة المدينة وتحقيق أمنها لا تكون إلَّا على عاتق أجهزة الدّولة، ومع ذلك يعرف أنَّه لا وطن له إلَّا الدّولة.

وفي كل الأحوال عندما تسقط الدَّولة يتزلزل الأمن فيها، وتُفقد مفاتيح السَّيطرة، وتتزلزل الفضائل الخيرة والقيم الحميدة، ثم تعقبها هزات متتالية عنيفة فتتكشف الأقنعة كما قالها ابن خلدون: "ويختلط ما لا يختلط، ويضيع التقدير، ويسوء التدبير، وتختلط المعاني والكلام، ويختلط الصّدق بالكذب، والجهاد بالقتل، ويسود الرُّعب، ويلوذ النَّاس بالطوائف، وتظهر العجائب، وتعمّ الإشاعة، ويتحوّل الصّديق إلى عدو، والعدو إلى صديق، ويعلو صوت الباطل، ويخفق صوت الحقّ، وتظهر على السّطح

وجوه مريبة، وتختفي وجوه مؤنسة، وتشحّ الأحلام، ويموت الأمل، وتزداد غربة العاقل، وتضيع ملامح الوجوه، ويصبح الانتماء إلى القبيلة أشد التصاقًا، وإلى الأوطان ضربًا من ضروب الهذيان، ويضيع صوت الحكماء في ضجيج الخطباء"[4].

ومع كل هذه الحقائق التي قالها ابن خلدون عندما تسقط الدّولة أو تنهار أقول: إنَّ الوشايات وكتابة التقارير والإعطاء بالظهر كما تكونُ بين الأباعد شديدة وموجعة؛ فإنَّها بين الأقارب أكثر شدّةً ووجعًا، ولا استغراب إن قال أخيك فيك ما قال، ولا استغراب إن تبرَّع ابن عمّك أو جارك بمعلومات تقتلك وأنت مما قيل فيك بريًّا، ولا استغراب إن وجدت المنحرفين قد أصبحوا مُلتحين وأيديهم تُقبّل وكأنَّهم مشايخ موقَّرون، وهكذا يدّعي المشيخة من ركب جواد الشيخ وهو راعيه، وهكذا تصبح المرأة الجاهلة مرجعيَّة ومفتية بين نساء القبيلة أو القرية، وعندما يلتقي الحاقدون، وأهل الفوضى، وقطَّاع الطُّرق، والسُّراق، وأهل الوشايات يشكلون مجلسًا وطنيًّا لإدارة الفوضى الخلاقة، ومن ثمَّ لا استغراب إنْ تمَّ تبنيهم من قبل الدّول الدَّاعمة لاستقرار الفوضى.

وعودٌ على بدء فإنَّ العقل القبلي استعراضي تضخيمي، يميل ميلًا كبيرًا لتعظيم شأن القبيلة التي ينتمي إليها حتى ولو كان على حساب القبائل الأخرى، وهكذا بالتمام هي نظرة كل قبيلة بأنَّها الأقوى، والأشجع، والأكرم، مع تضخيم عدد القبيلة بغاية تخويف الأعداء

---

[4] مقدّمة ابن خلدون – موسوعة المورد، منير البعلبكي، 1991، وكتاب المقدمة، لعبد الرحمن بن خلدون، حقق نصوصه: (عبد الله محمّد درويش، 2012م.

والخصوم، وهذه العقليّة أو هذه النظرة تعود إلى تلك السّنين التي طويت صفحاتها اقتتالًا، ومع أنَّ تلك الصَّفحات قد طويت فإنَّ الوهم ما زال حيًّا في عقول الوارثين وهمًا.

والعقل القبلي في عصرنا الحاضر وأيَّامنا هذه (ماضوي)؛ يتغنّى ببطولات في معظم الأحيان وهميّة (من نسيج الخيال وصُنعه)؛ ذلك لأنَّ أصْحاب العقل القبلي في عصرنا لم تُسجل لهم بطولات على مستوى الدّولة المعاصرة؛ ولهذا يتغنّون ببطولات الأجداد التي لو بحثنا عنها لم نجد منها إلَّا ما نذر في سجلَّات التّاريخ وصفحاته.

ومع أنَّ صفحات التّاريخ لا تحمل في طياتها إلَّا ما نذر مما يتغنّى به شعراء القبائل، فإنَّ شعراء القبائل اليوم مخيلاتهم الشّعريَّة ملاحم وملاطم وبطولات، وكأنَّهم المشاركين في خوض تلك الملاطم زمن بني عبس، وبني كليب، وبني سليم، وبني هلال.

ونظرًا لوجود هذه العلّة فمعظم الحكّام ذوي الأصول القبليّة يتبنّون الشّعراء الشّعبيين ولا يتبنون شعراء الفصاحة إلّا استثناء، فتكون البداية تظاهر الحاكم بحب الاستماع إلى تلك البطولات الوهميّة لأجداد الشّعراء الشَّعبيين؛ ليصل بعقولهم إلى أن تصبح تتغنّى به دون غيره، بل ويسخّر بعضهم لهجاء الخصوم أو من تسوّل له نفسه ما تسول، ولو كان ظنًّا واهمًا في ظنه؛ وذلك اعتقادًا منه أنَّه بهذه المنهجيَّة يستطيع السّيطرة على عقول العامّة من النَّاس، أمَّا شعراء الفصاحة فأغلبهم أهل معرفة وعلم ومدنيَّة،

ولهم من الآراء الخاصّة ما لهم، فهم كما يقبلون يمتنعون أو ينسحبون؛ تجنّبًا للخطر وتفاديه، وهذا ما لا يرغبه الحاكم، بل ما لا يقبله.

فشعراء القبائل مع أنَّهم بسطاء فإنَّهم أذكياء، والحكمة في بيتٍ من شعرهم تملأ كتابًا لو أردنا الكتابة عنها، ومع أنَّ العاطفة القبليّة تملأ قلوبهم فإنَّ قصائدهم الشّعريَّة لا تتوقّف عند سُلطانٍ بعينه وإن بايعوه في زمنه أكثر من مرَّةٍ، ومن ثمَّ فهم كما سبق وأن تغنّوا بمن تغنّوا، سيتغنون بمن يأتي من بعده من أجل الوطن؛ وذلك لمعرفتهم أنَّ عجلة التَّاريخ لا تتوقَّف.

وعليه: فإنَّ الحاكم الذي يتّخذ الخيمة شعارًا له، لم يكن واردًا في قاموسه السّياسي مكانٌ أو معنى للاستقرار والمدنيّة، بل بالنّسبة إليه، الخيمةُ والرّحيلُ هما المحرِّكان الأساسيَّان للتَّاريخ، ولأنَّهما المحركان للتَّاريخ فبالضرورة ستكون المواجهة مع من يحاول إن يحرك التاريخ بغيرهما؛ ولذا فلا سيادة إلَّا للخيمة، ولا مكانة إلَّا لشيخها، ومن ثمَّ فلا شيءَ يتبدَّل خارج الخيمة التي تتبدَّل اتجاهاتها وهي الخيمة التي لا تتبدَّل.

ولهذا ثروات البلاد وخيراتها لا توجّه إلى ما يُمكّن من الاستقرار والاطمئنان، والنُّهوض، وإحداث النُّقلة إلى المأمول الذي يجعل من الإرادة قوّة بيد الشَّعب والسيادة للوطن.

ومع أنَّ القبيلة تُجرُّ لخدمة السُّلطان إذا ما اتكأ عليها، فإنَّها لا تقبل التهلكة في سبيله ومن أجل نظامه، ولا يمكن أن تتحمّس للدفاع عنه إذا ما آل نظامه للسقوط، بل فوق ذلك ستبايع خصمه عندما ينقلب عليه أو يثور، حتى وإن احتفظ من أفرادها من احتفظ بشيء من الوقت قليلًا،

وسيكون واهمًا من يعتقد أنَّ العقليّة القبليّة ستقاتل الدّولة، أو أنَّها ستقاتل من أجلها.

فالقبيلة في عصرنا دخلت على المدنيّة، والمدنيّة دخلت عليها، فعلى سبيل المثال: معظم أبناء القبائل الليبية أصبحوا متعلِّمين، ويتكلّمون اللغات الأجنبيَّة، وهمُ اليوم إن لم يسكنوا المدن فقُراهم أصبحت تمتلك ما تمتلكه المدينة؛ فتلك الخيام قد طويت، وصفحاتها تطوى.

وبعد أنْ عُرِّفت القبيلة، فماذا تعني القبيلة؟

تعني: أنَّ مجموع القبائل وفي أيِّ دولة هي كتلٌ وتعصُّبات بشريَّة متفرِّقة، ولا يكونون على رأيٍ واحد أبدًا؛ ولهذا فهم عصبيَّات متخالفون، أي: لو لم يكونوا متفرِّقين ما كانوا قبائل، وبالتَّالي حتى في زمن السّلم واستقرار الدَّولة وأمنها لا يمكن لأحدٍ أن يتحدّث باسمهم عصبيّة واحدة، فما بالك في زمن الخلاف والشّقاق الذي فرَّق بين أبناء كل القبائل، ولم تبق في ليبيا قبيلة واحدة ولا عشيرة واحدة ولا حتى أسرة واحدة ممتدة على رأيٍ واحد؛ ولذا فلا قبيلة تمثل قبيلة، ولا أحد من أيِّ قبيلة يمثل القبيلة التي ينتمي إليها إلَّا وهمًا.

ومع أنَّ القبيلة على المستوى الاجتماعي ما زالت عنوانًا له من الاحترام ما له، وتستطيع أن تحلّ المشاكل والتأزُّمات إذا ما حدثت بين قبيلة وأخرى، فإنَّها لا تستطيع أن تحلّ مشكل الوطن إذا ما وقع في مشكلة وطنيَّة؛ أي: بإمكان رؤوس ووجوه من القبائل أن يتدخَّلوا لحلّ مشكل بين قبيلتين، وفي المقابل سيكونون عاجزين أمام حلّ المشكل الوطني؛ وذلك

لمعرفتهم بمفاتيح الحل القبلي، وعدم معرفتهم بمفاتيح الحلّ الوطني؛ وهذا يعني: أنَّ لمعرفة العلاقات الاجتماعيَّة مشايخ ورجالات، وأنَّ لمعرفة العلاقات الوطنيَّة رجالات وساسة.

وهؤلاء جميعهم عندما ترتفع أصوات البنادق والمدافع لا يرفعون صوتهم؛ ذلك لأنّهم يعرفون جيدًا أنَّ صوتهم مع صوت البنادق لا يسمع؛ ولهذا يأخذون خطوة إلى الخلف حتى تقف الأصوات التي رُفعت على أصواتهم.

أوهامُ التفويض:

التفويض من حيث المفهوم هو: إعطاء صلاحيّة في دائرة الممكن، وليست كما توهَّم البعض أنَّها إنابة وإحلال محل.

ومع أنَّ التفويض لا يكون إلَّا عن إرادة، فإنَّ بعض التفويضات في ظاهرها الإرادة وفي باطنها الوهم، فالدّول التي تُحكم بالقوّة كما هو حال الدّول التي حدثت فيها الانقلابات العسكريّة، فإنَّ بقاء الحاكم فيها على رأس السُّلطان هو بقاء بلا إرادة من المحكومين؛ وبعد تمكّنه من الحكم أمنًا، وسياسة، واقتصادًا يفتح أمام المحكومين أبواب تأييده، ومناصرته، ومبايعته حتى يتوهّم وكأنَّهم الذين انتخبوه إرادة؛ ومن ثمَّ يتوهّم أنَّ الشَّعب هو من فوّضه لإدارة زمام الدّولة، وينسى أنَّه جاء مفوضًا لنفسه بالقوّة.

وعليه: فإنَّ التفويض يأخذ أوجهًا ثلاثً:

الوجه الأوَّل: التفويض من الخالق إلى المخلوق: كما هو حال الرُّسُل والأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم الذين اصطفاهم الله وأيّدهم

بنصره؛ لربط العلاقة بين السَّماوات والأرض، ومع أنَّهم المفوضون من الله فإنَّهم لا ينوبون عنه أبدًا. {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[5]. أي: ما آتاكم به الرَّسُول من الله فخذوه، وما نهاكم عنه الرّسول المفوض من عند الله فانتهوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ في هذين الأمرين: (الأخذ، والانتهاء).

ولهذا فمن يعتقد أنَّ الله تعالى قد فوّض رُسُله بالمطلق فهو واهم، ومن ظنّ أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام ينوبون عن الله فهو واهم، وفي المقابل من ظن أنَّ الله لم يعط محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام صلاحيّةً، فهو واهم: (وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

الوجه الثَّاني: تفويض البعض للبعض: وهو التفويض من قِبل الذين يتعلّق الأمر بهم إلى من يولُّونه على الأمر، حيث يختارون أو ينتخبون شخصًا يرونه أهلًا للتفويض وحَمْل المسئوليَّة، فينتخبونه رئيسًا للدّولة، أو ممثلًا عنهم في أحد مجالسها أو مؤسّساتها، ومع أنَّه المفوض لتمثيلهم فإنَّه لا يمثلهم إلّا في الأمر الذي هو منهم (تمثيل نسبي)، وإلى جانب هذا التفويض هناك تفويض الأشخاص لمن ينوب عنهم في مرافعة قانونيَّة، أو حضور اجتماع، أو لقاء من اللقاءات الاجتماعيّة أو الفكريَّة والسّياسية والاقتصاديَّة.

---

[5] الحشر: 7.

ومع أنَّ من يولّى أمرًا ينبغي أن يُطاع فيه فإنَّه لا طاعة لبشرٍ في غيره؛ إذ لا طاعة مطلقة إلَّا لله تعالى ولرسوله الكريم، أمَّا ما دون ذلك فالتفويض مقيِّدٌ، والتقييد هنا لم يكن للحريَّة، بل جاء من أجلها.

والطَّاعة في دائرة الممكن هي للأمر المفوّض به، وليس لوليٍّ لم يفوّض من قِبل الذين يتعلّق الأمر بهم، فالذين يقولون طاعة أولي الأمر واجبة، نقول: نعم، ولكن دون وهمٍ؛ لتكون الطَّاعة وفقًا للأمر السّيادي الذي لا يكون إلَّا ممن يتعلّق أمر السّيادة بهم، وفي غير ذلك فلا طاعة لأحدٍ إلَّا بما يرضي الله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}[6].

ومن دون شكّ إنَّ طاعة الله جلَّ جلاله بالنسبة إلى المؤمن طاعة توحيد وعبادة، وتسليم مطلق، وطاعة الرّسول عليه الصَّلاة والسَّلام من طاعة الله تعالى.

أمَّا طاعة أُولي الأمر منكم؛ فهي طاعة للأمر الذي هو منكم، أي: عندما يقرّر الشَّعب قرارًا: (سواء في حالة السّلم، أم حالة الحرب)، أو أنْ يصدر الشَّعب دستورًا؛ فلا ينبغي لأولي الأمر مخالفته، وكذلك لا ينبغي لمواطنٍ قرّره أن يخالفه؛ ذلك كونه قرارًا وطنيًّا، وليس قرارًا فرديًّا، إنَّه قرار الشَّعب بأسره، ومن دون إكراه؛ ولهذا فلا طاعة لولي أمر في غير ما ولّي عليه من أمر: (من المواطنين الذين أصبح تفويضهم حُجَّة لهم، وحُجَّة عليهم)، وفي المقابل من يقوده وهمًا تُسلب إرادته ولن يكون إلَّا مأمورًا.

[6] النساء: 59.

وعليه: قال تعالى: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، ولم يقل: (وأولي أمركم) فالأولى: تعود على من يتولّى أمركم إرادة مع وضوح الأمر المكلّف به ولايةً منكم، أمَّا الثانية: فتخصّ ولي أمركم: (الوالدين، أو من يتولّى رعايتكم، وبخاصّة رعاية القصّر)، ومع ذلك فإنَّ الوالدين لا طاعة لهما في معصية الله عزَّ وجلَّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}[7].

إذن: طاعة أُولي الأمر في مرضاة الله لا يمكن أن تكون فيما يرتكبه أُولي الأمر من مفاسد، ومعاصٍ، بل الطّاعة فقط في مرضاة الله؛ حيث لا مفاسد، فإن كانت المفاسد سائدة في سياسة أُولي الأمر منكم فلا طاعة لهم في معصيةٍ وإفسادٍ في الأرض؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}[8].

ومن ثمَّ فطاعة ولي الأمر واجبة بما أنَّه لم يخالف الأمر، ولكن إنْ حاد عن الأمر؛ فلا طاعة له، بل يجب إعادته إلى الأمر المستوجب الطّاعة، كما هو حال إمام الصَّلاة عند المسلمين الذي يصطفُّ المصلون وراءه يركعون ويسجدون لله طاعة؛ فإن أخلَّ، أو أخطأ في غفلة عن قراءة القرآن المصلّى به، وجب على المصلّين أن يصحّحوا له ما أخطأ فيه قراءة، وإنْ أخطأ في أداء سجدة أو ركعة فلا يطاع، بل ينبّه لما أخطأ فيه؛ حتى يعود إلى الأمر، وفي حالة لم يعد؛ فلا يتبعه المصلُّونَ فيما ذهب إليه خطأ، بل

[7] العنكبوت: 8.

[8] البقرة: 11، 12.

عليهم تنبيهه حتى العودة إلى صحة الأمر وصوابه، وسلامة أدائه أمرًا (هو كما هو)، ومن هنا، يتضح الفارق بين طاعة الأمر وطاعة أولي الأمر؛ ولذلك فلا طاعة لوليّ أمر خرج عن الأمر الذي كُلّف به من قِبل النّاس، ولكن إن كان وليّ الأمر قد استلب الأمر استلابًا فلا وجوب لطاعته، بل مقاومته واجبة من أجل إعادة المسلوب والمستولى عليه.

ولذلك فإنَّ الخلاف مع من يخالف الشَّرع حقٌّ شرعي، ومع من يخالف الدّستور حقٌّ دستوري، ومع من يخالف العرف حقٌّ عرفي، ومع من يخالف القيم الحميدة حقٌّ قيمي، وفي المقابل يجب احترام المختلفين وتقدير دينًا؛ إذ {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[9].

الوجه الثالث: تفويض الشَّخص لنفسه على حساب حقوق الآخرين وإرادتهم كما هو حال من ينقلب على نظام الحكم مثلما سبق تبيانه، ويتولّى كرسي الرِّئاسة عنوة، ثم يدير الدّولة ودواليب السّياسة فيها دون أن يُشرك أحدًا في رسم السّياسة العليا للبلاد، أو أنَّه لا يشرك أحدًا إلّا من اشترك معه في انقلابه على السُّلطة بقوّة السِّلاح.

ومثل هذا التفويض عبر التَّاريخ عمره قصير، وأرضه بورٌ فلا تُعمر، وأوهام نهاياته في معظمها لا تختلف عن أوهام بداياته؛ حيث بداياته كانت قتل، أو سجن مع سلبٍ وهيمنةٍ وإقصاءٍ، ونهاياته بالتمام لا تخرج عن القتلِ والسّجنِ والسَّلبِ والنَّهبِ والإقصاءِ.

[9] البقرة: 256.

ولأنَّ الوهمَ قيدٌ فهو إن لم يُكسَر سيَكْسَرُ، وهذه مشيئة الله في خلقه، فالله تعالى في مشيئته خَلقنا مُسيّرين فيما لا خيار لنا فيه، ومن ثمَّ ليس لنا إلَّا الطَّاعة والتسليم بالمطلق؛ ولذا فمن لا يُسلِّمْ بذلك فهو واهمٌ، ويا ليته يكسر وهمه؛ لأنَّه لا إمكانيَّة له بأن يغيّر خَلق الله، ويا ليته يتذكّر وهم النمرود الذي تحدَّى النبي إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام بما لا تخيير فيه؛ فانكسر وهمه ساعة محاجَّته إبراهيم عليه السَّلام: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[10]. فهذه من مشيئة الله تسييرًا، وهي لا تستوجب إلَّا التسليم.

أمَّا مشيئة الله تخييرًا فهي المؤسَّسة على ترسيخ الإرادة في الاختيار حيث لا إكراه، (نؤمن أو نكفر) نصدّق أو لا نصدّق، ننتهي أو لا ننتهي، نقبل أو نرفض، نتعلّم أو لا نتعلّم: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[11]؛ ولذا جاء التخيير مشيئة من الله تعالى لخلقه، ومع أنَّ التخيير مشيئة من الله تعالى فإنَّ البعض في مشيئة الله تخييرًا لا يظنها إلَّا مشيئته الخاصّة.

---

[10] البقرة: 258.

[11] الكهف: 29.

أوهامُ التكنوقراط:

التكنوقراط أصحاب النظرة المهنيَّة، وهم من حيث المهنة لا ينبغي أن يسبقهم رأي تجاه ما يجب مهنيًّا، أمَّا تجاه ما ينبغي سياسة لإدارة الدّولة، وترويض جموح شعبها فلا علاقة لهم بذلك، وهنا تكمن العلّة والوهم إن أديرت الدّولة مترامية الأطراف بعقول التكنوقراط؛ لإنَّ التكنوقراط معياريون بحسابات كميّة فلا ينظرون إلى ما يجنّب الدّولة تأزمات اجتماعيّة أو وطنيّة؛ ولذا إن أردنا تخطيطًا ونهضة فلا إمكانيّة لتغييب عقول التكنوقراط المتخصّصين دون أن تؤخذ على علّتها لرسم السّياسات الوطنيّة، التي لا تكتمل إلَّا بآراء السياسيين الذين لا يرون الشَّعب كمًّا فقط، بل يرونه على الأهميّة كيفًا في حاجة إلى كمٍّ من الخيارات والبدائل المشبعة للحاجات المتطوّرة، والمحققة للأمن، وتحسن العلاقات الاجتماعيّة والوطنيّة.

والعقل التكنوقراطي كونه معياريًّا يتحفَّز إلى فرض المعياريّة المهنيّة وفقًا لمعطيات التخصّص والمهنة، وليس وفقًا لمعطيات الواقع الاجتماعي والإنساني للمواطنين؛ ولذا فالتكنوقراط نظريُّون (حسابات وأرقام وتجرّد)، وكأنَّه لا علاقة بينهم وما يجري بين النَّاس، فهم يميلون إلى المثاليّة وكأن أحوال الشَّعب منضبطة مع حركة عقارب السَّاعة دقائقٍ وثوانٍ.

وهنا فالمهني لا يهمه رأي الشَّارع، ومن ثمَّ فرأيه قد يكون مسبِّبًا في كسر العلاقات بين الرَّاعي والرّعيَّة، ولأنَّهم معياريون فهم لا يرون للتنفيذ

أهميَّة ما لم يكن وفقًا للمعياريَّة، أي: إنَّ التكنوقراطيين يتمسَّكون بأخذ المعياريَّة، حتى إنَّهم كما قالت رئيسة وزراء بريطانيا: لو تولّى المهنيون قمّة السيادة في الدّولة لتحوَّلوا إلى دكتاتوريين، أي: الأمر عندهم قابل إلى أن يتغيَّر من المهنيّة المتمسّكة بالأخذ بالمعياريَّة إلى الدكتاتوريَّة الفارضة للرأي.

أوهامُ النفعيّين:

النفعيّون هم الذين يميلون وهمًا مع كلّ هبّة ريح؛ فإن كانت الرّياح جنوبيَّة كانوا جنوبيّين، وإن كانت شماليّة كانوا شماليّين، وهكذا إن كانت الرّياح غربيّة كانوا غربيّين، وإن كانت شرقيّة كانوا شرقيّين. فمثل هؤلاء دائمًا قيمهم تتبدّل وتتغيّر وهمًا مع تبدّل وتغيّر اتجاه الرّياح في الفصول الأربعة.

وأوهام النفعيّين ترتبط بالمصلحة والطّمع؛ فهم إن تمكّنوا من أخذ المكاسب أخذوها ولو كانت مخالفة للقيم والأخلاق والقانون، ومثل هؤلاء يوجدون في كلّ مكان وزمان، وحتى في المعارك يوجدون، ولكن لم يكن وجودهم في ميادينه من أجل خوضها، بل من أجل اغتنام الفرص ولو كانت على حساب أرواح الغير.

وعليه: فهؤلاء النفعيّون الواهمون بعد انتهاء المعارك فمنهم من يجعل من نفسه بطلًا، ويدّعي أنَّه كان قائدًا شُجاعًا، وفي المقابل إن كانت الهزيمة هي العنوان في المشهد فستجد من خسروا المنفعة يتلونون بألوانٍ حرباويَّة وكأنَّهم لم يكونوا راضين عمَّا جرى، أو أنَّهم نادمون على ما فعلوا، وفي كلّ الأحوال لا استغراب؛ فهذه لا تزيد عن كونها معطية نفسيّة من معطيات

الشخصيّة النفعيَّة الواهمة. فمثل هذه الشخصيّة إن تمكّنت وتصدّرت مع المتصدّرين المشهد السّياسي فستكون عبئًا ثقيلًا على الدّولة، وهنا وجب أخذ الحذر، وإلّا في دائرة الممكن سيكون غير المتوقّع أقرب بكثير ممّا هو متوقّع.

ومع أنَّ المنفعة شيء موجب وينبغي ألا يتم الإغفال عن أهميّتها فإنَّ النفعيّين ليسوا على هذا المفهوم، وليسوا على دلالته، بل هم الذين ارتبطت أطماعهم بما ينفع فقط ولو كان على حساب الغير، وهنا تكمن العلّة التي تستوجب إيقاظ النفس الواهمة من هذا العلّة؛ وذلك بإيقاظ الذاكرة لعلّها تتعظ.

فالذّاكرة محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنّها مكمن الأسرار والصّندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعي المعلومة وفقًا للطلب أو الأمر المرغوب.

ولأنَّ الذّاكرة مكمن الأسرار، ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية؛ ولذا ينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد ألا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني، وإجراء عمليّات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين المنفعة كونها بيّنة حقّ، والنفعيّة كونها مظلّة وهم.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح وكسر الوهم، ثمَّ يتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيطر عليها وهم النفعيّة.

ولهذا؛ فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من المأمولات ما يُحدث النُّقلة إلى الأنفع والأفيد موضوعيًّا، فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة دون أن تكون على حساب الغير كما يفعل النفعيّون.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا حيث لا إمكانيّة للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتعلّم، وكيف ينتفع بجهده الفني، والعلمي، والبدني ليتدبّر أمره وأمر من تربطه بهم علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة فإنَّه كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فالنفعيّون يستغلون الفرص الجاهزة بجهود الغير لينهبوها حتى وإن خسر الغير؛ ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرًا، وتنشيطها تذكّرًا وتفكّرًا حتى تتمكّن من كسر الوهم، وإن لم نفعل ذلك تصبح الذاكرة حيّزًا يعشعش الوهم فيه[12].

---

[12] عقيل حسين عقيل، من الفكر إلى الفكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2017م، ص 105 – 111.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتّاريخ من حيث إنّها محفظة أحداثه وقضاياه، فإنَّ التّاريخ دائمًا وما يحتويه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخيَّة؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا يكثر الواهمون ويسرق النفعيُّون جهود النَّاس13.

أوهام الشَّخصنة:

الشّخصانيَّة تجسيد لسلوك الإنسان المتمركز على الأنا؛ إذ لا معياريّة لتقييم المواقف، والأعمال، والأفعال، والاتجاهات، وترتبط الأنا بالشخصانيَّة، عندما تنفصل رؤاها عن الموضوعيَّة؛ وبالتَّالي نجد البعض يود أن يُظهر شخصانيّته وأنانيّة على حساب المجتمع الذي ولد فيه بعد أن خُلق كإنسان قاصر عن العيش بمفرده، وبمنعزل عن بني جنسه؛ ولذلك تتكوّن الشَّخصانيّة من وهم الفرد الطَّامع في حقوق غيره؛ ومن ثمَّ فالشخصانيّة تعني: أنا ومن بعدي الطوفان، وكأنّ العالم خُلق للأنا دون غيرها[14].

ومن ثمَّ فالأنا: ضمير يعود على من ينطق به؛ فأنا يشير إليَّ، وأنت تشير إليك، وهم تشير إلى من لم يكن أنا وأنت، ونحن تحتوينا، وتستثني غيرنا، وترتبط الأنا وهمًا بالأنانيّة والشَّخصانيَّة عندما تخرج عن الموضوعيّة؛

[13] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، القاهرة: شركة الملتقى للطباعة والنشر، 2011م، ص 124 - 127.

[14] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعية (مفاهيم ومصطلحات)، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2019م، ص 41.

فتصبح في منعرج السّلوك الأناني الشّخصاني الذي يُقيّم الأمور من زاوية تحقيق المنفعة التي تعود عليه، بغض النّظر عمّا يصيب الآخرين من ضرر، ممّا يجعل لسان حال الأنا: (المهم أنا).

وبناء على ما سبق أتساءل:

لماذا يودُّ البعض أن يُظهِر أنانيّته (شخصانيّته) على حساب قيم المجتمع الإنساني وفضائله الخيّرة؟

أقول: متى ما توهَّم الفرد بما توهم به شخصنةً ضاق أفقه، وضاقت الدنيا عليه، ممّا يجعله في حاجة لمن يخرجه مما ألم به من وهمٍ.

ومع أنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم، إلّا أنّه خُلق ضعيفًا من حيث إنّه لا يكون قادرًا على الحياة ما لم تتلقّفه أيدٍ آمنة، تمدّه بالرّعاية والعناية التي تكسر عنه أوهام الشّخصنة؛ فالإنسان وإنْ ضعف إن قُدّمت له يد العون بغاية النّهوض ينهض.

ولأنّ الإنسان في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع على حالة من التهيؤ والتأهّب بين سلوكٍ موجبٍ، وسلوكٍ سالبٍ، فلا استغراب فيما يفعل، بل الاستغراب ألا يفعل، وعليه، فالإنسان الذي عصى خالقه لا يُستغرب أن يعصي المجتمع الذي لم يخلقه؛ ولذلك عندما تسود الأفعال الشخصانيَّة تُنسي الإنسان معرفة من هو؟ ومن الذي خلقه؟ وما ينبغي أن يقوم به واجبًا، وما ينبغي أن يتركه أو يتجنّبه وجوبًا؛ ولهذا فهو في حاجة لمن يكسر وهمه.

صِدامات الوهم:

مع أنَّه لا صدام مع معطيات ليست على قيد الحياة فإنَّ ما مات من معطيات الصِّدام ما زال على قيد الحياة في عقول الواهمين ساكنًا، ولا استغراب إن وجدت من يصدّق وهمه، ولا يُصدِّقك في حقيقة بيّنة، وفوق ذلك لا تستغرب إن خاصمك الواهم واصطدم معك إنْ لم تأخذ بوهمه.

ومع أنَّه من باب العلم والمنطق إذا تغيّرت المعطيات والمواقف السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيَّة ينبغي على الإنسان أن يُغيّر مواقفه أو اتجاهاته؛ فإنَّ الواهمين يزدادون تمسّكًا بالسَّرابِ ماءً، وباتخاذهم هذه المواقف يصفون من تغيَّر بعد ما تغيَّرت المعطيات بأنَّه خائن؛ لا لشيء إلَّا لأنَّه لم يعد متمسّكًا بالوهم.

وفي المقابل العقل المستنير لا يقبل أن تُربط عيناه بما يحجب الرؤية عنهما وتختفي الحقيقة؛ ولهذا يتخذ قراراته ومواقفه عن بيّنة ووعي واستنارة، ومع ذلك يخالفه الواهم، ويتخذ مواقف الوهم ضدّه؛ ولإيضاح ذلك أذكر المثال الآتي: بعد انقلاب معمر القذافي على النّظام الملكي في ليبيا جاء بشعارات في زمانها كانت برّاقة وجذّابة فكان لها من الشباب مؤيدون، وكان لأصحاب المعرفة الدستورية رأي آخر.

ومع أنَّ معمر القذافي في أيَّام ظهوره الأولى كان ملتحفًا بلحاف القيم الحميدة فإنَّه في أواخرها يكاد أن يكون عاريًا؛ ولذا بعد أن عفى زمن القذافي على القيم الحميدة، فلا إمكانيّة لأصحاب القيم أن يظلوا

تحت مظلته؛ ففي أعوامه الأولى كانت شعاراته تصب كلَّها تجاه السُّلطة للشّعب، أمَّا بقيّة أعوامه ونهاياتها أصبح السؤال فيها:

- أين هي سُلطة الشّعب؟
- هل سُلطة الشّعب هي هواتف باب العزيزيّة التي تأمر وتوجّه؟
- هل سُلطة الشّعب هي مكتب الاتصال باللجان الثوريَّة الرّقيب على الشّعب؟
- هل سُلطة الشّعب هي القبيلة إلى استغولت على كلّ القبائل؟
- هل تنصيب القذافي لنفسه: ملك الملوك، يعني: السُّلطة للشَّعب؟
- هل محاكم الثورة هي الأداة لسلطة الشَّعب؟

لا شكَّ أنَّ الإجابات عن هذه الأسئلة محمولة في أحشائها مضمونًا، ومع ذلك لم يعرف الواهمون الإجابة المحمولة في هذه الأسئلة مضمونًا؛ ولهذا فهم يحتجّون على الذين فهموها وعرفوها.

وعليه: فالواهم إذا ما أصبح قائدًا أو رئيسًا فليس له مبدأ يتخذه إلَّا مبدأ واحدًا، وهذا المبدأ يتطابق بالتمام مع ما قالته عشيقة ملك فرنسا لويس الخامس عشر: (أنا ومن بعدي الطّوفان)[15]، فأخذها عشيقها من فمها وأصبح يردِّدها مرّة من بعد مرّة: (أنا ومن بعدّي الطوفان)، كما أنَّ

[15] الشرق الأوسط، أنا ومن بعدي الطوفان، مشعل السديري، 13 فبراير، 2018م، العدد: 14322.

هذا المبدأ يتطابق مع ما قاله ملك فرنسا لويس الرابع عشر: (أنا الملك وأنا الدّولة)[16]، أي: لا فرق؛ إذ لا أحد يملك فرنسا غيري، ولا شريك.

وعليه: فبعد أن ساد مفهوم (لا سُلطة للشّعب مع ملك الملوك) ظهر الصدام بين من وَهِمَ، ومن كسر وهمه، وإن كان في بداياته محتشمًا، أصبح في نهاياته كاشفًا اللثام عن وجهه.

ومع أنَّ الواهم قراءاته لما هو آتٍ فيها من العلّة ما فيها فإنَّه في دائرة الممكن قد يبلغ مقصده، وإذا ما استولى على السُّلطة في البلاد يصبح الوهمُ مُفتيًا فيها.

ومع أنَّ الواهمين قادرون على اختلاق الصّراعات والصّدامات فإنَّه لا إمكانيَّة لهم لتحقيق النّصر، ومع ذلك تظل جيوش أوهامهم مجنَّدة لتوليد الفتن والصّدامات التي تفرّق بين المرء وزوجه، ومن لا يستقرأ ذلك؛ سيكتشف يومًا أنَّه كان واهمًا.

وعندما تشتد الصّدامات مع الخصوم يلجأ الواهمون إلى استيراد المرتزقة للدّفاع عنهم، وهذه من علامات الوهم المؤدِّي إلى الهزيمة؛ فالمرتزق إن قَبِلَ بذلك لا يكون إلَّا من أجل الحياة، وليس من أجل الموت، ومن ثمَّ فمن يتعاقد مع المرتزقة سيكون واهمًا إن أراد بهم نصرًا؛ ذلك لأنَّهم لا يقبلون التعاقد إلَّا بهدف القتال الذي يُمكِّن من الحصول على المقابل المتعاقد عليه؛ مما يجعل المرتزق حريصًا على حياته وسلامته، وفي المقابل يحصد الواهمون وهمًا.

[16] المصدر السابق.

ومع أنَّ الوهمَ يؤدّي إلى الهزيمة فإنَّ تعاقد الواهم معه دائمًا يتجدّد، والواهم كلّما وقع في هزيمة سوّقها نصرًا، ومن ثمَّ ستظل الهزائم متوالية إلى أن يسقط الوهم بموت الواهم المسيطر على زمام أمر الدّولة التي أصبحت في عهده واهمة.

أي: عندما تكون سياسة الواهم مؤسّسة على: (أنا الدّولة والدّولة أنا) و (أنا ومن بعدي الطوفان) إذن حتى وإن خسرت الدّولة ما خسرته من مقاتلين وبنية تحتيّة، أو حتى وإن تم احتلال نصف البلاد فيظن القائد الواهم إنَّه قد انتصر على الخصوم؛ لكونه لم يقع في الأسر بعد.

أوهام الخوف من الإسلام:

مع أنَّ ظاهرة الخوف لدى الغرب من انتشار الدين الإسلامي وسيادته على العالم فإنَّ خوفهم لم يكن خوفًا من الدّين، بل خوفًا ووهمًا من المتشدّدين والمتطرّفين باسمه، فهم يعلمون أنَّ الدين لا إكراه فيه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[17].

ولذا فهم يخافون من أوهام التطرُّف السّلفي المقيد للحريّات، ويخافون من أوهام الذين يودّون إقامة الدّولة الإسلاميّة بالسّيف كرهًا؛ أي: يخافون أن يصبح الدّين الإسلامي نظامًا عالميًّا يقيّد حريّة المرأة، وينتكس الاقتصاد العالمي بفتاوى لا علاقة لها بعلم الاقتصاد، وخوفًا من أن تقطع الرؤوس بفتاوى ما أنزل الله بها من سُلطان.

---

[17] البقرة: 256.

أمّا في غير ذلك فالدين الإسلامي مقدّرٌ في كل العالم، ولا خوف منه أبدًا، بل بالعكس أعداد المنخرطين فيه إيمانًا يزداد مع الأيّام والأعوام مضاعفة إذا ما قورن بنسبة الزِّيادة السكّانيَّة للأهالي المحليّين؛ ولهذا فإنَّ الديانة الثانية في جميع دول العالم أصبحت بحمد الله تعالى الديانة الإسلاميّة؛ ما جعل المستقبل للإسلام؛ ولأنَّه لا إكراه في الدِّين، والإسلام هو الديانة الخاتمة، وللنَّاس كافَّة؛ فالدين الإسلامي دين الجميع هدايةً؛ فلا داعي للإكراه، ولا داعي للرَّفض، ولا المكابرة، وفي مقابل ذلك حقيقة أنَّ الدِّين الإسلامي لا يخصُّ من أسلم وحده، إنَّه دين الكافَّة فمن آمن سلم، ومن لم يؤمن بعد فالفرصة أمامه، ولا أحد يستطيع قفل أبوابها، بل الذين آمنوا هم المقصِّرون إن لم يدعوا الآخرين إلى الإسلام بالتي هي أحسن؛ ولهذا في الدين الإسلامي لا حرب إلَّا مع معتدٍ ظالم.

ولأنَّ لكلِّ عصرٍ ثقافةً، ولكلِّ مجتمعٍ ثقافةً، فإنَّ في دائرة التَّاريخ لا استقرار لأيَّة ثقافة؛ ولهذا فالثَّقافة التي سترِثُها الأجيال القادمة تختلف اختلافًا كثيرًا عن ثقافتنا، وهذا ما تؤكده التقارير البحثيَّة في العالم، وعلى رأسها التقرير الكندي الذي نشر في 20 مايو 2017م، والذي جاء في نصوصه، أنَّ: "فرنسا وألمانيا ستُصبحان جمهوريتين إسلاميتين خلال 40 عامًا، وملامح العالم ستتغيَّر، وأوروبا إلى الزَّوال".

وكما ينصُّ التقرير فإنَّه لا إمكانيَّة لأيَّة ثقافة أنْ تستمر أكثر من 25 عامًا ما لم يكن معدَّل الإنجاب في كلِّ أسرة بمقدار 2.11، ولن تستطيع أيِّ ثقافة البقاء أبدًا مع معدل الإنجاب 1.9.

أمَّا مَن يصلُ الحال بهم انحدارًا إلى معدل1.3 فلا إمكانيَّة لرجوعهم إلى ما ينبغي أن يجعلهم يعودون إلى ما كانت عليه ثقافتهم إلَّا بعد أعوامٍ من الزَّمن تتراوح ما بين: 80 – 100 عام؛ لكي تُصحِّحُ الثقافةُ مسارها؛ ولهذا لا يوجد أيُّ نظام اقتصادي يستطيع أن يصمد طوال هذه المدّة.

والعمليَّات الإحصائيَّة تُثبت أنَّ الزَّوجين عندما ينجبان طفلًا واحدًا فإنَّهم قد عملوا على التخلُّص من نصف عدد الآباء، وهكذا من بعدهم عندما ينجب أبناؤهم طفلًا واحدًا؛ فيصبح عدد المواليد ربع عدد الأجداد.

وعليه: كلَّما تقلَّص عدد السُّكَّان تقلَّصت معهم الثَّقافة، ومن هنا الخطر يهدد الشُّعوب الأوروبيَّة وثقافاتهم، ففي عام 2007 كان معدل المواليد في فرنسا 1.8، وفي إنجلترا 1.6، وفي اليونان 1.3، وفي ألمانيا 1.3، وفي إيطاليا 1.2، وفي سويسرا 1.1، وكان المعدل على مستوى الاتحاد الأوروبي 1.38؛ ولهذا تقول الأبحاث التاريخيَّة: هذه الأرقام لا إمكانيَّة لتراجعها؛ ومن ثمَّ أصبح الطلب من الدِّول الأوروبيَّة على الهجرة الشَّابة نوعيًّا: (مهندسين، وفنيين، وأيدي عاملة جيدة، وقابلة للصّقل، والتّأهيل والتدريب، والتعليم)، وللعلم أنَّ 90% من هؤلاء المهاجرين وفقًا للتقرير الكندي مسلمون.

وبمقارنة النِّسب الإحصائيَّة نلاحظ الفارق الكبير بين نسبة الزيادة عند المسلمين والأوروبيين، فعندما كانت الزيادة السُّكانيَّة عند فرنسا 1.8، كانت نسبة زيادة المسلمين: 8.1، ومع أنَّ جنوب فرنسا يُعدُّ أكثر المناطق من حيث عدد الكنائس في العالم، فأصبح اليوم في هذه الرقعة الجغرافيَّة

عدد المساجد يفوق تلك الكنائس، وأنَّ 30% من الأطفال ما بين سن العشرين وأقل هم من المسلمين، وقد ارتفعت هذه النّسبة في المدن الفرنسيَّة الكبرى مثل: نيس، وباريس، ومارسيليا إلى 45%.

وهكذا قد ارتفع عدد المسلمين في بريطانيا بزيادة 30 ضعفًا، وفي هولندا، وبلجيكا 50% من المواليد الجدد مسلمون؛ ومن ثمَّ سيكون نصف سكّانهما من المسلمين، ومن هنا صَرَخَتْ حكومة بلجيكا قائلةً: إنَّ ثلث أطفال أوروبا سيكونون في عام 2025م من المسلمين؛ ومن هنا ستكون ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا خلال الثلاثين عامًا القادمة ولايات إسلاميَّة، وهكذا سيكون حال أوروبا بكاملها فلا يأس، ولا قنوط لأنَّ الله تعالى شاء أن تكون الرِّسالة (الإسلام) للكافَّة، ولا إكراه في الدين.

وفي روسيا هناك ما يزيد عن 25 مليون مسلمٍ، وحسب التقرير الكندي: سيكون في السنين المقبلة على الأقل 40% من الجيش الرُّوسي من المسلمين.

أمَّا الولايات المتحدة الأمريكيَّة فنسبة الزيادة السكانيَّة تبلغ: 1.6، وهذه لا تكفي للحفاظ على الثَّقافة؛ ومن ثمَّ فهي متحكِّمة في نوعيَّة المهاجرين إليها بما يحافظ على الثَّقافة، ما جعل نسبة معدل الزيادة: (بعد المهاجرين) تبلغ: 2.11، وهذه النّسبة تكفي للحفاظ على الثَّقافة، ووفقًا للتوقُّعات الإحصائيَّة فإنَّ عدد المسلمين خلال الأعوام غير البعيدة سيكون في الولايات المتحدة الأمريكيَّة متجاوزًا للخمسين مليون مسلمٍ، وهكذا

نسبة زياد المسلمين تتزايد في مواجهة مع نسبة الزيادة الكنديَّة، التي لم تتجاوز نسبة 1.6 من المواليد الكنديين.

ومع أنَّ السُّبل ممهدةٌ لانتشار الدّين الإسلامي في العالم، فإنَّها لا تُعدُّ بعد ممهدةٌ للمسلمين؛ فالمسلمون ما لم يحسموا أمر خلافاتهم: (سُنَّة، وشيعة، وسلفيّة متشدّدة، وصوفيّة، وداعش، وزيديّة، وإخوان مسلمون) لا يمكن أن يكون لهم مستقبلٌ بهذا الوهم المفرِّق، أي: ستكون أصواتهم الانتخابيّة أمام الآخر مفرّقة ضعيفة؛ مما يؤدِّي إلى فوز الخصم الذي قد لا يكون صالحا لحمل المسئوليّة الوطنيّة.

وعليه: ينبغي أن يَكسِروا الوهمَ الذي به يتفرّقون، وأوَّل ما ينبغي كسره وهم التقديس الذي يعني: التعظيم والتنزيه لغير الله، ومن ثمَّ ينبغي أن يقدّس الدّين وينزّه، ولا تقدّس المذاهب وتنزّه؛ذلك لأنَّ الله هو المنزّه والمقدّس، أمَّا العلماء والفقهاء والمفتون فلا ينبغي أنْ ينزّهوا ويقدَّسوا؛ إذ لا كمال ولا جلال إلَّا لله تعالى.

استغوال الوهم:

كلّما وقع خلافٌ بين الأفراد، أو الجماعات، أو المتربِّعين على سُدد الحكم تولَّدت بينهم أوهام عظيمة تأسَّست عليها ردات فعل أكثر وهمًا وتغوّلًا، وكذلك كلَّما استشعر البعض عظمة القوّة والسُّلطان تمادى في أوهام السَّيطرة، وإكراه الغير، وتقليل شأن من لا يكون مؤيدًا لأوهامه.

ولهذا يعد التطلُّع لحكم الشّعوب بنظريّة فكريّة أو رؤية دينيّة أو عسكريّة وهمًا ينبغي أن يكسر قبل أن يستغول كما استغول نابليون

بونابرت عندما أعلن نفسه إمبراطورًا على فرنسا، ثم رسم بأوهامه خطط التوسع الفرنسي على حساب دول أوروبيّة، وقد أحرزت فرنسا في عهده انتصارات كبيرة، ولكنَّه عندما غزى روسيا عام 1812م خسر المعركة، ومن بعدها خسر في مواجهة مع بريطانيا عام 1813م، وأجبر نابليون على التنازل عن العرش فاستسلم كرها وليس وهمًا[18].

وهكذا استغول هتلر بوهم العظمة والقوّة حتى انكسر وهمه بهزيمة دفع الشّعب الألماني ثمنها خسائر، فبعد أن استغول هتلر بجيشه الألماني الذي قام بإعادة بنائه غزا بولندا عام 1939م؛ مما أدَّى إلى اندلا ع الحرب العالميَّة الثانية، وخلال ثلاث سنوات، احتلت ألمانيا ودول المحور معظم قارة أوروبا (عدا بريطانيا)، واحتلت أجزاء كبيرة من أفريقيا، ودول شرق وجنوب شرق آسيا، والدِّول المطلة على المحيط الهادي، وثلث مساحة الاتحاد السوفيتي (من الغرب حتى مدينة ستالينغراد). وفي عام 1945م نجحت جيوش الحلفاء في اجتياح ألمانيا من جميع جوانبها، وحتى سقوط برلين، وفي أثناء الأيّام الأخيرة من الحرب في عام 1945م تزوج هتلر من عشيقته (إيفا براون) بعد قصّة حبٍّ طويلة، وبعد أقل من يومين، انتحر العشيقان، وتمَّ حرق جثتيهما على بعد أمتار من تقدّم الجيش السوفيتي في برلين، وهكذا دائمًا هي نتائج المتغوّلين وهمًا[19].

---

18 Harvey, Robert, *The War of Wars*. 2006. Robinson pp 62 – 83.

19 Bloch, Michael (1992), *Ribbentrop*, New York: 1992, Crown Publishing, pp 57 – 93.

وهكذا يستغول الوهم كما استغول الاتحاد السوفيتي بوهم العظمة والقوّة حتى انكسر بتحطيم صور برلين، وتحرَّرت الدّول التي كان مهيمنًا عليها بجنون الوهم؛ مما أسفر في النّهاية عن إزالة الجدار؛ ومن ثمَّ أعلنت حكومة ألمانيا الشرقية عام 1989 بعد عدة أسابيع من الاضطرابات المدنية عن إمكانية جمع مواطني جمهورية ألمانيا الديمقراطيّة وزيارة ألمانيا الغربيّة وبرلين الغربيّة. فعَبرت حشود من مواطني ألمانيا الشرقيّة وتسلقت الجدار، وانضم إليها مواطنو ألمانيا الغربيّة على الجانب الآخر في جو احتفالي. افتتحت بوابة براندنبورغ في جدار برلين عام 1989، وبدأ هدم الجدار رسميًّا في عام 1990م، وانتهي من هدمه في نوفمبر عام 1991م هكذا كانت بداية الوهم، وهكذا انكسر في النهاية.

وكذلك كما استغول موسوليني بحزبه الفاشي حتى انكسر جيشه في ليبيا بمقاومة لم يسبق لها مثيل؛ حيث قَبِلَ الشَّعب الليبي الموت من أجل الحياة؛ فضحّى بنصف تعداد سكانه من أجل الحريّة فانتصر، وبعد أن غزت ألمانيا إيطاليا واحتلتها عام 1943 إلى عام 1945 انكسرت أوهام موسوليني فحاول الهروب، فتمت مطارته، وألقي القبض عليه، وأعدمته حركة المقاومة الإيطاليَّة عام 1945م. مع أعوانه، وعُرضت جثتهم في ساحة عامّة في ميلانو معلقة من الارجل أمام محطة لتزويد الوقود، ثُمَّ جاءت الجماهير تشتمهم، وتبصق عليهم، وترميهم بما في أيديها. وبعد انتهاء كل شيء أخذت الجثث ودفنت سرًّا في ميلانو. وفي سنة 1957م سُلِّمت جثَّة موسوليني لأهله لتدفن قرب مدينته التي وُلد بها، وأذكر مما يتجرَّأ أن يقوله الواهم ما قاله موسوليني بعد احتلاله ليبيا، قال:

أنا خليفة للمسلمين في ليبيا، (يقصد بعد أن انتهت الخلافة العثمانيّة فإنا الخليفة البديل) فردّ عليه شيخ الأزهر: هل أنت مسلمٌ حتى تكون إمامًا للمسلمين؟، وسخر العالم من ادعاء موسوليني (مسلمين وغير مسلمين)[20]؛ ولهذا كل البدايات الواهمة نهايتها كسرُ وهمٍ.

هذه النتيجة التي سجَّلت نهاية موسوليني وكسرت وهمه تذكر بما حصل مع العقيد معمر القذافي الذي قُبض عليه بعد حكم دام 42 عامًا تقريبًا، ثمَّ قُتل، ومُثِّل بجثته، وعُرضت ثلاثة أيَّام في صندوق المبرِّدة (ثلاجة)، والمنتصرون يمرّون لمشاهدة جثمانه وكأنَّه لم يكن من قبل، مع العلم أنَّ جثَّته حتى كتابة هذا المؤلف مجهولة المكان، وفي دائرة المتوقَّع طال الزمن أم قصر ستُسلّم جثته لذويه إن كان للجثة مكان معلوم لدى البعض.

وبالتّمام كانت النتيجة فظيعة مع تغوّل الرَّئيس صدام حسين الذي بنظرةٍ واهمةٍ انقلب على رفيقه الرّئيس حسن البكر، الذي هو الآخر قد انقلب على من سبقه من الواهمين بالانقلابات الواهمة، فكان انقلاب الرّئيس صدام حسين عام 1979م، ثمَّ كان غزوه للكويت وهمًا عام 1990م، وكان كسر وهمه عام 2003م بعد أن قُبض عليه مختبئًا في قبوٍ، وحُكم عليه بالإعدام، ونُفِّذ الحكم فيه شنقًا 2006م أمام شاشات التلفزة العالميَّة فانكسر وهمه[21].

[20] الموسوعة العربيَّة، بينيتو موسوليني، نسخة محفوظة 10 مارس على موقع واي باك مشين.

[21] سامر محي الدين، الموجز في تاريخ الرئيس العراقي الراحل صدام حسين، بغداد: 2008م ص15.

كسرُ الوهم ولو كان معتقدًا:

ولأنَّ الواهِم على حالة من الغرور، أو التضليل، أو الغفلة والاستغفال، فلا إمكانية له أن يكون على صواب، ومن ثمَّ يظل في حاجة لمن يكسر وهمه بغاية إعادة الصّحوة إليه واليقظة، وإلَّا سيظل في غيبوبة الوهم وكأنّه ليس على علاقة بالحقيقة التي بمعرفتها ينكشف الزيف وينكسر الوهم.

ولذا فالذين اتخذوا من دون الله أربابًا ظلوا يعتقدون فيها وهمًا، حتى جاءت الرِّسالات السَّماويَّة، وأُرسِل الرُّسُل الكرام مبشّرين بدعوة التوحيد، فانتهى ذلك الوهم بتكسير الأصنام، وأوَّل من مدّ يداه إلى تكسيرها بلا خوف ولا تردد النبي إبراهيم عليه السَّلام، وآخر من قضى عليها سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام وكان ذلك يوم فتح مكة، فتهاوت الأصنام أمام أعين من اعتقدوا وهمًا أنَّها مقدّسة، ومن ثمَّ كُسر الوهم بحريّة العبادة ولا إكراه في الدين.

(أسلِم تسْلَمْ) تكسرُ وهمًا:

مع أنَّ (أسلِم تسلَمْ) كلمتان، ولكلٍّ منهما معنى؛ فإنَّهما معًا يحملان مضمونًا واسعًا، اختلفت القلّة على ما يدلَّان عليه، وفي المقابل الكثرة اتفقت، فالبعض استوقف عقله عند أمر فعلهما، والأكثرون استوقفتهم عقولهم عند الأفعال المعظِّمة للأمر. فمضمون كلمتي: (أسلِم تسلَمْ) يحوي لبَّ رسائل النبي محمَّد – عليه الصَّلاة والسَّلام– المرسل بها إلى الملوك والحكَّام، الذين عاصروا رسالة الإسلام ونبوة محمّد، وكان لهم من المخاوف والأوهام ما لهم؛ فبعثَ النَّبي إليهم ما يطمئنهم، ويكسر وهمهم، ويُظهر لهم

لبَّ حقيقةِ الإسلام: (أسلِم تسلَمْ)، بمعنى: اطمئنوا فلا خوف من الإسلام، فعندما لا يعتدي أحدُ علينا نسالمه؛ وبهذا كانت الغاية من إرسال الرُّسُل للملوك والحكام للتعريف بنبوءة محمَّد، ورسالة الكافة، والدعوة إليها بـ(أسلِم تسلَم)، وفي المقابل من لا يريد أنْ يسلم فلا يسلم؛ إذ لا إكراه؛ ولهذا فإنَّ الغاية كانت للتعريف بالنبوة وطمأنة الخائفين، وليس بغاية التهديد الذي يخالف أمر الرِّسالة.

ومع أنَّهما كلمتان عظيمتان فإنَّ الرِّسالةَ المحمولةَ في مضمونهما تحمل بلاغًا أعظم، بلاغًا يُنبئ بأمرٍ يتعلّق بالكافَّة؛ ذلك لأنَّ أولئك الحكَّام وشعوبهم كانوا يعتقدون أنَّ محمَّدًا بُعث رسولًا للعرب فقط، وللتصحيح بعث محمَّدٌ رُسُولَهُ ليبلِّغوا برسول الكافَّة، والهداية بالحق واتباعه بغاية: (الكفرُ بالكفرِ)؛ ولذا فالنبي محمَّد علم أنَّه إن لم يُبلّغ ما أُمر به فما بلَّغ الرِّسالة: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[22]. إذن مضمون رسالة النَّبي: (أسلِم تسلَم) مضمون إبلاغي؛ ولأنَّه إبلاغي فالمبلِّغ به يأمر بالسَّلام، وكما ينهى عن الكفر ينهى عن أفعال الإكراه بالمطلق؛ مصداقًا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[23]؛ ولهذا فلا تهديد في رسالة: (أسلِم تسلَم)، أي: لو كانت رسالة تهديد لكان المهدد به مُضمَّنٌ فيها ومنصوصٌ عليه.

---

[22] المائدة: 67.

[23] البقرة: 256.

ولأنَّه لا إكراه في الدِّين ورد في الرَّسائل الموجَّهة إلى بعض الحكَّام والملوك عبارة: (فإنْ أبيت) وعبارة: (فإنْ توليت) وفي الحالتين: سواء في حالة الإباء، أم في حالة التولِّي هناك مترتّب على أفعال الإيباء والتّولّي؛ ففي حالة الإيباء، قال في الرِّسالة الموجهة إلى كسرى: (فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك)، هذا ما قاله محمَّد، ولم يقل: (فإنْ أبيت سأقاتلك)، وفي حالة التولّي، قال في رسالة هرقل: (فإن توليت فإن عليك إثم جميع الأريسيِّين)، هذا ما قاله بالتمام أيضًا، ولم يقل: (فإنْ توليت سأقاتلك بالسَّيف) وفي الرِّسالة الموجّهة إلى المقوقس قال: (فإن توليت فعليك إثم القبط)[24]، ولم يقل له: (فإنْ توليت سأرسل إليك جيش المسلمين يقاتلك).

وعليه: كان لمضمون الرسائل مفهومٌ مفاده: في كل الأحوال إن لم تقبلوا بما أرسلتُ به رُسُلي إليكم نصحًا، وتبشيرًا، وإنذارًا، وتسليمًا (تصديقًا) فإنَّ أثم وذنب شعوبكم وأقوامكم التي تتحكَّمون في أمورهم وشئونهم ستكون أوزارًا على ظهوركم وستحاسبون عليها أمام الله.

ولأنَّ ما تَصدَّر به مفهوم: (أسلِمْ تسلَمْ) لا إكراه فيه؛ جاء عجزه مؤكِّدًا للمفهوم ذاته وساندًا له بلا إكراه، (فإن توليت فإن عليك إثم جميع الأريسيِّين)، وهكذا جاء الصَّدر في رسالة كسرى: (أسلِم تسلَم) وجاء العَجُز: (فإن أبيت، فإنَّ إثم المجوس عليك). كما أنَّ مفهوم (أسلِم تسلَمْ) مفهومٌ إنذاريٌّ، أي: وكأنَّ المفهوم يقول: إن لم تسلِمْ ستقع في مصائب

---

[24] عبد الرحمن بن حسن التميمي، المطلب الحميد في تبيان مقاصد التوحيد، دار الهداية للطباعة والنشر، 1991م، ص 151.

نحن نعلمها ويا ليتك تعلمها؛ حتى لا تقع فيها عن غفلة، ومن ثَمَّ فمن يرغب في معرفتها فعليه بما يكسر وهمه وهو: (الإسلام)، وإلّا سيفاجئ بما لم يعلم، والإسلام يعلمه؛ ولذا فرسالة: (أسلِم تسلَمْ) هي رسالةُ كَسْرِ وهمِ الذين ظنوا أنَّ رسالة محمَّد هي رسالة إكراه بحدِّ السَّيف، وعندما تبيّن لهم أنَّها ليست كذلك فمعظم الملوك قد أسلموا؛ إذ أسلم النجاشي ملك الحبشة، وأسلم جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين حكّام عُمان، والمنذر ملك البحرين، وكاد أن يسلم هرقل ملك الرّوم لو لم يغالبه الوهم.

ولأنَّ كلمة (تسلَمْ) تعني: تنجو، إذن فمفهوم (أسلِم تسلَمْ) يعني: (أقبِل على ما يُنجيك)؛ وبهذا المعنى يصبح مدلول (أسلِم تسلَمْ) مدلول نصيحة مع وافر الحرص على سلامة من يُدعى بالقول: (أسلِم تسلَم)؛ ولهذا فالفرق كبير بين من يقل لك: (أسلِم تسلَم)، ومن يقل لك: (استسلِم تسلَم)؛ فالفرق بينهما: أنَّ مفهوم الأولى متمركزٌ على التقدير والاحترام والحرص على سلامة المدعو، مما يجعل النصيحة لصالح المنصوح.

أمَّا مفهوم الثَّانية فمتمركز على تحقير المدعو والتقليل من شأنه، وهنا تصبح النصيحة في صالح النَّاصح وليس المنصوح؛ ذلك لأنَّ الاستسلام فيه من الإذلال ما فيه مع تقديم المزيد من التنازلات السَّالبة للإرادة، والتي لا يمكن أن تكون في صالح المنصوح.

وعليه: فإنَّ (أسلِم تسلَم) تعني: (إذا أسلَمت سَلِمتَ) أي: إذا أسْلَمتَ نفسك لله تعالى سَلِمتْ ونجوت من معصية أمر الله: (أسلِم تسلَم). مع العلم أنَّ مضمون (أسلِمْ تسلَمْ) مضمون تحفيزي، وكأنَّه يقول

لك: لا تتأخّر فأنا متأكّدٌ من نجاتك وسلامتك إذا أخذت بما أنصحك به وأرشدك إليه.

المعجزةُ كسر وهم:

مع أنَّ المعجزَ ما لا يستطع بنو آدم فعله وبلوغه، فإنَّ الأنبياء يُمكّنون منه، فبالمعجز سَجد الملائكةُ لآدم بما أعلمه الله به؛ ولأنَّ الملائكة يعلمون، فلمَّا علموا بما لا يعلمون وعجزوا؛ سجدوا لمن علّمه الله؛ طاعة لأمر الله.

ولأنَّ معجزات الأنبياء متجاوزة للخوارق؛ فهي لا تكون إلَّا من عند الله، أي: إنَّ معجزات الأنبياء جميعها ليست بأيديهم وإنْ تمت بها، كما هو حال معجزة النبي نوح -عليه السَّلام- الذي صنع الفُلك (المعجزة)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}[25]، ومن ثم فالمعجزة وإن ارتبطت بنبيٍّ فهي ليست من عنده؛ ولهذا تختلف عن الخوارق التي ترتبط بمن يخترق دائرة غير المتوقّع فيضيف للعلم جديدًا، مع العلم أنَّ الخوارق وإن عَظُمت لن تبلغ دائرة الإعجاز التي لا يبلغها إلَّا نبي.

ولأنَّ المعجزة لا تكون إلَّا من عند الله بعث الله الأنبياء والرُّسُل لِيُظهرَ على أيديهم المعجزات الكاسرة للأوهام، التي قيدت عقول النَّاس وجعلتهم يتخذون من دونه آلهةً وأربابًا.

---

[25] المؤمنون: 27.

ومع أنَّ العموم يعتقد أنَّ معجزات الرُّسُل من أيديهم، فإنَّ الخصوص يعرفون أنَّها من عند الله؛ ففي الوقت الذي يقول فيه العموم: إنَّ القرآن معجزة سيدنا محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام- يقول الخصوص: وكذلك التوراة معجزة النبي موسى، والإنجيل معجزة النبي عيسى، والزبور معجزة النبي داود -عليهم الصَّلاة والسَّلام- وفوق ذلك نقول: هذه الرِّسالات المعجزة تنزَّلت على أقوام، وشعوب، وأمم، وكافَّة، أمَّا معجزات الأنبياء الخاصَّة فأعظمها معجزة نبي الكافَّة (محمَّد)؛ لأنَّها معجزةُ حُجَّة باقية، أمَّا معجزات الأنبياء الذين سبقوه فجميعها -على عظمتها- معجزات حسِّيَّة مؤقَّتة في الوقت الذي فيه معجزة سيدنا محمَّد عقليَّة دائمة باقية، إنَّها: معجزة: (اقْرَأْ).

اقْرَأْ: التي في لحظة نُطقها نسخت في حينها الأميَّة وعَتَمتها من عقل النّبي محمَّد، فانجلت الظُّلمة بنورِ النبوَّة، وأصبح العقل الذي كان لا يدرك إلَّا المشاهد والمحسوس عن قُربٍ، يدرك عن وعيٍ تلك العلاقة المعجزة بين السَّماوات والأرض.

ومع أنَّ كلمة: (اقرأ) كلمة آمرة لا تُقال إلَّا لمن يعلم، ليقرأ ما يعلمه أو يعرفه، فإنَّها بالنِّسبة إلى سيِّدنا محمَّد قِيلت له من العليم الذي يعلم أنَّه ليس بِقارئ، ومع ذلك قالها له ليقرأ؛ إذ أرسل الله إليه رسوله جبريل ليبلغه بالأمر: (اقرأ)؛ فقال: اقْرَأْ. قال: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، اقْرَأْ، مَّا أَنَا بِقَارِئٍ، اقْرَأْ، مَّا أَنَا بِقَارِئٍ[26]، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

---

[26] حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، الدمام: 1990م، دار ابن القيم، ص 1053.

عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، فقرأ باسم ربِّه (بسم الله)، ولأنَّ الله أمره أن يقرأ باسمه فكيف لا يقرأ!!

ومن ثمَّ ألا يكفي النبي معجزةً أنَّ الله قد أمره أن يقرأ المعجزات باسمه تعالى، وهو يعلم أنَّه لم يكن بقارئ، فلو كان محمَّدٌ قارئًا وأُمر أن يقرأ المعجزات فلا إعجاز، ولكن الإعجاز أن يقرأ المعجزات وهو لم يكن بقارئ، ولأنَّ أمر (اقرأ) أمر (كُن) فكان محمَّدٌ الذي لا يعرف القراءة والكتابة قارئًا.

ولذا فإنَّ القراءة كانت بالفعل (كُن) الذي جعل من الفعل (اقرأ) على لسان محمَّد فعلًا مفعولًا، إنَّها القراءة باسم الله، وليست القراءة باسم محمَّد؛ ولأنَّها باسم الله؛ فلا مُعجز أمام محمَّد أن يتكلّم باسم الله كلّما نزلت عليه آية أو سورة من القرآن وفقًا لمشيئته تعالى.

إنَّها بحقٍّ معجزة؛ إذ انتهت معجزات الأنبياء والرُّسل جميعها، وبقيت معجزة النبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–باقية، فمن شاء أن يقرأ كلام الله فلا يجده إلَّا بقراءة محمَّد (بسم الله) في كتاب الله.

(واقرأ) لم تكن أمرَ أرضٍ، بل كانت أمرًا من السَّماء، فلو كانت أمرَ أرضٍ ما قرأ محمَّد؛ لأنَّه أميٌّ، ولأنَّها أمرٌ من السَّماء فقرأ محمَّد بسم الله ما جاء من السّماء، وهذه عظمة المعجزة.

وعليه: فإنَّ معجزة النبي محمَّد (اقرأ) جاءت لتخاطب العقل، وتكسر وهم أميَّته، التي فتحت لها مدارس بلا مدرسين، والمنتسبون إليها

يُعلّمون بلا علم، وتقدَّست فيها الآلهة بلا مُقدَّس. فكانت (اقرأ) نبراس هداية من الله الذي تتعدَّد صفاته وهو الواحد الذي لا يتعدَّد.

اقرأ، هي معجزةُ محمَّد العقليَّة التي تخاطب العقل، وتُكسر الوهم، وتطمئن النّفس، وتُحدثُ النُّقلة من الأميَّة إلى العلم، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الشرك إلى الواحديَّة، ومن الكفر إلى الإيمان.

ولأنَّ (اقرأ) جاءت لرَسُول الكافَّة أمرًا مفعولًا (كن قارئًا طائعًا)؛ فبقيت للكافَّة فعلًا مأمورًا: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[27]؛ ولأنَّ الله يعلمُ أنَّ الرَّسُول محمَّدًا يعلمُ قال: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)؛ ذلك لأنَّ الله –تعالى- لا يمكن أن يُعطي أمره لمن يجهل أمره؛ ولهذا فعندما قرأ محمَّد باسم ربّه، باركه ربّه والملائكة بالصَّلاة عليه، ثمَّ أمر الله المؤمنين بمباركة النبي محمَّد والتسليم عليه، بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[28]، وهذه الآية الكريمة تدلُّ على الاعتراف بالمعجزة (رسالة الكافَّة)، وبالأمر المعجز (اقرأ)، والمباركة والتسليم لصاحب المعجزة (محمَّد) الذي قرأ ساعة الأمر بالقراءة وهو لم يكن بقارئ.

وأضيف: إنَّ صلاة الله والملائكة على النبي محمّد هي الأخرى معجزة من المعجزات التي وهبها الله –تعالى–للنبي محمَّد، أي: ألا يكفيه

[27] الحشر: 7.

[28] الأحزاب: 56.

معجزة أنَّ الله وملائكته يصلون عليه، وأنَّ الله أمر الكافة أن تصلِّي وتسلّم عليه؟

نعم، إنَّ: (الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمّد) مُعجزة باقية مع معجزة: (اقرأ) إلى يوم يبعثون.

وأضيف أيضًا: أنَّ الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد تشمل الصَّلاة والسَّلام على جميع الأنبياء والرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ ذلك لأنَّنا لا نفرّق بين أحدٍ من رُسله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[29].

وفي المقابل مع أنَّ للأنبياء والرُّسل كافة معجزات فإنَّها جاءت ماديَّة، ومؤقَّتة فلم تبق على قيد الحياة إلَّا ذكرًا معظَّمًا؛ حيث كان سجود الملائكة لآدم؛ اعترافًا بنبوته وطاعة لأمر الله (سجودًا لم يتكرَّر)، وكان رفع النبي إدريس عليًّا معجزة، وليس لنا منها إلَّا التعظيم: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}[30]، وصُنعت السّفينة المعجزة على يدي النبي نوح آية ودرسًا، وكانت النَّاقةُ المعجزة على يد النبي صالح آية ودرسًا، وكانت النَّار المعجزة على النبي إبراهيم بردًا وسلامًا، وكان الكبش المعجزة آية فداء للنبي إسماعيل، وكانت إلانة الحديد آيةً للنبي داود مع استجابة الجبال والطّير، وكانت السّيطرة على الجنِّ ومعرفة منطق الطّير من معجزات النبي سُليمان، وكانت

---

[29] البقرة: 285.

[30] الأنبياء: 57.

العصا آية بيد النّبي موسى كاسرة لأوهم السَّحرة وأوهام فرعون، ومن وهم من خلفهم، وكانت الولادة من دون أبٍ والكلام في المهد معجزة من معجزات النبي عيسى التي خُتمت برفعه إلى السَّماء كما رُفع النبي إدريس عليهما وعلى جميع الأنبياء والرُّسُل الصَّلاة والسَّلام.

هذه بعض معجزات الأنبياء والرُّسُل الكرام، وإنَّها لمعجزات عظيمة وهي كثيرة، ومع أنَّها على الكثيرة المباركة، فإنَّها كانت مؤقّتة، وماديّة محسوسة، وجميعها بأمر الله وفعله، ولا شيء منها بأيديهم ولو كانت عليها.

أمَّا معجزة الرَّسول محمَّد فكانت (الكلمة)، التي تخاطب العقل والقلب والنفس وتغيِّر الأحوال، وتُحدث النُّقلة، وتحقّق الرِّفعة، وبها يُصبح الأميُّ عالما، والكافر مؤمنًا.

وعليه فإنَّ الكلمة التي بها كُسِرَ وهمُ الأميَّة لا يمكن أن يكون صاحبها من بعدها أميًّا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[31].

إذن فالرسول الكريم -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-كما جاء في الآيةِ السَّابقة يتلو القرآن؛ ولأنَّه كذلك فلا يليق بنا أن نصفهُ بأنه أميٌّ، أي: هل يحقُّ لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنّه أمّي؟! ثمَّ أيليق بنا أنْ نصف من يُزكّي ويُعلِّم المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنّه أمّي؟! أي: كيف نقبل أن يوصف المعلم بالأمّي ويوصف المتعلّم على يديه بالعالم؟!

[31] الجمعة: 2.

ومن ثَّم وجب علينا أنْ نميّز بين مفهومي: علم التوحيد، وعلم المعارف المتنوّعة؛ فعلم التوحيد علم يقين، وتقابله الأميَّة فيكسر وهمها: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[32]، أمَّا علم المعارف المتنوّعة في دائرة النسبيّة فيقابله الجهل فيكسر وهمه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[33].

قُلْ، كاسرةُ وهمٍ:

أُنزلت الكلمة (قُل) من الله –تعالى– فعلَ أمرٍ مُلزمٍ لتكسر وهمًا بحجّة ودليل، فكان الحفاظ عليها تنزيلًا (طاعة للأمر)، الذي لا ينفصل فيه القائل عمَّا قال.

(قُل) تنزيلٌ: هي أمرٌ من الله تعالى، قيلت لجبريل –عليه السَّلام– نبأً للنبي محمّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– ليبلّغ بها الكافة، فهي أوَّلًا: قالها الله لجبريل، وثانيًا: قالها جبريل لمحمَّد، وثالثًا: قالها محمَّد للكافة، وهي تعني مما تعنيه أنَّ الله –تعالى– قال: (قل يا جبريل لمحمّد) أن يقول: (قُل) أينما تنزّلت عليه هي كما هي، ولا ينوب عنّي في أمري بها.

قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[34]، وهذا القول يعدُّ واحدًا مما مجموعه 332 مرة، قيلت فيها كلمة (قُل) في القرآن الكريم، وقوله: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) بمعنى: قل يا جبريل لمحمَّد أن يقول: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، وهنا يكمن اللَّبس والغموض لدى بعض الذين قالوا: بما أنَّ الله قال: (قُلْ هُوَ

[32] النمل 75.
[33] الاسراء 85.
[34] الإخلاص 1.

اللَّهُ أَحَدٌ)، إذن ينبغي أن نقول: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) معلِّلين قولهم بأنَّ (قُل) فعل أمر يتطلَّب قولًا ما يرد من بعد، وهو الذي يجب أن يقال، وإلَّا سنجد أنفسنا نكرر في الأمر الذي أُمرنا به، وكأنَّنا لم نفهم ما قِيل لنا.

فهنا بالتَّمام يكمن سوء الفهم غموضًا، ولفكِّ هذا الغموض علينا أن نميِّز بين أمرين:

الأمر الأوَّل: أن يقول الله لجبريل: قل لمحمَّد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

الأمر الثَّاني: أن يقول الله لجبريل قل لمحمَّد أن يقول: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

فالذين فسَّروا التباسًا وغموضًا ووهمًا أخذوا بالأوَّل، وهو ما لم يقله الله جلَّ جلاله، فلو قاله الله لحذفت (قُل) من قِبل الرَّسول الكريم؛ كونه يعلم ما لا نعلم: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[35]، ولكن لأنَّ (قُل) بقيت كما أُنزلت؛ فهذا يُبرهن إثباتًا على أنَّ الله -تعالى- قال لجبريل: قل لمحمَّد أن يقول: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، وبهذه الصِّيغة أصبح محمَّدٌ ملزمًا بقولها إثباتًا لأمر الله نصًّا.

ومن ثم افتراضًا لو لم يقل النبي محمَّد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، وقال: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وحذف فعل الأمر (قُل) لأمكن للمشكِّكين والواهمين أنَّ يعيدوا قول: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) إلى النبي، ولا يعيدونه إلى الله تعالى؛ ولذا ففي أي موضع في القرآن فعل الأمر (قُل) لا يعود فعل الأمر والإجابة المترتبة

---

[35] الحشر: 7.

عليه إلَّا لله تعالى، وفي المقابل لو تمَّ حذفه فمن حقِّ المفسِّر أن يعيد الكلام إلى الرَّسُول في الوقت الذي لم يكن القول قوله؛ لأنَّه قول الله.

وعليه: لو قال الله لجبريل أن يقول لمحمد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، لكان من حقِّ محمَّد أن يقول: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، ولكنَّه قال له: قُل يا جبريل، أن يقول محمَّد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)؛ ولهذا ليس له بدٌّ إلَّا قولها كما أُمر.

ولأنَّ الفعل (قُل) فعل مُلزم القول فهو مُلزم الأخذ به والتقيُّد؛ حيث لا اجتهاد من بعد (قُل) ولا وهم: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ}[36]؛ فلو حُذفت كلمة قُل؛ لكان لسائلٍ أن يسأل: هل الضّمير هنا يعود على عِبَادِ الله، أم على عِبَادِ النبي؟ ولهذا تُعدّ كلمة (قُل) الكلمة الحاسمة للأمر؛ إذ لا التباس من بعدها ولا أوهام: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}[37]، أي: إنَّه القول المنزَّل على الرَّسُول، ومن ثم هو القول الحقّ؛ لأنَّ الرّسول لا يقول إلّا ما قاله الله كما قاله الله، قال تعالى: {وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}[38] في هاتين الآتين لو حذفت قُل لأصبح اللبس في العقول، هل هذا القول قاله الرَّسول، أم قاله الله؟، ثمَّ هل هذا الأمر

خاصّ بالرّسول، أم إنَّه أمر وللكافة؟

ومن ثمّ فإنَّ (قُل) قد قنَّنت كلّ ما قِيل من بعدها، ولم تتركه فضفاضًا للتناقض وسوءِ التفسير وأوهام البشر؛ فهي من أهم الكلمات التي نقلت

[36] الزمر: 10.

[37] الحاقة: 40.

[38] المؤمنون: 97، 98.

المبلّغ به إلى المبلّغ إليه دون أن تترك له رأيًا فيما أمرت به وقيّدته؛ إذ لا اجتهاد فيما يَرِد من بعدها.

ولهذا فإنَّ (قُلْ) تربط القول بقائله، وليس بالمقال له، أي: لا تربطه بجبريل، ولا تربطه بمحمَّد؛ حيث لا اجتهاد لهما فيما أمر الله به، مما يجعل العلاقة مباشرة بين القول (القرآن)، والقائل (الله)، والمبلغ (النبي)، والمبلغ به (الكافة).

ولأنَّ أمر (قُل) ورد في القرآن 332 مرة فإنَّ أمرها ليس هينًا؛ ولذا فهي لم تأتِ على مفهومٍ واحدٍ، بل على أوجه من المفاهيم، وفي كلّ الأوجه كانت الإجابات والأخبار المترتِّبة على (قُل) دالة على أهميّة ما يريد الله أن يلفت النَّاس إليه اهتمامًا خاصًّا، سواء أكان إقدامًا وأخذًا، أم إحجامًا وانتهاءً، أم درسًا للاتعاظ وأخذ للعبر.

وعليه: فإنَّ (قُل) أمرٌ من عند الله، فلا يمكن أن يكون من بعده تردُّد، ومن ثمَّ ليس للمؤمن أن يتردَّد في الاحتكام بما ورد مأمورًا به من بعد (قل)، أو منصوحًا به من بعدها، وبخاصَّةٍ أنَّ الأفعال المترتّبة على (قُل) لا تكون إلَّا حلًّا للتأزُّمات، وخيرًا ولا إكراه.

ومع أنَّ (قُلْ) كلمة واحدة لآمر واحد (الله) فإنَّ المأمور بنقلها (جبريل)، والمأمور بأخذ ما تحمله من رسالة هو(محمَّد)، والمبشَّرين برسالتها (الكافَّة)، ومن هنا أقول: كلّ القرآن مؤسّسٌ على (قُلْ) سواء ذُكرت (قُلْ) أم لم تذكر؛ لأنَّ القرآن قول الله، الذي قاله جبريل وحيًا للنبي محمّد، والذي بدوره بلَّغ ما قيل له رسالة.

ولهذا فالفعل (قُلْ) فعلٌ تبليغي، مؤسّسٌ على قول اسم الله: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)، الذي لا يمكن لنا قوله ما لم نقل: قال الله تعالى في كتابه العزيز؛ لتكون القراءة من بعده بسم الله، ثمَّ نقول أو نقرأ ما قاله الله.

أمَّا إظهار كلمة: (قُل) فهي لترسيخ العلاقة المباشرة مع الله تعالى؛ ولذلك فعندما يقال لك: (قُل) كما أمر الله بها تنزيلًا؛ فهي كمن يقل لك: لا تغفل، ولا يخالجك وهم؛ إذ لا علاقة لي بما أبلغتك به سوى أنّني المؤمن به، والمبشر المنذر، والداعي إلى الأخذ بما أمر الله وأنزل؛ ولذا فمتى ما تجد (قُل) تنزيلًا تعلم أنَّ القرآن لم يكن حوارًا بين الله ورسوله، ومن ثمَّ فإظهار كلمة (قُل) في مواقع وجودها وإظهارها في المصحف تعد حُجَّة لإظهار الحقيقة وأحكامها هي كما هي؛ حيث لا زيادة ولا نقصان؛ ومن ثَّم فإنَّ كلمة (قُل) كما أنزلت إن لم تكن حُجَّةً لنا، ستكون حُجَّةً علينا.

أوهامُ النشوز:

النشوزُ شذوذٌ عن المألوف والمعتاد المرضي؛ يُعكِّر مزاجًا، ويزعجُ ذوقًا، ويهزُّ توازنًا، وهو خروجٌ عن المستساغِ والمتعارفِ عليه، ومخالفة لما يستحسنه العقل ويفضّله ويرتضيه، وتمرُّدٌ على القيم الحميدة الضَّابطة لتوازن السُّلوك والعلاقات الزَّوجيَّة، قال تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[39].

[39] النساء: 34.

فمع أنَّ كلمة النشوز في هذه الآية جاءت غير محدّدة المفهوم، فإنَّ اللغويين يكادون يجمعون على أنَّها تعني: الارتفاع وما يعلو، ومن هنا نقول: إنْ قبلنا بهذا المعني: ينبغي أنْ نقبله موجبًا؛ ذلك لأنَّه: (الارتفاع وما يعلو)، مع العلم أنَّ مفهوم النشوز فيه من الشذوذ عن القاعدة ما فيه، وفيه من الدّونيَّة والسُّفليَّة ما فيه أكثر.

ولأنَّ السُّفليَّةَ والدُّونيَّةَ لا تَليق بمكارم الأخلاق أوجب الله –تعالى– معالجة هواجس النَّاشزين قبل أن ينشزوا؛ مصداقًا لقوله تعالى: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)، أي: بمجرد أن تستشعروا أيَّها الأزواج خوفًا من هواجس نشوزِ أزواجكم فأسرعوا إليهنَّ بالمواعظ؛ وذلك حيطةً وحذرًا بما يحفظ العلاقات الزّوجيَّة من الفُرقة والضَّياع؛ وتأسّست هذه الآية على الوعظ، بمعنى: (تأسّست على موجبٍ)، وما يؤَسّس على موجبٍ لا ينتهي إلَّا بموجبٍ، وفي المقابل ما يؤسّس على سالبٍ لا ينتهي إلَّا به.

والوعظُ كونه موجبًا لا يكون إلَّا ممن له دراية بالمواعظ الحسنة إصلاحًا واستقامةً، ولا يعظك إلَّا من يهمه أمرك، وهو الذي يفتح لك أبواب النَّصائح والرَّشاد على مصرعيها؛ ليخرجك مما أنت فيه من تأزُّمات، أو ما أنت عليه من مخالفات؛ وبهذا يعد وعظ الزّوج لزوجه إظهارًا لحُسن النيَّة مع وافر الحرص على بقاء العلاقة وسلامتها.

وبما أنَّ الله –تعالى– أمر بوعظ الزّوج زوجته؛ إذن فقد أمر باحترامها وتقديرها وعدم إهانتها، والأخذ بيدها، وعدم التفريط فيها؛ وبهذا جاء

الوعظُ في الآية السَّابقة قاعدة للتعامل الحسن بين الزَّوجين، وتجنبًا للخلافات قبل حدوثها، أي: بمجرد أنّكم خفتم أيُّها الأزواج نشوزًا لزوجاتكم فعظوهنَّ (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)، ومن هنا وجب الأخذ بأمر الوعظ من كلا الزَّوجين (الزَّوج واعظًا، والزّوجة موعظة)، وفي أمرٍ آخر يمكن أن تكون الزّوجة واعظة والزّوج موعظًا.

ولأنَّ الوعظ ورد من زاوية الخوف حيطة وحذرًا فلا يمكن أن يكون الخوف سالبًا، أمَّا ما يراه البعض سالبًا فهو الجُبن بعينه، وليس الخوف في ذاته، فالإنسان كلَّما استشعر خطرًا ملأ الخوف نفسه ودفعه إلى قبول المواجهة، أو التجنُّب والتفادي، ومن ثمَّ فمخافة الله موجبة؛ لأنَّ مخافته تستوجب اتقاءه، والخوف من البرد موجبٌ؛ لأنَّه يُمكِّن من أخذ الحيطة له قبل الخروج إليه، والخوف من الإصابة بفيروس كورونا 19 موجبٌ؛ لأنَّه يُوقي من عدم الإصابة به، وهكذا الخوف من النشوز موجبٌ؛ لأنَّه يُجنّب الوقوع فيه فتنة، ومن هنا فالخوف وعي بما يجب، وأخذُ حيطةٍ وحذرٍ يُمكِّن من النجاة، أمَّا الجبناء وحدهم فهم الذين ينكسرون ويقعون في المصايد والأفخاخ.

وعليه: فإنَّ خوف الزّوج من نشوز زوجته موجبٌ لكلا الزّوجين؛ فهو موجبٌ للزّوج؛ كونه في حاجة لبقاء الحياة الزوجيّة مستقرة على المودّة والمحبة، وموجبٌ للزوجة؛ لأنَّه يخرجها من التأزم والضياع والانفلات، ويعيدها للحياة الزوجيّة الآمنة.

إذن: فبمجرد أن يستشعر الزَّوج أنَّ زوجته بدأ يدور في رأسها ما يدور من نشوزٍ؛ عليه بها موعظةً (العودة بها إلى ما يجب، وتذكيرها بمحسِّنات العلاقة الزّوجيّة ومهذبات السُّلوك من فضائل خيِّرة وقيم حميدة)؛ خوفًا وحرصًا عليها، وعلى استمرار العلاقة الزّوجيَّة مستقرة بلا منغِّصات.

قال تعالى: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)، في هذه الآية الكريمة جاء النشوز بين مفهومين موجبين: (الخوف، والوعظ) وهذا يعني: لا نشوز مع خوفٍ حذري، ووعظٍ بما يجب قبل حدوث النشوز.

والملفت للانتباه هنا في هذه الآية: ارتباط الوعظ مع الهجر في المضاجع: (فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)؛ وهذا يخالف ما ذهب إليه المفسِّرون بجعلهم الوعظ مرحلة مستقلة بذاتها، ولا علاقة لها بالهجر في المضاجع إلَّا لاحقًا، أمَّا من حيث المفهوم فالوعظ مرتبطٌ بالهجر في المضاجع ارتباط زمان ومكان (كونهما الحادثين في وقتٍ واحد)، فساعة وعظ الزَّوجة لا ينبغي أن تكون أمام مسمع أفراد الأسرة (آباء وأبناء)، بل الخلوة الأخلاقيّة للزّوجين هي مكان الخصوصيَّة الشّرعيَّة (المرقد المشترك)؛ ولهذا فالوعظ والهجر معًا في المضاجع.

ومفهوم قوله: (وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) يدلُّ على أنَّه لا هجر للزوجيَّة إلَّا في المضاجع، أي: إنَّه الهجر المقيَّد، وليس بالهجر المفتوح (في المضاجع)، ومن ثمَّ لا إمكانيَّة للعزل والمفارقة الزّوجيَّة ساعة الوعظ والهجر

في المضجع؛ ولأنَّ المضاجع جاءت قيدًا على الهجر؛ إذن الهجرُ أصبح هو الآخر في المضاجع قيدًا مقيَّدًا؛ وذلك من خلال الالتزام بقيود الزّوجيَّة هجرًا لكلا الزّوجين (قيدًا عليهما)، بحيث لا أحدَ منهما يخرج عن ضوابطها الشَّرعيَّة، ومن هنا فالمرقد قيدٌ مكانيٌّ، أمَّا الالتزام بأصول الحياة الزّوجيَّة فقيدٌ أخلاقيٌّ؛ وهذان القيدان هجرٌ للزّوج والزّوجة معًا (قيدٌ عليهما)؛ ومن هنا جاء قوله تعالى: (وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) بمعنى: قيِّدوهنَّ مكانًا في (المضاجع التي أمرتكم بها)، وقيدوهنَّ أصولًا أخلاقيَّة بالمواعظ التي تُرضيني وتجمع شملكم وتجبر خواطركم.

ولسائل أن يسأل: أين المكان الذي يجمع الزّوج وزوجته ويجعل بينهما كفَّتا الزوجيَّة متساويتان على ميزان العدل دون أنْ تميل كفَّة على حساب كفّة؟ من دون شكّ فإنَّ الإجابة: مكان الجَمع السَّرير هو (المضجع)؛ ولأنَّه المكان الجامع للزّوجين أمر الله -تعالى- به مكانًا شرعيًّا، وكذلك فهو مكان حلّ الخلافات بين الزّوجين إذا ما حدثت؛ لذا أمر الله بالهجر فيه، ولم يأمر بهجره لأيٍّ منهما (وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)؛ ولهذا فالهجر فيه قيد مُلزم بأخلاق ونواميس الزّوجيّة وفقًا لشرع الله؛ ولأنَّه كذلك فلا يليق أن تكون فيه المقاطعة والانعزال والفُرقة.

ولو أراد الله أن يكون الهجر ذا مفهومٍ سلبٍ لقال: (وَاهْجُرُوهُنَّ) دون أن تُلحق كلمة الهجر بكلمة المضاجع؛ ولأنَّه جاء على الإيجابيّة قال: (وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)؛ وبهذا أصبحت كلمة (الْمَضَاجِعِ) قيدًا للزّوجين، وقيدًا عليهما، ومن هنا فلا حلّ إلَّا في المضاجع (مكان إظهار المحبّة والبوح بها، ومكان الخلاف والتخلُّص منه).

ولذا فمعنى الهجر عند اللُّغويين، على دلالتين مختلفتين:

الأولى، تعني: الترك، والانفصال، والمغادرة، والافتراق، وإن كان في هذا المعنى من الإيجاب ما فيه، ففيه من السّلبيَّة ما هو أكبر.

الثَّانية، تعني: الوثوق، والاتصال، والتقارب، وبلوغ التمام، وفي هذه من الإيجابيَّة ما فيها.

ومن ثمَّ جاءت تفسيرات المفسِّرين لهذه الآية بناء على المعنى الذي فيه من السَّلبيَّة ما فيه، أمَّا نحن فارتأينا الأخذ بالمفهوم الموجب؛ كونه المتطابق مع مفهوم الآية ذات المعطيات والعناصر الموجبة وفقًا للآتي:

1 . الخوف في هذه الآية جاء حذرًا وحيطة ولا يكون إلَّا من باب الحرص؛ فالذي يحبُّك هو الذي يخاف عليك، والذي تحبُّه هو الذي يهمّك أمره، فهل يليق بمن يحبُّ أن يهجر حبيبه فُرقةً وانشقاقًا بمجرد ظنٍّ ليس إلَّا، ثمَّ فوق ذلك يمدُّ يده عليه إهانة وضربًا؟

2 . جاء في الآية أيضًا أنَّ النشوز لم يحدث بعد، فهو مجرَّد توقُّع، قد يحدث، وقد لا يحدث؛ ولذا لماذا تصدر أحكام الهجر السَّالبة والضَّرب السَّالب على فعل نشوز لم يحدث بعد؟

3 . الوعظ: وهو المستمدّ من المواعظ الحسنة الممكِّنة من الاتعاظ وأخذ العبر، وكذلك الحِكم الحسنة الممكِّنة من الانتباه واليقظة والعودة إلى الذاكرة، والوعظ هو كلّ الكلام الحكيم واللّيّن الذي يُروِّض الشَّاردة ويعيدها إلى ما شردت عنه.

4 ـ الهجر في المضجع، هو: الالتزام والتقيُّد بالأصول الزوجيَّة، وهو الترابط الوثيق، والاتصال، والتقارب والمشاركة في الرأي الخاصّ في مكان الخصوصيَّة الشّرعيّة (الفراش والمرقد).

ومن ثمَّ كيف يُقبل أن تكون المعطيات المنزَّلة من الله –تعالى– موجبة، وتفسيرها البشري سالبٌ بالمعطيات السَّالبة؟!

ولذا فإنَّ هَجرَ الزوجة لا يزيد عن كونه هجرَ مودَّة (قيدٌ أخلاقيٌّ)؛ ذلك لأنَّ الحياة الزّوجيَّة يهاجر إليها، ولا يهاجر منها؛ فالأبناء عندما يبنون عشّ الزّوجيَّة يهاجرون إليه من منازل آباءهم مودّة وكأنَّهم وُلدوا من جديدٍ، أو بُعثوا بعثًا.

وعليه: فمفهوم قوله تعالى: (وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) يدلُّ على هجرهنَّ بالمواعظ تقاربًا ومحبَّةً ومودَّةً ومشاركةً ولا فراقَ، بل ولا تباعد؛ ولذا فهو التقارب والوثوق بين الزّوجين اللذين تهجَّرا بالمواعظ قيدًا؛ قال جلَّ جلاله: {نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}[40]؛ إذن فعندما يكون الوعظ والهجر في المضجع هو إظهار حُسن النيَّة من طرف الزَّوج مع وافر الحرص؛ يصبح التقبُّل في نفس الزّوجة قَيدَ تسامحٍ ورغبةٍ.

ومن هنا فهجر الزّوجة في المضجع يستوجب من الزّوج أن يتقبَّلها كما هي؛ ليكون الهجر معها بداية من حيث هي (لا كما يجب أن تكون عليه)، أي: عندما تحسُّ الزَّوجة أنَّ زوجها كان مراعيًا للحالة النفسيَّة التي تمر بها، ولم يصدر ضدّها حُكمًا سالبًا، بل تقبَّلها كما هي، ووعظها بما

---

[40] البقرة: 187.

يجب أن توعظ به؛ لا شكّ أنّها ستشعر بأنَّه قد قيَّدها (هجرها) بما يجب أن تبادله به (هو كما هو)؛ أمَّا ما يجب أن تكون عليه العلاقة الزَّوجيَّة فهو المراد بلوغه هجرًا لا انفلات منه ولا نشوز؛ وهذا الأمر يستوجب حيويَّة تُمكِّن الزَّوجين معًا من بلوغ الغاية ونيل المأمول المشترك أو الفوز به.

أمَّا مفهوم الضَّرب كما جاء في الآية: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ) فجاء في سياق الاتصال والترابط الموجب، ولم يأتِ في سياق الاتصال والترابط السَّالب، أي: بما أنَّ الخوف جاء موجبًا، والوعظ موجبًا، والهجر أيضًا موجبًا، فلا إمكانيّة لأن يكون الضَّربُ سالبًا؛ ولهذا يتم الاختلاف مع تفسيرات المفسّرين الذين لم يأخذوا من معنى الضّرب إلَّا سالبه، ونسوا أنَّ اللغة حمَّالة أوجه؛ فلا يليق بأهلها أن يقصروها على معنى واحدٍ، وكأنّه لا مفهوم آخر لها إلَّا ما اجتمعت السَّلبيّة فيه والإكراه؛ وهذا الأمر جعل تفسيرات المفسّرين لمفهوم كلمة (الضّرب) وكأنَّه خالٍ من الدّلالة الموجبة التي وردت في قواميس اللغة، ومنها:

أنَّ الضَّرب يعني: معرفة البواطن (ضرب الأمور: عرف بواطنها)، وهذا بالتمام ينطبق على مفهوم الضَّرب الذي جاء في هذه الآية الكريمة، أي: بعد الموعظة الحسنة والهجر الحسن في المضجع ينبغي أن يكون الضّرب معهما في ذات المضجع، وهو وجوب معرفة ما هو الكامن في بواطن النفس عند الزَّوجة؛ حتى يتم تجاوزه إصلاحًا عن إرادة ورغبة، وهذه أكبر ضربة في صالح الزّوج عندما يعرف ما في باطن زوجته ويُصْلِحُهُ.

كما أنَّ الضَّرب يعني: إزالة القشور؛ بغاية إظهار ما يختفي تحتها، وكشف لُبِّها كما هو حال حبَّة الأرز تحت قشرتها، وهذا ما ورد في القواميس: (ضرب الأرز: قشَّره وكشف لبّه)؛ وهذا المعنى اللغوي أيضًا ينطبق بالتمام على مفهوم الضّرب الذي جاء في الآية قيد البحث، أي: إنَّ الأمر سيكون ناقصًا إذا قَصُرَ على الوعظ والهجر في المضاجع دون الضّرب في النّفس (التعمُّق فيها)، وتفتيش بواطنها التي جعلتها تكاد أن تنشز، وقد تكون المفاجأة أنْ يكتشف الزّوج بعد المعرفة وتفتيش نفس الزّوجة والتعمُّق في بواطنها أنَّه لا شيء لديها من هذا الأمر، بل كان هناك أمر آخر سببه سوء قراءتها لسُلوك الزَّوج وأفعاله، وهو الذي دفعها إلى ما دفعها إليه، وجعلها على غير توازن، وبالمكاشفة والمصارحة وإظهار البواطن ضُرب بأمر النشوز عرض الحائط وكأنّه شيءٌ لم يكن ولم يحدث.

وكذلك ورد في قواميس اللغة العربيّة أنَّ: (ضرب الشيء بالشيء: مزجه وخلطه)، وهذا يعني أنَّ الضَّرب الذي جاء منزَّلًا في الآية السَّابقة جاء بغاية الاندماج الذي لا يمكن أن يكون بين البشر إلَّا عن إرادة ورغبة، والتي من أهم وسائله: الوعظ الحسن، والهجر الحسن، والضّرب الحسن، وهذه جميعها تمزج حرص الزّوجين واتعاظهم في بوتقة الزوجيَّة نشوة ورفعة: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}[41].

وهكذا ورد في قواميس اللغة معنى الضّرب: (ضَربَ: كفَّ وأعرض، وشارك في الأمر)، وهذه من أهم المفاهيم الدَّالة على أنَّ الضّرب في هذه الآية الكريمة جاء بمعنى: بعد أن فعل الوعظ والهجر في المضاجع فعلهما

[4141] البقرة: 223.

إيجابًا ضُرب كل شيء وأصبح منتهيًا؛ ومن ثمَّ وجب الكفّ عمّا كان بين الزّوجين من شكوكٍ وظنونٍ وهواجس ومخاوف.

ومن هنا جاءت عمليّة وجوب التمسّك بالزّوجة وإشراكها في إدارة العلاقات الزّوجيَّة وشئونها نُقلةً متطوّرة ومتجدِّدة بعد الوعظ والهجر، أي: بالمنطق بما أنَّ كلّ شيء قد ضُرب إيجابيًّا وانتهى؛ فإذن أصبح التمسّك بالزّوجة ومشاركتها واجبة فلا ينبغي أنْ تغيَّب عمَّا يتعلّق بها من شئون زوجيّة؛ وبذلك تكون النتيجة: (وعظ والتزام بقيد المراقد، وانتهاء ومشاركة).

قال تعالى: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[42]؛ أي: بعد القبول موعظةً وهجرًا في المضاجع؛ حيث النشوز وقد ضُرب مع استجابة الزّوجة طاعة لا إكراه فيها، إذن فلا إمكانيّة للبغي عليها ولا إمكانيَّة لتعالي أحدَ الزّوجين على الآخر، ولا يجب أبدًا؛ إذ لا علو إلَّا لله –تعالى– إنَّه الأعلى على الكل سبحانه جلَّ جلاله.

ومن هنا يعدُّ الضَّربُ في المضاجع مشاركةً ووعظًا وهجرًا؛ كحال ضرب الوتد في الأرض ثباتًا، والذي كلّما تعمَّق في الأرض ازداد بها تمسُّكًا وازداد البناء رفعةً وعلوًّا، ومن ثمَّ كلما تعمَّق الزَّوجين كلًّا منهما في نفس الآخر وخبُر هواجسها ومخاوفها تجاوزا ما كان بينهما من مخاوف، وتمسَّك كلٌّ منهما بالآخر وتهجَّر به، أي: إنَّ المعاشرة والمشاركة قد ضَرَبَتِ الجفاء ولا أحد أعلى من الآخر، وهنا فكلمة (واضربوهنَّ) تعني: (وتمسَّكوا بهنَّ)؛

[42] النساء: 34.

ولذا فإنْ شعرت الزّوجة أنَّ زوجها قيد قيَّدها هجرًا، فهي قادرة على أن تهجره قيدًا بما هو أعظم.

ولأنَّه من الحُجَّة تولد الحُجَّة جاءت مفاهيم الآية كلُّها موجبة: (الخوف موجبٌ، والوعظ موجبٌ، والهجر في المضاجع موجبًا، والضَّرب موجبٌ، وعدم البغي وعدم التعالي موجبٌ)، أي: جاء الخوف من أجل بلوغ ما يطمئن النَّفس، وجاء الوعظ بما يرسّخ الثّقة المتبادلة بين الزّوجين، وجاءت المراقد قيدًا ملزمًا لعدم المفارقة الزّوجيَّة، وجاء مفهوم الضّرب انتهاء عمَّا سبق، وتمسُّكًا بما يجب، ومشاركةً لمن يجب، وجاء عدم البغي وعدم التعالي تواضعًا بين الزّوجين قيمًا وفضائلُ.

ومن ثمَّ فمفهوم الضّرب هنا قيمي أخلاقي (ضَربُ مكاشفةٍ ومصارحةٍ وتمسُّكٍ ومشاركةٍ وانتهاءٍ)، وهذه أكبر ضربة تواجه الزَّوجين، وبخاصّة عندما يعرف كلًّا منهما أنَّ أوراقه المخبأة قد كُشفت أمام الآخر، ومن ثمَّ ليس له من بدٍّ إلَّا فرزها وإصلاحها وضرب عرض الحائط بالمشوه منها، مع وجود أملٍ في نفس كلٍّ منهما أن يظل كلّ شيءٍ بينهما مُهجَّرًا في المضاجع، ولا يخرج عنها لأحدٍ وإن كان قريبًا (الأم والأب والأخوة، ومن يكون).

وأيضًا ورد مفهوم الضَّرب في القواميس اللغويَّة بمعنى: (ضرب الشَّريك على يد شريكه: عقد معه عهدًا)؛ ولذا فإنْ كانت ضربة على يد الشَّريك تعني: الموافقة والتأكيد على ما تمَّ التفاهم والاتفاق عليه، فكيف لا تكون هي الضّربة التي يجب أن يؤخذ بها بين الزّوج وزوجته بعد أن

كشف كلٌّ منهما للآخر أوراقه بغاية تفاهمٍ يرسّخ لمرحلة جديدة تكون أكثر ثقة من ذي قبل؛ ولهذا فالضّرب بعد الوعظ والهجر في المضاجع يفتح صفحة جديدة لميثاق أخلاقي بين الزّوجين على عدم النشوز من كليهما، وهذه الضّربة تعد الضّربة الرّابحة للطّرفين.

إذن (وأضربوهنَّ)، بمعنى: إذا أردتم إصلاحًا فلا تقفوا عند حدود الوعظ والهجر في المضاجع، بل تجاوزوه ضربًا في المضاجع، أي: (تعمّقوا في نفوسهنَّ وهنَّ في المضاجع) إلى أنْ تتمكَّنوا منهنَّ معرفة، وتكتشفوا بواطن قلوبهنَّ، ومعرفة الأسرار الكامنة وراء تفكيرهنّ نشوزًا، ومن هنا فالضّرب في المضاجع مثل الضّرب في الأرض (التعمّق في بواطنها حتى يتمّ اكتشاف كنوزها)، ومع ذلك فلا ينبغي الوقوف عند اكتشاف كنوز الأرض، بل يجب استثمارها نهضةً ورفعةً؛ وذلك بما يعود على الأسرة والمجتمع من منافع ومكاسب تؤمّن لهم الحياة الجامعة وتطمئن نفوسهم، وترتقي بهم تحضُّرًا ومعرفةً تمكِّنهم من التمييز بين ما يجب الإقدام عليه والتمسُّك به، وما يجب الضّرب عنه والكفّ.

وفي المقابل: لو كان الضّرب بالمفهوم السَّلبي كما أقرَّه البعض أو قرأه، لكانت الآية على مفهوم: (واضربوهنَّ ضربًا)، التي تلزم ضربهنَّ إلزامًا؛ بسبب الإتيان بالمفعول المطلق، ولكنَّها لم تأتِ على هذا المفهوم، بل جاءت (وَاضْرِبُوهُنَّ) دون أنْ تُلحق بكلمة (ضربًا)، ومن هنا فلا إلزام، ولا إصرار على الضّرب المحسوس، ولو كان بسواك، قال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ

فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[43]، وقال: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[44]، وقال: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}[45].

وعليه: فمفهوم الضّرب في الآية: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ) ورد بغاية استمرار العلاقة مع الزّوجة وليس بغاية قطعها، وجاء النصُّ موجَّهًا للزّوج ولم يوجّه للزّوجة، أي: إنَّ النَّصَّ قد وضع واجبات على الزّوج تجاه إصلاح الزَّوجة في حالة ما إذا استشعر منها نشوزًا؛ (فهو الخائف من نشوزها، وهو الواعظ لها، وهو المكلّف بهجرها وضربها، وعدم البغي عليها ولا يعلو أحدٌ على الآخر)؛ إذ لا علو إلَّا لله: {فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}[46].

لذا فكل هذه تعدُّ قيودًا على الزّوج، وليست بقيودٍ على الزَّوجة؛ فالزّوج ليس له بدٌّ إلَّا الأخذ بها والالتزام؛ طاعة لأمر الله؛ وإن خالف فقد عصى أمر ربّه تعالى؛ وفي مقابل هذه الواجبات التي ألقيت على الزَّوج هناك واجب على الزَّوجة؛ ألا وهو طاعة زوجها ومُرَاضاته في مرضاة الله؛ ومن ثمَّ لا ينبغي أن يَقدم الأزواج على ما من شأنه أن يؤدّي إلى الطَّلاق بمجرَّد استشعارهم خوفًا من نشوز أزواجهم؛ ذلك لأنَّ الطَّلاق حلٌ لمشكلة وليس بمشكلة في ذاته؛ أي: إذا لم تحدث الاستجابة من الزّوجين وفقًا لما تمَّ تبيانه ففرص الاحتكام لا زالت مفتوحة أمام الحكماء من كلا الطَّرفين؛

[43] الكهف: 29.

[44] يونس: 99.

[45] الطلاق: 2.

[46] النساء: 34.

مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}[47].

ولأنَّ أمر النعت أو الظَّن بالنشوز ليس هينًا جاءت الواجبات كُلُّها على عاتق من نُعَتَ به ألا وهو (الزَّوج)؛ ولهذا لا وجوب للطلاق أبدًا؛ ومن يتخذه ذريعة لمجرد الخوف من النشوز قبل حدوثه فقد خالف أمر الله وعصاه؛ ولذلك جعل الله من الخوف أخذ حيطة، وأوجب الوعظ إيقاظًا للذاكرة وأخذَ عِبَرٍ، وجعل الهجر في المضاجع تماسكًا وعدم تفريط ورابطة بين الأزواج عُراها لا تنفصم، وجعل الضَّرب تحصينًا للزّوجةِ من الضّياع والفراغ اللذين إذا ما ألمَّ بها قد يؤدّيان إلى نشوزها، كما أوجب عدم البغي عليها من بعد الطاعة؛ إذ لا مظالم.

وباستقراء هذه المتغيرات الخمسة يلاحظ أنَّ جميعها وردت موجبة، ولا سلبيّة تلاحقها: (الخوف، والوعظ، والهجر في المضاجع، والضرب، وعدم البغي) كلُّها وردت بغاية استمرار العلاقات الزّوجيَّة وسلامتها من الضياع؛ أي: لماذا الخوف؟ ولماذا الوعظ؟ ولماذا الهجر في المضاجع؟ ولماذا الضرب؟ ولماذا عدم البغي وعدم التعالي؟ كلّها من أجل التخلُّص من المخيف واستمرار العلاقات الزّوجيَّة آمنة.

إذن: لا يمكن أن يكون فعل الضّرب موجبًا ما لم يكن فاعله ومفعوله موجبين، أي: إذا كان الزَّوجُ طائعًا لأمر الله فلا بدّ أن يكون خائفًا على

[47] النساء: 35.

زوجته، ويكون لها واعظًا وهاجرًا في المضجع، وضاربًا عليها حصنًا من الرعاية والعناية؛ من أجل حياة زوجية خالية من الهواجس والمخاوف؛ ولهذا فمفهوم واضربوهنَّ: (وحصِّنوُهنَّ بكم)؛ ذلك لأنَّ الزَّوجة لا تُحصّن إلَّا بزوجها فإنْ كان لها حصنًا مانعًا كانت له حصنًا منيعًا، أي: إذا ضرب الزّوج حصنه على زوجته ضربت زوجته حصنها عليه، ومن ثمَّ فلا فرصة للنشوز.

ولأنَّ مفهوم الضَّرب ورد بدلالة التَّحصين فقد جاء منسجمًا مع مفاهيم الخوف والوعظ والهجر في المضاجع؛ فعلى سبيل المثال: لو لم نخف من الفيروسات ما بحثنا عن أمصالٍ تُحصّن عن الإصابة بها، ولو لم يحصّن الوعظ عن الانفلات والانحراف ما أمر الله به، وهكذا يحصّن الهجر في المضاجع عن المهاجرة عنها، وكذلك بالتمام عندما يضرب الزَّوج حصنه على زوجته (يتحصّن بها سندًا وتتحصَّن به سندًا)، وفي المقابل إذا أهملها ولم يضربها بحصن الرّعاية والاهتمام فلا استغراب أن نشزت.

ومع أنّ مفهوم الضّرب عند عموم النَّاس سالبٌ فنحن نرى كل كلمات الضّرب التي أمر الله بها في القرآن الكريم ذات مفاهيم ودلائل ومعانٍ موجبة دون أيّ استثناء؛ قال تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}[48]. هنا جاء مفهوم الضّرب وفعله ومفعوله موجبات؛ إذ لا سلبيَّة، أي: إنَّ تنفيذ فعل الضّرب للحجر لا ألم ولا مواجع فيه من قبل الفاعل (موسى عليه الصَّلاة والسَّلام)؛ لأنَّ الحجر لا يشعر بالضّرب، وكذلك كان الفعل المترتب على

[48] البقرة: 60.

الضرب موجبًا وهو انفجار العيون (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا)، وكذلك كان المفعول موجبًا؛ ليروي الماء ظمأً (اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ).

ولأنَّ الله -تعالى- لا يأمر بسالبٍ؛ قال: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[49]، ضَربُ البحر بالعصا ليس كما يظنّه البعض وكأنَّه ضربُ دابَّة، بل مجرَّد الإيماء بها والإشارة إلى الاتجاه المراد عبوره يكفي لانفلاق البحر، أو انبجاس الماء من الحجر أو انفجاره؛ ولأنَّ فعل الضرب هنا متعلّق بالبحر، وضَربُ البحرِ لا مواجع ولا ألم فيه كان الفاعل والفعل والمفعول موجبات مرغوبة ولا سلبيّة فيها.

ولذا فالضّرب في معظمه خالٍ ممّا يؤلم، سواء أكان ضربُ مُثُلٍ، أم ضربٌ في الأرض، أم في سبيل الله، أم ضربُ حجر، أم بحر؛ ولهذا ينبغي أنْ يؤخذ مفهوم الضّرب بعمومه وشموليّته من خلال النصّ أو الآية المنزَّلة، ومن ثمَّ إذا قَصُرَ مفهومه على معنى كلمة (ضرب) منفردة؛ لأظهر للكلمة معنى يعاكسها ويخالفها دلالةً ومفهومًا.

وعليه: فأين أولئك الضّربة من هذه الآيات الكريمة التي أمر الله بها؛ ومن ثمَّ ألا يكون الضَّرب من أكبر أعمال الإكراه واحتقار الآدميَّة الإنسانيَّة إذا ما وظّف سلبيّة؟ ثمَّ إذا ضُربت الزَّوجة بما هو مُهين، إلّا يعني ذلك أنَّها ستقاضيك أمام الله -تعالى- يوم لا ضرب ينفعك، وتقاضيك أمام القوانين والشَّرائع المحرّمة للضّرب الذي مُنع حتى عن الحيوانات؟! وكذلك كيف

[49] الشعراء: 63.

للإنسان أن ينام آمنًا مطمئنًا مع من ضربه كرهًا؟! وكيف ترى نفسك أمام أبنائك -إنْ كان لك أبناء- وأنت قد ضربت أمَّهم أمام أعينهم ضربًا؟! وكيف ستكون العلاقة الزّوجيَّة وعنصرها الحاسم للأمر الضّرب الشوارعي؟! هل ستكون أسرة قادرة على ضبط أبنائها على القيم الحميدة، أم إنَّها ستعتمد في تربيتها على الشّوارع؟

وإذا أخذنا بالحديث: "مُروا أولادكم بالصّلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع"[50]، فهنا جاء مفهوم كلمة (ضرب) موجبًا أيضًا؛ فاضربوهم عليها معناها: عوّدوهم على عدم فراقها أو عدم مفارقتها، ووثِّقوا علاقتهم بها؛ وشاركوهم الصَّلاة في أوقاتها؛ لتكون أمامهم فرص التعلُّم جنبًا إلى جنبٍ مع فرص ترسيخ الإيمان طاعة لله وأمره؛ ولذا فلا إكراه في الدين، ومن يرى غير ذلك لا يزيد أمره عن كونه واهمًا ليس إلَّا.

وهنا جاء فعل الالزام متعلّقًا بالآباء وليس بالأبناء؛ لذلك فإنَّ تعليم الأبناء وتعويدهم على ملازمة الصَّلاة واجب على الآباء وأولياء الأمور؛ ومن ثمَّ ينبغي أن يجعلوا أبناءهم من سنّ العاشرة ملازمين لهم أوقات الصَّلاة كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ حتى يتعوّدوا عليها وبها يتمسّكون ويلتزمون؛ كونها من المعتقدات التي يُضرب عليها، بمعنى: من ضرب على الشّيء شبَّ عليه وتجذَّر كما تتجذَّر الأشجار ضربًا في الأرض لترتفع

---

[50] رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (2/ 554).

جذوعها وتعلو، ومن ثمَّ ينشئُ الأبناء على الصَّلاة تنشئة بها تمارس من قِبلهم عن إرادة ورغبة، وهم بها متمسِّكون معتقدًا ضاربًا في نفوسهم إيمانًا.

ولأنَّه لا ضرب سلبيّ للأبناء على الصَّلاة جاء الحديث بنصٍّ: (مُروا أولادكم بالصّلاة) ولم يأتِ بالنَّص: (وأمروا أولادكم بالصَّلاة)؛ وللتمييز بين مفهوميهما أقول: الأولى جاءت مخفَّفة؛ كونها الدَّالة على اللِّين، أمَّا الثَّانية فلا تكون إلَّا وأوجه التشدُّد والقسوة من بعدها آتية (لاحقة عليها)، ومن ثمَّ لو كان الحديث بالنّصِّ: (وأُمروا أولادكم)؛ لكان فعل الضّرب المترتّب عليها (ضربًا مادّيًّا) وهذا ما تفاداه الحديث بحذف حرف الهمزة (أ) والإتيان بكلمة (مروا) من دون حرف الهمزة، مع العلم أنَّ أصل الكلمة (أأمروا) ولكن هنا حُذف حرف الهمزة (أ) بغاية عدم الأخذ بالأفعال المترتّبة على كلمة (أمروا) التي تستلزمُ تشدُّدًا وقسوةً وسلبيَّةً، أي: جاء الحديث مخفّفًا؛ حتى لا يذهب المفسّرون وهمًا إلى الأخذ بالضّرب العقابي؛ وذلك حرصًا على ترسيخ أفعال الترغيب التي تُمكِّن الأبناء من الصّلاة محبّة وإرادة، ومن هنا دلَّ الضَّرب في هذا الحديث على معنى رغّبوهم على الصَّلاة، ولا تُكرِهوهم عليها.

ومع أنَّ البعض قد يقول: إنَّ هذا الحديث ليس بالصّحيح فإنَّه لا يستطيع أن يقول إنَّه ليس بحسنٍ، ومع العلم أنَّ صياغة هذا الحديث فيها من المغايرات ما فيها.

وعلى كلّ الأوجه فإنَّ الضّرب الذي ورد في قوله تعالى: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ) جاء مفهومه

موجبًا ولا سلبيَّة تلحقه، وهكذا جاء مفهوم الضّرب في الحديث الحسن موجبًا ولا سلبيّة تلحقه، ومن ثمَّ فلمْ يبق أمام الواهمين إلَّا كسر أوهامهم بأنَّ الضَّرب لا يكون إلَّا على الإكراه سلبيَّة وشدَّةً وإذاءً وقسوةً.

ومن هنا فإنَّ مفهوم كلمة واضربوهنَّ ورد بمعنى: وحصِّنوهنَّ، واندمجوا في هُنَّ اندماجًا لا يكون من بعده شيئًا مخفيًّا، وتمسَّكوا بهنَّ؛ إذ لا نشوز من بعد أنْ يتحصنَّ بكم مودة.

وعليه: فإنَّ ستَّ متغيِّرات رئيسة تمركزت عليها مفاهيم الآية 34 من سورة النساء: (الخوف، والوعظ، والهجر في المضاجع، والضَّرب، وعدم البغي من بعد الطَّاعة، وعدم الاستعلاء) وبقراءة كلّ متغيّر من هذه المتغيرات الستة والتمعُّن في مفهومه نجده متماثلًا مع مفاهيم المتغيرات الأخرى.

أي: لقد جاء مفهوم الخوف بمعنى أخذ الحيطة والحذر، وكذلك جاء مفهوم الوعظ بدلالة أخذِ الحيطة والحذر، وهكذا جاء مفهوم الهجر أخذ حيطة وحذر، وأيضًا جاء مفهوم الضّرب بغاية الحيطة والحذر، وكذلك ورد مفهوم عدم البغي أخذ حيطة وحذر، وبالتمام جاء مفهوم عدم الاستعلاء أخذ حيطة وحذر؛ ومن هنا فكلّ الدلائل موجبة، ولا وجود لوهمٍ ودليلٍ سالبٍ.

وإضافة إلى ما سبق فإنَّ كلّ مفهوم من المفاهيم الستةِ جاء قيدًا على بقيّة المفاهيم، وبهذا يعد الخوف قيدًا عليها كلّها (كلّها بأسباب الخوف حيطة وحذرًا) كما جاء الوعظ أيضًا قيدًا على الخوف (وَاللَّاتِي

تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ)، أي: بما أنكم تخافون نشوزًا؛ إذن ليس لكم إلّا الوعظ (وهذا قيد لا مفرَّ من الالتزام به)، وكذلك جاء الهجر في المضاجع قيد خوفٍ ووعظٍ، وهكذا بالتمام جاء الضَّرب قيد حرص وحيطة وحذر على الهجر والوعظ والخوف؛ أي: إنَّ الضرب كونه تحصيل حاصل الحرص والحيطة والحذر فلا يكون إلَّا من جنسها (حرصًا وحيطة وحذراً)؛ ولهذا فاضربوهن وردت بمعنى: (وحصّنوهنَّ بكم تحصينًا)، وكذلك جاء مفهوم عدم البغي، وعدم التعالي من جنس المفاهيم الأربعة السَّابقة قيدَ تواضعٍ وحرصٍ وحيطةٍ وحذرٍ.

وعليه:

فإنَّ مفهوم كلمة الضّرب ورد في القرآن الكريم على كلِّ الأوجه موجبًا؛ وذلك لترسيخ فضيلة خيّرة وقيمة حميدة، وليكسر وهم بغيٍ، أو تعالٍ بغير حقٍّ، ولِكسر ما يُعبد من دون اللهِ من معبودٍ؛ كما فعل سيِّدنا إبراهيم -عليه السَّلام- بتلك الأصنام؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}[51]، ومع أنَّ كلمة اليمين تدلُّ على معانٍ كثيرة فإنَّ مفاهيمها تؤكّد على كلِّ ما من شأنه أنْ يؤدِّي إلى موجبٍ؛ ولهذا تيمّنَ النّبيُّ إبراهيم -عليه السَّلام- بما يؤكِّد واحديَّة الله -تعالى- فضرب الأوثان فكسَّرها؛ فراغ (فمال) على الأصنام ضربًا بداية من اليمين إحصاء حتى خَلُصَ منها دون أن يستثني صنمًا.

[51] الصافات: 73.

ومن هنا حدث فعل الضّرب؛ لكسر سالبٍ بفعلٍ موجبًا، وهو كسر ما لم يشعر بالضّرب (الأصنام) بيدي إبراهيم الذي يشعر بسلبيّة نفسه إن لم يقدِمْ على تحطيم الأصنام التي تُعبد من دون الله: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ}[52]؛ وهكذا هي العلاقة في حالة تضادٍّ بين أفعال حقٍّ وأفعال باطلٍ، وتلك هي العلاقة بين الأفعال السَّالبة والأفعال الموجبة.

ولأنَّ القاعدة تقول:

. إنَّ الله لا يأمر بظلمٍ: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}[53].

. إنَّ الله لا يأمر بالعدوان: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[54].

. إنَّ الله لا يأمر بالقتل ظلمًا: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}[55].

وعليه: فالقاعدة تقول: إنَّ الله لا يأمر بسالبٍ أبدًا: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}[56]؛ ولهذا يُعد الضَّربُ الحسيُّ للزَّوجة سيئة؛ لأنّه لا يتم إلَّا كرهًا في الوقت الذي قال فيه الله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[57]، ولا يكون إلَّا

---

[52] محمَّد: 3.

[53] الطلاق: 1.

[54] البقرة: 190.

[55] الإسراء: 33.

[56] النساء: 79.

[57] البقرة: 256.

لتقليل شأنٍ مع عدم التقدير لما أمر الله به: {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}[58].

ولأنَّ الزّوجة مقدّرة من الله تعالى؛ فقال بغاية رفعة شأنها: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً}[59]، وجاء التنزيل بقوله: (فاجلدوهم) ولم يأتِ بقوله: (فأضربوهم)، ومن هنا علينا أن نميّز بين الجلد الذي لا يكون إلَّا محسوسًا؛ حيث لا لبس في ذلك، والضّرب الذي لا يكون إلَّا على الدّلالة (دلالة المفهوم) المستهدف إصلاحًا أو حلًّا، أو مواجهة مع قتلة معتدين.

ولذا فقواعد جمع الشَّمل وجبر الخواطر كما هو الحال بين الزّوجين تختلف عن قواعد الاقتتال والعدوان؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}[60]، أي: فمن يأتي إليكم معتديًا ليقتلكم فيما أنتم عليه من حقٍّ؛ فليس لكم إلَّا مقاتلته؛ ولهذا يعدُّ هذا الضّربُ من القتال موجبًا؛ كونه يصون كرامةً، ودينًا، ووطنًا؛ ومن ثمَّ: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}[61]، وتعني كلمة (ضرب الرِّقاب) التمكّن منها وإصابتها؛ لأنَّها أدقُّ مكانًا لتنفيذ فعل القتل في القتلة؛ وذلك حتى لا يتاح لهم المزيد من فرص القتل ظلمًا وعدوانًا، ومع أنَّ المسلمين لا يحبُّون القتال،

---

[58] البقرة: 187.

[59] النور: 4.

[60] البقرة: 193.

[61] محمَّد: 4.

بل ويكرهونه؛ فَإِنَّه إذا ما كتب عليهم لا يعدّونه إلّا من أجل نيل الحياة: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}[62].

الجزيةُ تكسرُ الوهم:

مع أنَّ مفهوم الجزية لغة مستمدٌّ من معنى الجزاء؛ فإنَّ الجزاء لا يكون إلَّا على احتمالين: احتمال المكافأة على الفعل الحسن، واحتمال المعاقبة على الفعل السيئ، ومن ثم فإذا نظرنا إلى مفهوم الجزية بدلالة واحدة فلا إمكانيَّة لمعرفة مفهومها؛ ذلك لأنَّ مفهوم الجزاء منكَّرٌ؛ فأيُّ جزاء تعني؟ أتعني: المعاقبة على الفعل السيئ، أم تعني المكافئة على الفعل الحسن؟ وفي المقابل مفهوم الجزية ليس بمنكَّرٍ.

الجزيةُ هي الجزية كما أُنزلت وحيًا منزَّلًا؛ فهي تجمع مفهومي الجزاء في الفعل الواحد في الوقت الواحد، فالجزية ليست بمكافئة خالصة الحُسن، ولا بعقاب خالص الإساءة، ولم تكن مَنزَلة بين المنزِلتين (مجهولة الهويّة)؛ ولهذا جاءت في القرآن مُعرّفة: (الجزية)، ولم تأتِ منكَّرة (جزية)، فهي كما جاءت بدلائلها المحدّدة تنزيلًا: تُعطى من قِبل الذين أُتوا الكتاب، وفي دلالتها مفهوم اعترافيّ متبادل: (اعترف بي، أعترف بك، وإن أنكرت وجودي، فلا تنتظر مني اعترافًا). فهي أوَّلًا: اعتراف أهل الكتاب والتزامهم بضوابط الدّولة الإسلاميَّة، وثانيًا: اعتراف الدّولة الإسلاميَّة بحريّة ممارسة المعتقد وأمن النَّاس بلا فوارق.

---

[62] البقرة: 216.

ولذا جاءت الجزية حلًّا لكسر وهم الخوف الذي كان حائلًا بين من خَسِرَ الرِّهان ومن كسِبهُ، فالذي خَسِرَ رهان المعركة اقتتالًا أصبح الخوف يملأ قلبه على: (نفسه، وذويهِ، ودينه، وما يملك)، فكان ردُّ المنتصر (السَّلام)، الذي لا اصطناع في إعطائه؛ ذلك لأنَّه عنوان الإسلام في الدولة.

وبهذه المنحة كُسِرَ الوهمُ وفُرجت كُرب الخائفين، وقَبِلوا بدفع الجزية عن يدٍ (عن إرادة) والاطمئنان لم يفارق قلوبهم.

ولأنَّ السَّلام عنوانُ الدَّولة، فالدَّولة الإسلاميَّة لا تقاتل من لا يقاتلها، قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[63] ماذا تعني هذه الآية الكريمة؟

مما تعنيه: إذا انتصر المسلمون في قتالٍ كُتب عليهم، أو استسلم لهم العدو فعليهم أنْ لا يقاتلوهم إذا قبلوا إعطاء الجزية، إي: عدم مقاتلة كل هؤلاء الذين ذُكرت صفاتهم في هذه الآية إذا أعطوا الجزية، بمعنى: في حالة ما إذا كُتب عليهم القتال كرهًا قاتلوا من يقاتلهم ويعتدي عليهم، وعندما يُحقِّقون النَّصر فلا إكراه في الدين؛ ولهذا جاءت الجزية حلًّا، وليست عقابًا.

ومع أنَّ البعض يعتقد أنَّ مفهوم الجزية مقتصرٌ على الإسلام فإنَّ البعض يعرف أنَّ ورودها بهذا المفهوم قد عُرف في الديانات السَّابقة وبخاصّة

---

[63] التوبة 29.

المسيحيَّة؛ ولهذا جاءت الجزية في الإسلام حلًّا بما يعرفه المستهدفون بها، أي: جاءت المخاطبة القرآنيَّة للذين أُتوا الكتاب بما لا استغراب فيه؛ وهو: إعطاء الجزية كما يعرفونها، وفي هذا الشَّأن ورد في إنجيل متَّى المحاورة الآتية: ماذا تظن يا سمعان؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية، أمِن بنيهم أم مِن الأجانب؟ قال بطرس: مِن الأجانب. قال يسوع: فإذًا البنون أحرار"[64].

ولأنَّه لا إكراه في الدّين، قال تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ}، ولم يقل: {حتى تؤخذ الجزية}؛ ذلك لأنَّ كلمة: (خُذ) آمرة (فعلها أَمْرٌ)، وفي المقابل كلمة: (يُعطوا) إراديَّة ولا أمر فيها؛ ولهذا أفعال كلمة (يُعطوا) غير مترتِّبةٍ على أفعال الاستعطاء من أحدٍ؛ إذ في أفعال الاستعطاء ترجٍّ وتوسُّلٍ، فيه من تقليل الشَّأن ما فيه، أي: إنَّ إدارة الدّولة الإسلاميَّة في عصرها لا تستعطي الجزيّة من الذين يتعلّق أمرها بهم استعطاءً، بل إن إقرار الجزية من عند الله جاء حلًّا لمشكلٍ، ولو لم تُقرّ لكانت أفعال الترجي والتوسُّل والاستجداء مِن قِبل مَن كُتبت عليهم بما لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم.

ولهذا فالأفعال المترتِّبة على كلمة (يُعطوا) أفعال إرادية وفقًا للواجبات التي ينبغي أن تؤدَّى تجاه الدّولة المسلمة.

ولأنَّ الله تعالى قال: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[65]؛ إذن فلا إمكانيَّة للإكراه وتقليل الشَّأن، إلَّا إذا كان هناك من

---

[64] إنجيل متى، الإصحاح 17، الآيات: 24-25.

[65] البقرة 256.

يريد مخالفة قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[66]، أي: بما أنَّ مشيئة الله جعلت الإنسان مخيّرًا فيما ليس فيه تسيير، فلماذا تميل عقول البعض إلى الإكراه وتقليل شأن من خلقه الله في أحسن تقويم؟! بمعنى: لماذا الله يقول: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[67]، وفي المقابل هناك من يخالفه، وكأنَّه مصدر الحُجَّة فيتصرَّف بما يخالف النصّ! (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ). الله تعالى قال: (صاغرون) ولم يقل (مستصغرون) فلو قال: (مستصغرون) هنا لم يُعطوها إعطاءً بل تؤخذ منهم أخذًا وهم أذلة صاغرون كما جاء في مفهوم الآية الكريمة: {وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}[68].

والفرق بين مفهوم (صَاغِرُون) في سورة التوبة وسورة النّمل هو أنَّ في سورة التوبة جاءت: (عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)، وفي سورة النَّمل جاءت: (أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)، وبالمقاربة بين المفهومين يتّضح الفارق الكبير بين (عن يدٍ) أي: عن مقدرة وإرادة، و(أذِلَّةً) أي: قهرًا واستصغارًا واستحقارًا.

وعليه: فإنَّ مفهوم (صَاغرون) في سورة النَّمل يدلُّ على تقدير الذين يُعطوا الجزية عن يدٍ (عن مَقدِرة وإرادة) لمن أعطاهم تقديرًا واعترافًا، وهو المنتصر (الدّولة الإسلاميّة) التي جعلتهم على التخيير بين الإسلام أو إعطاء الجزية، في الوقت الذي فيه المنتصر بإمكانه أن يُملي شروطًا تُقلِّلُ من شأن

---

[66] يونس 99.

[67] الكهف 29.

[68] النمل: 37.

المهزوم وتُكرهه على ما لا يُحب. ومن ثمَّ فإنَّ مفهوم صاغرون كما جاء في سورة التوبة هم المعترفون بدفعها، وهم الذين عندما يجدون طيب المعاملة تنكسر نفوسهم؛ احترامًا للدِّين وأهله، ومن ثمَّ عندما يأتون ليعطوا الجزية فإن أنفسهم تستشعرُ عظمة المعاملة؛ فتستحي عرفانًا بالفضل، ومن ثمَّ لا سلبيَّة في (صَاغِرُونَ)، بل الإيجابيَّة تملؤها تقديرًا وعرفانًا.

إذن: فمفهوم قوله تعالى: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) هو: حتى يعطوا الجزية عن مقدرة وإرادة وهم راضون مع وافر الاحترام، ومع أنَّه لا إكراه في الدين، فإنَّه لا بد وأن تعطى، ولأنَّه لا بد وأن تعطى فكان إعطاؤها عن إرادة كفيل بنفي الإكراه عنها.

ولأنَّ الحكمة من إعطاء الجزية نيلُ التقدير والاعتراف المتبادلين فإنَّ مُعطيي الجزية عن مقدرة وإرادة إذا كُتِبَ قتالٌ على المسلمين فإنَّهم معفون من المشاركة فيه؛ ذلك لأنَّ الدِّين الإسلامي (الرِّسالة الخاتمة) لم يكن دينهم حتى يقاتلوا عنه، وهذه من الفضائل الخيِّرة التي تجعل من مُعطِيي الجزية صاغرون أمام هذا العفو العظيم الذي أُقرَّ لهم.

كما أنَّ مفهوم قوله: (عَنْ يَدٍ) يستثني من لا يدَ له (لا مقدرة له)، مع استثناء المرأة وكل الأطفال؛ ولهذا لم تؤخذ أبدًا الجزية من هؤلاء في زمن إعطائها؛ فكانت لا تؤخذ إلَّا من القادرين ووفقًا للاستطاعة؛ حيث لا إكراه، ولا قيد يحدد قيمتها أو مقدارها، ولا زمن، ومن ثمَّ فلا اشتراطات من قبل المنتصر، بل المنهزم بإمكانه أن يستوضح أمره ومستقبله كما استوضح أهل الشَّام من أبو عبيدة بن الجراح بعد أن استجابوا لدفع الجزية

بأن يحميهم من الروم فَقبِلَ أبو عبيدة شرطهم، ولكن بعد أن استعادت جيوش الرُّوم بقيادة هرقل بلاد الشَّام أرجع لهم أبو عبيدة ما أعطوا من جزية[69].

ومع أنَّ زمن إعطاء الجزية كان زمن الدِّفاع عن الدّين، وليس الدِّفاع عن الدّولة، فقد كان للجزية علاقة بتنظيم إدارة الدّولة وشئونها، فمثلها مثل الزكاة والضَّريبة، مع أنَّه لكلٍّ منها حكمة؛ فالحكمة من إعطاء الجزية صون الأديان والأرواح والممتلكات مع الاعتراف المتبادل بين الأنا والآخر، وصون أمن الدّولة، أمَّا الزكاة فالحكمة من ورائها تطهير الأموال والممتلكات، والأنفس وهي تؤتى وتؤدَّى فريضة إسلاميَّة، وفي المقابل تدفع الضّريبة؛ كونها من الواجبات الوطنيَّة.

ومن ثمَّ فإعطاء الجزية متمركز على الاعتراف والتقدير المتبادلين، فهي عندما يقول أحد الأطراف: إنَّها حقٌّ لي. يقول الطّرف الثاني: إنَّها واجب عليَّ؛ ولهذا فلا مصغرانيَّة وتقليل شأن في إعطائها، ولا في أخذها، مع أنَّ كفّة الاستحياء عند إعطائها رفيعة، ولا ترجحُ إلَّا إرادة واعترافًا بفضل الحماية والرّعاية، أي: لا يمكن أن يقرّ الإسلام الاعتراف بدين الغير ويصغّر أهله تحقيرًا وإذلالًا، وبما أنَّ الدّولة الإسلاميّة قبلت بحريّة أداء العبادات فلا يمكن لها أن تقبل بتقليل شأن أهاليها.

[69] علي حسن الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة: ص 72.

أي: كيف يحقُّ لنا أن نستصغر الإنسان ونقلل من شأنه، والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}[70]، قال الله تعميمًا: {بَنِي آدَمَ} ولم يقل تخصيصًا: (المسلمين)، والتكريم هنا جاء بمفهوم التعظيم والتفضيل للعموم، ومن ثمَّ جاء إقرار الجزية قيمة رمزيّة بغاية: (تبادل قيمة الاعتراف والتقدير)، ولحلّ معضلة الإذلال والاستعباد التي كانت في تلك العصور سائدة بأسباب الحروب والاقتتالات، والتي تجاوزها عصرنا بممارسة حقوق المواطنة وأداء واجباتها.

ومع أنَّ لكل عصرٍ معطياته السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والاجتماعيَّة فإنَّ ذلك الزّمن الذي كانت الجزية فيه تُعطى، كانت العدالة لا ترى شيئًا يُقدَّمُ على قيمة الإنسان إلَّا الدّين؛ ولهذا فالعلاقات بين الدّول به تتأسَّس، وعليه تفترق، أمَّا الاقتصاد الذي أصبح اليوم هو المتغيّر الرئيس فلا حرب ولا اقتتال ولا نهضة إلَّا به ومن أجله، ومن ثمَّ فلا قيمة للإنسان إلَّا من بعده.

إذن: وجب علينا أن نفرّق بين عصرٍ رأسُ ماله قيمة الإنسان، وعصرٍ رأس ماله قيمة المال؛ فالعصر الذي كان رأس ماله قيمة الإنسان كانت رسالته تحرير العبيد وتعظيم شأن الإنسان، أمَّا العصر الذي أصبح رأس ماله تعظيم المال، فإنَّ رسالته لا تزيد عن كونها استصغارَ مَنْ لا رأس مال له.

---

[70] الإسراء: 70.

ومن هنا وجبت المقارنة بين دلالتين، وفقًا لكلمتي: (صاغرون) و(مستصغرون)، فالصَّاغرون هم الذين أعطوا الجزية عن مقدرة وإرادة وهم متماثلون مع من يدفع الزكاة في وطنه، ومع أنَّه في ذلك الزّمن كان إعطاء الجزية يعفي عن القتال عن الدين فإنَّه كان لا يعفي عن الدِّفاع والقتال عن الوطن؛ ولذا فلا إمكانيّة للاستصغار، وفي المقابل المستصغرون من قِبَلِ المعظّمين لرأس المال لا خيار لهم إلَّا قبول الاستصغار أمام تعظيم قيمة المال على حساب قيمهم.

نظريّة الأوهام الأربعة عند بيكون:

فرنسيس بيكون فيلسوف إنجليزي (1561 _ 1626م) معروف بقيادته للثّورة العلميَّة بفلسفة قائمة على الملاحظة والتجريب؛ وذلك بنظرته إلى العلوم التي لا تضيف جديدًا على أنّها لا تزيد عن كونها واهمة.

وهو يرى أنَّ المعرفة ينبغي أن تثمر في أعمال وأنَّ العلم ينبغي أن يكون قابلًا للتطبيق في الصّناعة، بهدف تحسين أحوال النَّاس ونهضتهم، وهذا يتطلّب منهجًا ينظم الفكر بحيث يجعل المعطيات مؤدّية إلى نتائج، والتسليم بدون حُجّة لا يزيد عن كونه وهمًا، وقسَّم بيكون الأوهام التي تسيطر على عقول البشر، وتمنع تقدّمهم إلى أربعة أنواع[71]، كالآتي:

– **أوهام القبيلة**: وهي التي تصيب الذّهن عندما تخيّم عليه سُحب الانفعالات والرَّغبات، فالنَّاس لديهم استعداد لأن يعتقدوا فيما يرغبونه؛

---

[71] فرنسيس بيكون، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، (ترجمة: عادل مصطفى)، بيروت: مؤسّسة هنداويسي، 2017م، ص 136.

ولذلك يستعجلون ولا يتأنون في البحث، ومن ثمَّ يندمون على وقائع حقيقيّة توجد وراء آمالهم، أضف إلى ذلك بلادة الحواس، وعجزها، وخِداعها.

هكذا نحن نرى أنَّ التقدُّم لا يمكن أنْ تبنيه العاطفة، والتسليم بالمسموع والأخذ به والاحتكام إليه، بل بلوغ التقدّم والنّهضة الحضاريَّة لا يكونان إلَّا بالعقل الواعي الذي لا تقوده أوهام الماضي المسموعة، التي لم تترك بين يديه حقيقة أو أثرًا نافعًا؛ ولهذا فأوهام القبيلة تعتمد على الأخذ بالمسموع وتتغنى به وهو في حقيقة أمره لا يزيد عن كونه وهمًا؛ إذ لا حُجّة.

– **أوهام الكهف**: وهي خاصّة بكل إنسان فكلٌّ منَّا يعيش في كهف صغير، أو يعيش في مغارته الخاصَّة، وله طريقته الخاصّة في التفكير، وهذه ترجع إلى التربية، والعادات، والظروف؛ ولذلك نجد البعض يغالي في التشابهات بين الأشياء، في حين يغالي البعض الآخر في الاختلافات بينها، ويحب بعضهم القديم بإفراط ويحترمون السَّابقين، في حين أن بعضهم أسرى لما هو جديد من كل نوع.

وأوهام الكهف هي أوهام التمركز على الأنا وكأنَّه مركز العالم، ومع أنَّه لم يكن كذلك ولن يكون فإنَّ الفرد لا يرى سبيلًا للمعرفة إلّا بما يتهيّأ له معرفة وتفسيرًا؛ ولهذا يجد نفسه بين مخالفٍ للغير ومختلف معه، ولا يهمه التصويب والتصحيح وتغيير المواقف، ومثل هذه الشخصيَّة كمن توحَّد الوهم فيه، أو كمن توحَّد مع الوهمِ.

– **أوهام السُّوق**: حيث يتقابل النَّاس ويتفاهمون لغةً؛ إذ الكلمات أصلها في عقل الإنسان العادي، وفي معظم الأحيان لا تكون مناسبة لبحثٍ علمي دقيق، فتكون النتيجة أنَّ النَّاس يتجادلون حول كلمات يعجزون عن تعريفها بطريقة مناسبة؛ كونهم ورثوها من آراء غامضة من الماضي، وكذلك فهي تتعلّق بالمثقَّفين الذين يغلب عليهم استخدام الألفاظ المؤثرة على الفكر، ومنها تولد الإشاعات.

إنَّها أوهام العامّة من النَّاس الغافلين عن معرفة الحقيقة، فهؤلاء لا يهتمون بتأصيل والدّليل والحجَّة بقدر ما يهتمون بالسّرد وأساليب الاستخدام المعتادة والمألوفة.

4 – **أوهام المسرح**: وهي تلك المتسربة إلى عقول النَّاس من عقائد الفلسفات المختلفة، وما علق بها من مغالطات جعلت من الحياة مسرحًا لعرضها عبر التَّاريخ، بما فيها من مخالفة للواقع وما يجب حياله، وحتى الفلاسفة التجريبيين السَّابقين على بيكون، يرى بيكو أنَّه كان ينقصهم المنهج العلمي؛ إذ كانوا يقومون بعمليّة التعميم من تجارب ضئيلة جدًّا، تاركين خيالهم يجمح[72]؛ ولذا فأوهام المسرح ناتجة عن معتقدات خرافيَّة، ولها علاقة بالتقليد والتصديق الخطأ.

وهنا جاء المسرح بمعنى: ما يجري على أرض الواقع بين النَّاس لا يختلف عن المسرح الذي يقف على خشبته الممثلون في محاولة لنقل الفكرة التي ارتأها المؤلّف أو كاتب النصّ، مع لمسة فنيّة من المخرج، ومع أنَّه لا

[72] المصدر السابق، ص 173 - 174.

بدَّ للخيال أن يتمدَّد بأريحيته على خشبة المسرح فإنَّ الخيال لا يكون إلّا وهمًا خارج جدران الحقيقة.

ويصنّف بيكون معرفة العلوم المؤدِّية إلى النَّهضة وفقًا للآتي:

الذَّاكرة: وموضوعها التَّاريخ؛ كونه مخزن الوثائق التي تتحصَّن المعلومات فيها، والمعارف التي لها شواهد وأدلة، والتجارب التي تركت أثرًا، فهذه هي الذاكرة الواعية، أمَّا ما يأتي عن التّاريخ بغيرها فعلاقته مع الوهم وطيدة.

المخيّلة: وموضوعها الشِّعر الذي يجسّد الأحداث ويصوّرها ملاحم ويحفظها من الضّياع، ومع ذلك في الشِّعر من الظّنون ما فيه؛ ولأنَّ المخيّلة مرآة العقل فيفترض أن تعكس الحقيقة هي كما هي، وعندما تكون كذلك يصبح الشّعر وثيقة من وثائق المعرفة.

العقل: وموضوعه الفلسفة الممكِنة من التجريب الممكِّن من إظهار الحقيقة وكشف الزَّيف عنها؛ فالعقل التجريبي لا يسلم إلَّا بحجّة ودليل، وهذا لا يعني قصور العقل على التجربة فقط، بل التذكُّر والتفكُّر والتدبُّر والتطلُّع في معطياته لكسر الوهم؛ ولهذا فالإنسان لن يستطيع أن يفهم الطبيعة ويتصدّى لتفسير ظواهرها إلا بملاحظة أحداثها بحواسه وفكره.

ومن هنا ينتقد فرنسيس بيكون القدماء؛ لاكتفائهم بالتّأمل النَّظري حول الطبيعة دون أن يعنوا بملاحظة ظواهرها، والفلسفة الحقة عنده يجب أن تقوم على أساس من العلم، المستند على نتائج الملاحظة والتجربة، مع احترام الواقع الحسي والذهني في التخطيط ورسم السّياسات؛ وبهذا فقد

استبدل بيكون منهج البرهان القياسي بمنهج الكشف الاستقرائي الذي يتطلَّب:

تطهير العقل من كل الأحكام السَّابقة، والأوهام والأخطاء التي انحدرت إليه من الأجيال السَّالفة.

ردّ العلوم إلى الخبرة والتجربة وهذا يتطلّب معرفة المنهج القويم للفكر والبحث، وهو ليس إلا منهج الاستقراء؛ كونه وسيلة الوصول إلى المعرفة العلميَّة الصَّحيحة.

أوهام قاتلة:

بدأت أساليب الوهم في الظهور مع الحياة الآدميَّة وبخاصّة يوم الإغواء الذي فيه أَوقع بأبينا آدم في المعصية؛ ذلك لأنَّ الواهم لا يعرف الوهم إلَّا ساعة الوقوع فيه، وهكذا سيظل مع بني آدم حتى قيام السَّاعة، وهكذا سيكون الكل معرض للوقوع فيه مكائد ودسائس، وهو بالتمام مثل فيروس كورونا 19 من لا يأخذ حذره لا بد وأن يصاب به؛ فخذوا حذركم.

وعبر التَّاريخ كل الصِّراعات والنزاعات والاقتتالات سواء أكانت سياسيّة، أم اجتماعيَّة، أم اقتصاديّة، أم دينيَّة من ورائها أوهام قاتلة إلَّا المدافعون عن الحقِّ قتالهم لا وهم فيه.

والوهم إن لم تقتله يؤدّي بك إلى الفتنة والقتل، ثمّ يقتلك، حتى في عصور الأنبياء والرُّسُل الكرام كان الوهم ظانًّا أنَّه القادر على مواجهة

رسالاتهم وقهرهم، ومع أنَّه ينكسر في كلِّ مواجهة فإنَّه ينهض من جديد وكأنَّه لم يُلقَّن درسًا.

وسيظل الحال هكذا مواجهات بين بني الإنسان اختلافًا وخلافًا وصراعًا بين الحقِّ والباطلِ؛ لسببين رئيسين:

الأوَّل: التخيير: الذي لا يكون إلّا عن إرادة، أمَّا التسيير فلا خيار فيه.

الثاني: عدم الاتعاظ: الذي لا يكون إلّا عن تدبُّر مع أخذ عبرٍ من التَّاريخ.

ومع أنَّ الوهمَ يؤدّي إلى المهالك فإنَّه يعطي للحقيقة أهميّة ومعنى، أي: من دون الوهم ما عرفنا قيمة الحقيقة، وهذا لا يعني أنَّ الحقيقة استمدت قيمتها منه، بل الوهم الذي لا يستمد إلَّا من واهم يعطي للحقيقة قيمة كلّما غُيِّبت عمّن يأملونها.

والوهم لا علاقة له بالقيم والأخلاق، بل من مهامه كسرها كلّما جُبرت، حتى وإن كانت بين المرء وزوجه، والأخوة والأقارب فما بالك مع الأباعد والمنافسين على الكراسي السُّلطانيَّة.

ولذا فالوهم يتمدّد مع تمدّد العصور، ويتنوّع ويتلوّن بأنواع الشّعوب وألوانهم، وأكثر عصور ساد الوهم فيها (عصور الجاهليَّة)؛ حيث ساد الوهم عقول الجبابرة والطّغاة وملّاك الأراضي بأنَّهم المفضلون على من لا يكون طاغيًا ومتجبّرًا، حتى انهزم البعض ورضي بالعبوديّة بأسباب الحاجة والقهر فأعلن الطَّاعة لمن ساد عليه، فأصبح العبد واهمًا بأهميّة إخلاصه لسيده،

وفي المقابل أصبح سيده واهمًا بأنَّ العبد ليس له بدٌّ إلا الإخلاص، فكانت النتيجة أنْ وُلدت تقيّة العبد وهمًا، في مواجهة وهم سيده جموحًا؛ ولذا فإنْ ظنَّ السّيد بأنّ العبد مخلصٌ معه فقد وهم، وإن ظن العبد أنَّ سيده وفيًّا معه فقد وهم. وبقيت هذه المعضلة وكأنَّها ناموسٌ من نواميس الحياة الإنسانيّة، حتى جاءت الرّسالة السّماويّة المحرّضة على تحرير العبيد؛ ومع ذلك كان صراع الأوهام على أشده، وسيظل هكذا مستقويًا حتى يُكسر.

الوهمُ بين الواقعِ والحقيقة:

الواقع وجود الأشياء هي كما هي سواء أكانت مُرضِية للبعض أم غير مُرضِية، مُقنعة أم غير مُقنعة، وقَبِلَ مَنَ قبِل واعترض مَن اعترض، ومنها ما هو قابل للاستقراء والاستدلال والملاحظة والمشاهدة، ومنها ما هو علم يقين تسليمًا، ومع ذلك ليس كل ما يستدل به أو يستدل عليه حقيقة تؤخذ، وصفحات التّاريخ كفيلة بذلك؛ حيث حملت لنا أحداثًا وكأنَّها قطعٌ من فسيفساء الفن، وهي في حقيقتها لا تزيد عن كونها أوهامًا، وقد سبق لها وأن أضلَّت الكثيرين.

ولنبحث مع دوران عقارب السَّاعة إلى الخلف فيما قاله بعض المفكرين والفلاسفة بين وهمٍ وحقيقة، وهم يصوغون أفكارهم وفلسفاتهم وعلى رأسهم:

أوهام ميكيافيللي:

إنَّه المفكر الإيطالي الذي قال في كتابه (الأمير): يجب ألَّا تكون الأخلاق هي الموجّه للسّياسة، ويجب على الأمير (الحاكم) أن يستخدم كل الوسائل وفقًا لقاعدة: (الغاية تبرر الوسيلة)، وفي الوقت الذي يكون فيه الأمير يخطب حبّ الشّعب ينبغي أن يكون الشّعب يخافه، ومن الأفضل أن يخافه النَّاس من أن يحبونه، ولا داعي أن يكون الأمير صاحب ضمير، ولا شريف، والصّعوبة أن يحاول الأمير تحرير شعب هو راضٍ بعبوديته فهذه لا تختلف عن أيّ محاولة لاستعباد شعبٍ حرٍّ[73].

نعم، إنَّه المفكر لسياسة أدارت بعض دول العالم كما رآها بلا أخلاق، ونعم، إنَّ أفكاره قد غزت الكرة الأرضيّة انتشارًا، وأوَّل العقول التي غزتها واستقرّت فيها وهمًا هي عقول أولئك المتآمرين على أنظمة مستقرّة كانوا فيها جنودًا، فحكموا بأفكار الأمير أمراء إلى أن غرّهم الوهم عندما صدّقوا أنفسهم أنّهم بحقٍّ هم الأمراء؛ فظلوا على أوهامهم حتى انكسرت بثورات الشّعوب وانكسروا.

أوهام ديفيد هيّوم:

ومن المفكرين الذين دارت عقولهم وهمًا بين الحقيقة والواقع الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم الذي قال في دائرة الوهم:" كيف نقول الله عادل والحياة توجد لنا الحاجات والمواجع؟! ويقول: من العدل أن

[73] نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ترجمة: محمد لطفي جمعة، بيروت: دار الرافدين، 2017م، ص 213 _ 261.

تكون الحياة سعيدة ولكن لأنَّها مشاكل، إذن لا يجب أن يكون هناك حساب في الآخرة"[74].

مثل هذه الأفكار وإن كانت بالنّسبة للمسلم فيها من الاستغراب ما فيها؛ فإنَّه لا استغراب فيها عند غير المسلم، ولأنَّه لا إكراه لمن خُلق في أحسن تقويم فإنَّ وجوب الحوار والتجادل مع الأفكار المتخالفة أولى بالجدل مع الأفكار المتطابقة والمتماثلة؛ ولهذا أقول: لو أُعطيت لك هديّة عظيمة تجعلك وأبناءك على قيد الحياة ما دمتم أحياء؛ فهل من الأولى أن تشكر من أعطاك الهديّة، أم إنّك تلتفت إلى غيره وأنت تعيش في نعيمها لتقول: ما يضايقني أنَّي كلّما أشبع وأبنائي من الهديّة أكلًا يعقبنا من بعدها جوعٌ، فنعود ثانية وثالثة إليها فنأكل وهكذا، حتى ساد الخلاف بيننا على كيفيّة الأخذ منها، ومواقيت الإشباع وأساليبه؛ إذ بعضنا في صحوته متعةٌ يجني أكلًا، وبعضنا في نومه لا يجد ما يأكل، ومع ذلك جاءه الرّد لو لم يكن الجوع مملكة ما كنت بالهديّة أنت وأبناءك ملوكًا، ولكن ألا يحق لك أن تساءل أبناءك: لماذا في نومهم لا يجدون أكلًا؟ فإن سألتهم وحاسبتهم على ذلك ألا تظن بعد يقظة منهم أن يقولوا لك: فإنْ كان لا مفرّ من المساءلة، ألا يكون من الأولى أن يسألنا ويحاسبنا الذي أعطانا الهديّة فيها أحياء متساوين؟

---

[74] ديفيد هيوم، محاورات في الدين الطبيعي نفائس الفلسفة الغربية، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، القاهرة: 2017م، ص 57.

أوهام إخوان الصّفا:

إخوان الصّفا وخلان الوفا هم جماعة من فلاسفة المسلمين من أهل القرن الثالث الهجري والعاشر الميلادي، وهم أصحاب نزعة فكريّة متمركزة على وهمٍ: (دمج الفلسفة بالدين)، أي: دمج ما أُنزل بما لم ينزل؛ وهنا الوهمُ يكمن كما تكمن العلّة في المعلول؛ وذلك لأنَّ كمون العلة يفسد المعلول كما تفسد الحشرة الضارة الثّمار في أشجارها، وحتى إن التمس البعض لهم عذرًا؛ كونهم لا يقصدون من وراء ذلك دمج النصوص، فإنَّهم لا شك يهدفون من ورائه دمج الأفكار في مرامي النصّ، وبالتّالي وجب تغيير أوهام الواقع الخطأ بالحقيقة الصَّائبة.

فإخوان الصفا مع أنَّهم من المعجبين بالفلسفة اليونانيَّة، وفلسفة بوذا، بل الفلسفة بشكلٍ عام فإنَّهم أصحاب فكر ولهم من الآراء ما لهم، من خلال دعوتهم لتوحيد أهل الأديان الموحدة، مع عدّهم الصائبة دينًا سماويًّا، ومنها تأثرت أفكارهم.

وكان من أوهام إخوان الصّفا الأخذ بالتُّقية في مواجهة الواقع بالحقيقة؛ ولهذا كان تنظيمهم سرّيًّا، بل هناك من وصفهم بأنَّهم أوَّل تنظيم سياسي في العالم الإسلامي عند ظهورهم بالبصرةِ؛ إذ كانت طريقة دعوتهم استقطابيّة انتقائيّة، ويفضلون استقطاب من في أنفسهم شكّ، ويرون دعوة المتعلّم أيسر من دعوة الجاهل، والشّباب أيسر من الكبار؛ وهذا الأمر جعل البعض يشير إليهم بأنَّهم أصحاب سياسة وليسوا من أهل الفكر، مع إعطائهم المبرر؛ خوفًا من قمع السّلطان، إلى جانب الخوف من العلماء الذين لا يرون وجود علاقة بين الفلسفة والدين.

ومع أنَّ لإخوان الصفا شيئًا من الوهم فإنَّهم أصحاب رأي، ولهم من الأفكار المستنيرة ما لهم، وبخاصّة حرصهم على تنقية الدين من المفاسد التي عشعشت فيه بأوهام السُّلطان الفاسد.

واتهمهم البعض بأنَّهم من أهل الشيعة الإثني عشريّة في الوقت الذي لم يكونوا فيه كذلك، فهم كانوا يرفضون فكرة الإمامة أصلًا، ولا يؤمنون بوجود الإمام الغائب (المهدي المنتظر)، كما أنَّهم كانوا يقدّرون الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ومع ذلك اتهموا بالزّندقة من قِبل أهل السُّنة مثل ابن تيميّة.

ومن أكبر أوهام إخوان الصّفا عدم مخالطة النساء وعدم الإصغاء إليهنَّ؛ وبذلك فهم يقللون من قيمة المرأة وشأنها، وكأنَّها لا تساوي شيئًا يذكر في الدولة، في الوقت الذي هي فيه تساوي نصف مجتمع الدّولة.

وكان تنظيم إخوان الصّفا السياسي طبقيًّا صرفًا؛ إذ قسّموا أنفسهم إلى أربع مراتب (طبقات):

1 _ مرتبة الإخوان الأبرار من (15 سنة – 30 سنة)، وهم أصحاب النفوس النقيَّة.

2 _ مرتبة الإخوان الأخيار من (30 -40 سنة)، وهم أصحاب الشفقة والرّحمة على الإخوان.

3 _ مرتبة الإخوان الفضلاء من (40 – 50 سنة)، وهم أصحاب حل المشاكل سلمًا.

4 ـ مرتبة التشريف (من الخمسين إلى ما فوق) وهم الذين انكشفت لهم الحقيقة الألوهيّة[75].

أقول: نعم، إنّها المراتب التي تمركزت على الوهم من ألفه إلى يائه؛ حيث ميّزت بين المواطنين بعقل يميل إلى الفلسفة والسّياسة والآراء القاصرة على حساب الدين وفضائله الخيّرة؛ ومن ثمّ فإنّه من الممكن التعرّف على الله يقينًا، ولكن الله لم يكن حقيقة لينكشف أمره، بل الله هو الحق المطلق الكاشف لكل حقيقة وأمر؛ ذلك لأنّ الحقيقة لا تكون إلّا من أثر الشيء سواء أكان مجرّدًا أم محسوسًا، والحقيقة لا تكون إلّا علّة أو معلولًا أو سببًا ومسببًا، أو معطيات ونتائج؛ وهذه ليست الحق (الله) ومن هنا التصق مفهوم الوهم عند إخوان الصفا بعدم مقدرتهم التمييز بين الحقِ الذي لا ينكشف إلّا به، والحقيقة التي بالبحث تنكشف، ويتم التعرف على عللها وأسبابها ومكامن اختفائها أو ظهورها.

من أوهام فرعون:

ومع أنّه عبر العصور ثقة الواهم في الوهم عالية، فإنّ الوهم مع الواهم لا يفي بعهده؛ وهذا ما حدث مع جميع الواهمين وعلى رأسهم فرعون الذي كان واثقًا ومتحدّيًا بأوهام السّحر في تحدّي الحقيقة ومن أتى بها بيّنة كما هي بين يدي موسى عليه الصّلاةُ والسّلامُ، ومع أنّ وهم فرعون قد انكسر وبطل أمام أعين المشاهدين بما فيهم السّحرة، فإنّ تكبُّر فرعون ظل واهمًا؛ فذات مرّة جاءه هامان زائرًا فلم يقابله في ذلك اليوم؛ بعلّة أنّ فرعون

[75] فرج السواح، طريق إخوان الصفا، القاهرة: دار علاء الدين، 2008م، ص 21 = 67.

مشغولٌ فرجع هامان وجاءه في يوم التَّالي فقابله فرعون وقال: أمس كنت مشغولًا بخلق الابن، فقال هامان: (على هامان يا فرعون) بمعنى: نحن نعرف بعضنا جيدًا فأنت أيّها الصديق الواهم تعرف أنّي أنا هامان الذي يعرف حقيقة الأمر؛ إذ لا مقدرة لك على ذلك حتى وإن اتفقنا على غيرنا وهمًا؛ ولهذا ظل فرعون على أوهامه حتى أماته الوهم غرقًا، وهكذا كان قارون في زمانه واثقًا في الوهم حتى خُسفَ به والوهم أرضًا[76].

ومع أنَّ السّحر لا يزيد عن كونه وهمًا وقد استخدم بشكل واسع في عصور الجاهليّة فإنَّه سيظل حيًّا مع حياة بعض الواهمين الذين لم تستنر عقولهم بنور الله، إلى أن يُكسر وينكسروا.

أوهام رفض الآخر وآرائه:

مع أنَّه من الطبيعة الإنسانيَّة أنَّ الإنسان اجتماعي بطبعه فإنَّ روح الأنا لا تفارقه في كثير من الأحوال، ومن هنا وُلدت الإشارات والنّعوت بين النَّاس: (أنا، وأنت، وهم، وهنَّ، ونحن، وأولئك)، ثمَّ وُلدت العصبيّة فكان الخلاف والاختلاف فروق تميّز بين مَن ينام على صوابٍ، ومن يصبح على خطأ، ومن يقف عند حدوده، ومن يتمدد على حساب حدود الغير وهمًا، ومن هنا أصبح الخوف من أجل الحياة ضرورة لا ينبغي الإغفال عنها، وسجلات التّاريخ مليئة بدروس الاتفاق والوفاق والخلاف والاختلاف وقبول الآخر ورفضه، ولنّأخذ من التّاريخ محطات ترفض الآخر، ومنها:

[76] خالد علي موسى، فرعون وموسى، القاهرة: مكتبة النافذة، 2017م ص 94 – 172.

أوهام المعتزلة:

هذه التسمية ظهرت على أثر حادثة عندما كان حسن البصري في أحد دروسه وحواراته؛ فكان الخلاف بينه وواصل بن عطاء في مجلسه العلمي في الحكم على مرتكب الكبيرة، وكان الحكم أنَّ مرتكب الكبيرة فاسق وليس بكافر. وتقول الرّوايات: إن واصل بن عطاء لم ترقه هذه العبارة، وقال، هو في: (منزلة بين المنزلتين)، أي: لا هو مؤمن ولا كافر، وبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري، وكوّن لنفسه حلقة دراسيّة فأطلق الحسن البصري على ذلك الانشقاق عبارة: (اعْتزَلنا واصل)[77].

إذن فمؤسّس هذه الفرقة هو: (واصل بن عطاء) وآخر زعمائها (الزمخشري)، وبدأت في أواخر القرن الأوَّل الهجري، وأصبحت مدرسة في بداية القرن الهجري الثَّاني، وقد تأثر المعتزلة بالفكر الفلسفي اليوناني، وكانت لهم آراء وبخاصّة تجاه أهل الحديث، فكان الخلاف معهم ورفض آرائهم بهذه العلّة، التي بها تعرّضوا للاضطهاد والمطاردة، بل للتكفير في عهد المتوكل الذي كان يميل لأهل الحديث والحنابلة[78].

وكان الخلاف ورفض الرأي بين الحسن البصري وواصل بن عطاء على مرتكب الكبائر؛ حيث يرى الحسن البصري: (مرتكب الكبائر فاسق)، والحاكم الفاسق ليس بكافر، ولا يخرج عليه إلّا إذا كان هناك من

---

[77] عبد الجبار، القاضي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد السيد، تونس: الدار التونسية للنشر، 1974م ص 162.

[78] عبد العزيز مجدي سيد، الموسوعة في أعلام الدنيا طبعة3.القاهرة: مكتبة الآداب، 2012، ص 128 – 267.

هو أفضل منه، أو لم يتم التمكّن من الخروج عليه؛ لأنَّه يقول: (لا إله إلّا الله)، ولا خروج عليه ولو سرق مالك[79].

ومع كل الاحترام للرأي الآخر فإنَّ القبول بالحاكم حاكمًا، ولا خروج عليه ولو سرق مالك، ولو كان فاسقًا لمجرد أنَّه يقول: (لا إله إلَّا الله)، أقول: يصعب على العقل الإنساني أن يقبله، وإنْ قَبِله البعض بهذه العلّة فلن يفارقه الوهم.

ففي الدّول غير المسلمة لا يُقبل بالحاكم الفاسق أبدًا، ولا يُقبل بالسّارق أن يكون رئيسًا، وإن أصبح سارقًا بعد انتخابه يُسقط به أرضًا، فما بالك بأنْ تكون مسلمًا، وتقبل باستمرار الحاكم الفاسق والسَّارق، أو حتى تبرّر بقبول الحاكم الفاسق والسّارق؟ وبخاصّة أنّك تعلم أنَّ الفاسقين هم من يحكمون بما لم يُنزل الله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[80].

وكذلك تعلم أنَّ المنافقين هم الفاسقون؛ ولأنَّ المنافقين هم الفاسقون الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، إذن هل يليق بنا أن نروّج لمن لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر بأن يستمر حاكمًا ولو سرق أموالنا وفسق عن أمر ربّه؟ قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ

[79] أحمد بن عثمان، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1963م ص 158.

[80] المائدة 47.

يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[81] .

ولأنَّ المنافقين هم الذين يُظهرون ما لا يبطنون، ويقولون ما لا يفعلون، وهم بما يبطنون يفسقون فكيف نكون لهم أنصارًا، والله قال فيهم: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[82]؟ ألا تكون هذه الآية الكريمة كافية لعدم مناصرتهم طاعة لأمر الله؟!

وكيف لنا أن نقبل ونبارك استمرار الحاكم الفاسق السَّارق الفاقد للمصداقيّة بأن يستمر حاكمًا، والله عزَّ وجلَّ ينبئنا وينبهنا بعدم الثّقة في الفاسق حتى وإن لم يكن حاكمًا؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[83].

بل كيف لنا أن نرضى بالتَّسويق والترويج للحاكم الذي لا تتوافر فيه صفات الحاكم العادل التي منها: اتقاء الله ومخافته في الكبيرة والصغيرة، وأن يكون عادلًا، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وألا يكون كاذبًا ولا فاسقًا، وأن يكون عاقلًا أمينًا؟ فمثل هؤلاء هم من قال الله فيهم: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ

---

[81] التوبة 67.

[82] النساء 145.

[83] الحجرات: 6.

الْفَاسِقِينَ}[84]، وبما أنَّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين فهل يليق بالمسلم المؤمن أن يضع نفسه في المواضع التي لا يرضى الله عنها؟

أمَّا واصل بن عطاء فقد أسّس مقولة: "المنزلة بين المنزلتين" ومعناها: أنَّ مرتكب الكبيرة ليس بمسلم ولا كافر، ولكنَّه في منزلة بينهما، وإذا مات ولم يتب عن كبيرته فهو مخلّد في النّار[85].

إن تحليل مقولة واصل بن عطاء (المنزلة بين المنزلتين) تدلُّ على أنَّه اعترض، ولا تدل على أنَّه أتى بحلٍّ للمختلف عليه، أو المختلف فيه، أي: لم يحدّد واصل ما هو الشيء الذي يقع أو ينزل بين منزلة الكفر والفسق، بمعنى: لم يحدّد صفة بيّنة لمن يقع بين المنزلتين التي يريد واصل بها أن يهجِّن الفكر الإسلامي بخلطة مجهولة الهويّة (النتيجة).

ولذا فالقول بالمنزلة بين المنزلتين يعدُّ أمرًا وقد غلب عليه الوهم فجعله غير محسوم بعد، وهذا ما لا يقبله العقل من مفكّر متمكّن من اللغة وأهميّتها في تحديد المفاهيم وحلّ المعضلات.

وعليه: عندما تكون الدَّولة دينيّة أو متأدلجة على فكر شخص بعينه، أو طبقة بعينها فأمر الرأي الآخر لا مكان له إلّا المطاردة وإلباس صاحبه ما لم يكن قد لبسه، وهذه لا تكون إلّا بعلل أوهام القمم السُّلطانيّة التي تستوجب الكسر؛ كي يتمكّن الخائفون من كسر حواجز الخوف والتمرد على الجُبن.

---

[84] التوبة: 96.

[85] عبد الجبار القاضي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد السيد، تونس: 1974، الدار التونسية للنشر، ص 229.

أوهام في عهد الرّشيد:

في عهد الخليفة هارون الرشيد اختار أحد البرامكة (أخوه من الرَّضاعة جعفر بن يحيى البرمكي) وهو فارسي الأصل رئيسًا لحكومته الذي من بعد تولّيه مكَّن كثيرين من البرامكة من إدارات الدّولة، حتى استقووا وأوهمتهم أنفسهم بأنَّ الخليفة هارون لم يعد قادرًا على إخراجهم من إدارة دفَّة أمور الدّولة، التي كان من المتوقّع أن تولى الخلافة فيها للسّيد موسى الهادي (أخُ الخليفة هارون الرشيد)، ولكنَّه قتل بوهمٍ قبل الولاية.

كان حبُّ هارون الرشيد لأخيه من الرضاعة كبيرًا جدًّا، وكان والد أخيه يحيى البرمكي من الرَّضاعة معلِّمًا لهارون الرّشيد، وكان له ولدان أحدهم جعفر الذي أصبح رئيسًا للحكومة، وحاكمًا للمغرب من الشَّام إلى تونس، والابن الثّاني الفضل الذي أصبح حاكمًا للمشرق في الدّولة العباسيَّة؛ ولهذا تمكّنت الأسرة البرمكيّة الفارسيّة تحت مظلّة الخليفة هارون الرّشيد الذي حال الوهم بينه وبين ما يجري من وراء عينيه، وفي المقابل كان الوهمُ قد أقنع عقل تلك الأسرة البرمكيّة بأنَّ الخليفة هارون الرشيد لم يعد مخيفًا، بل أبدى لهم الوهم أنْ لا ينفِّذوا أوامر الخليفة إلَّا فيما يخدمهم ولا يمكّن آخرين.

ويقال ذات مرّة: جاءه شاعر فأقرضه شعرًا فأمر بإعطائه مكافئة على ذلك (ثلاثون ألف درهم)، ولكن عندما استحضر المبلغ استكثره الخليفة؛ فقرّر ارجاعه فقال له من حوله: استكثرت هذا على شاعرٍ، ويحيى البرمكي (أبو جعفر رئيس الحكومة وحاكم المغرب من الشّام إلى تونس، وأبو الفضل حاكم المشرق في الدّولة العباسيّة) قد بنى قصرًا في بغداد خلال

سنة فقط بعشرين مليون درهمٍ! فدسَّها هارون في نفسه، وبعد يومين جاءه الشَّاعر فقال لهارون: لم استلم شيئًا يا خليفة المسلمين، وقال بيتا شعر لعمر بن أبي ربيعة:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرّة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

فأخذ هارون يردّد في نفسه ما سمع من شعرٍ: (إنَّما العاجز من لا يستبدِ)، وزد على ذلك عندما كان الخليفة هارون في طريقه إلى أداء فريضة الحج، فكان كلما شاهد شيئًا جميلًا ورائعًا يسأل، فيقال له: إنَّها لبرمكي.

عاد من الحج واليقظة من الوهم تفتح أمامه ما لم يكن يعرفه، وإلى جانب ذلك الغضب يملأ صدره من الوهم الذي ألمَّ به من تلك الأسرة البرمكيّة، فكسر وهمه بالانقضاض عليها بلا رأفة، فقتل منها من قتل، وسجن من سجن.

هكذا هي دائمًا نهاية الواهمين، ومع ذلك سأل الفضل والده وَهُمَا في السّجن قبل تنفيذ أمر الإعدام فيهما: يا ابتي ماذا حلَّ بنا؟ فأجابه: لعلَّها دعوة مظلوم سرت بليلٍ غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها)[86]. نعم، إنَّها كلمة حقّ بعد صحوة من وهم لا فرصة للنجاة من بعده، وهكذا هي الأيام قابلة لترويض الطُّغاة وكسر الواهمين.

[86] الألوكة (المجلس العلمي)، ا 17 مارس 2012م – العدد 15972

وهمُ الخيالِ وأساطيرهُ:

في تلك الأزمنة الأسطوريَّة كانت الثّقافة شفويَّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من أوهام البطولات الكلاميَّة بغير بطولات ما فيها.

ففي ذلك الزَّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف؛ حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنَّه الدّليل والحجّة في الوقت الذي لا يزيد عن كونه وهمًا مجرَّدًا ليس إلَّا، وهذا ما يخالف تفسير العقل والمبدأ الذي يعتمد على الحُجّة والدّليل والشّاهد والبرهان المتوافر بين أيدي المتحاورين أو المتجادلين، مع الأخذ بالمكتوب الموثّق؛ كونه مصدرًا من مصادر المعرفة الموثوقة. فتفسير العقل والمبدأ حقيقة تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنَّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي: (مقدمات ونتائج صادقة)؛ وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها فهو من الواهمين الذين يفسّرون الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسًا لوجهة نظر المفسّر؛ ولهذا فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمَّا النتائج فتفسّر؛ ولذا فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج؛ فنتائجه غير موثوقة؛ لأنَّه لا يزيد عن كونه تقديم وهمٍ على حقيقة، وهذا بالتمام حاله كحال من يُقدّم التفسير على التحليل.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على الإقصاصّ (الحكي) الشفوي الإغرائي مع سيطرة الخيال الواهم غفلة عن الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيَّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعيَّة أو في المعامل والمختبرات؛ ولهذا فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد الوهم مع الحقيقة.

ومع أنَّ التفكير الأسطوري قد طويت صفحاته ثقافة وحضارة، ولكنَّ عقول بعض العباد ما زالت على مقربة منه، وهنا تكمن علّة الخيال الواهم، وبخاصّة عندما يحكي الإنسان عن نفسه وكأنّه البطل الوحيد، المتمكّن من خوض المغامرات والصّراعات متى ما حدثت، ومن ثمّ؛ فالأنا يتخيّل ما يتراءى له كيفما يشاء، ويقصص ما يشاء، في الوقت الذي لا تكون فيه قصصه على علاقة بالواقع ومن ثمَّ لا تزيد عن كونها مرتبة من مراتب الوهم.

وهذا الأمر يتعارض مع الفِكْر العلمي الذي يكشف العلل بما ينتجه من معارف متجاوزة لذلك الوهم المتخيَّل، من خلال حُسن التدبّر والتفكير في المستقبل، والعمل على صناعته بدلًا من المحكي وهمًا؛ ومن ثمَّ انكشف اللثام عن تلك المعلومات التي كان بعض النَّاس يظنّها ثوابت الوجود، وهي: الماء الذي قال عنه طاليس: (إنّه أصل الوجود)، والنّار التي قال عنها إقليدس: (إنّها أصل العالم)، وغيرهما قال: إنّ أصل العالم: (هواء وتراب) ثمّ اكتشف أنّ العقل هو القوّة المحرّكة لعناصر الوجود الأربعة.

أمَّا نحن فنقول:

إنَّ وراء كلّ مخلوق خالقًا؛ فلا الماء، ولا النّار، ولا الهواء ولا التراب أصل الوجود، بل الوجود أساسه خالق، وهنا ينبغي أن نميّز بين الوجود، ومن أوجده (بين الكون ومن كوّنه)؛ فالوجود ظهور ما لم يسبق له وجود إلى حيّز المشاهدة والملاحظة، أمَّا الموجد: (المكوِّن) فهو من بيده أمر الكينونة.

ولهذا فالماء الذي قِيل عنه: أصل الوجود، لا يزيد عن كونه جزءًا من وجودٍ أعظم، وهكذا النَّار والهواء والتراب؛ فهي جميعها لا تساوي إلّا جزءًا يسيرًا من المخلوق الكوني الذي تغلب عليه الظلمة والفراغ والمجرات والطّاقة.

ومن هنا؛ فالماء لا يكون إلّا لاحقًا لسابق: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، أي: إنَّ الماء لاحق لوجود السّماوات والأرض؛ فلو لم تكن السّماوات والأرض ما كان الماء، الذي جاء لاحقًا بغاية إحياء الشيء المراد إحياؤه في: (التراب)، ومع ذلك ليس كلّ التراب؛ فهناك من الكواكب والنّجوم الترابية ما لا ماء فيها؛ إذ لا قابليَّة للحياة إلى أن يشاء الله.

ولأنَّ الماء لا يكون إلّا لاحقًا على الشيء، خلق الله آدم وزوجه خلقًا من تراب، ثمّ بعد ذلك تزاوجا؛ فكانت النّطفة ماء الحياة المستمدّ من الشيء السّابق عليها: (آدم وزوجه) {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا}. أي: خلق من آدم وزوجة ماء: (نطفة)؛ فخلق منها بشرًا، وهم

السّلالة التي جاءت من النّطفة التي لو لم يكن الزّوجان ما كانت، وهكذا جعل الله الأحياء من الماء: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، قال: (وجعلنا)، ولم يقل: (وخلقنا)؛ فالجعل يتعلّق بما هو مخلوق، أمّ الخلق؛ فهو إيجاد ما لم يكن قد خُلق؛ ولهذا فالأشياء المخلوقة هي في حاجة للماء؛ لتكسب حياة وحيويّة ونشوء وارتقاء، وهذا يدلّ على وجود الأشياء أوّلًا، ثمّ جعل الماء فيها مُبعثًا للحياة والنّمو، ومن ثمَّ فكل ما يخالف ذلك يعد وهمًا.

إذن: فعندما يقول طاليس: إنَّ أساس الوجود الماء فهو كمن يقول: لا عناصر للوجود سوى: (الهيدروجين والأكسجين) وعندما يقول إقليدس: إنّ أصل الوجود النّار فكأنه يقصر الوجود على: (العناصر الغازية والكربونيَّة)، وكذلك عندما يقول الفيلسوف اليوناني أنكسيمنس: إنَّ أصل الوجود الهواء وكأنّه يقول: قد اقتصر الوجود على عناصر الهواء التي هي: (مجموعة من الغازات المختلفة)، وهكذا يرى الفيلسوف اليوناني أكزينوفانوس: إنَّ أصل الكون هو تراب الأرض التي لا تكون إلّا جزيئًا من الوجود العظيم. ومن هنا، يلاحظ أنَّ المدرسة الطبيعيَّة تُرجع الوجود الكوني إلى المادّة، في الوقت الذي فيه الوجود الكوني لا يقتصر عليها، فهو كما قدّره بعض العلماء الفيزيائيين يحتوي على 5% مادة عاديّة كالنّجوم والكواكب والغازات والغبار الكوني، 25% مادّة مظلمة لم تكتشف بعد، ثمَّ أنَّ 70% طاقة مظلمة، وبهذه الحقيقة الفيزيائيّة التي أثبتت أنَّ أكثر من 90% ليست بمادة فكيف لنا بقبول المادة أصل الكون ونسبتها في الوجود

الكوني لا تزيد عن 2% في الوقت الذي فيه اللاشيء شيء عظيم متجاوزًا لما نسبته 98% من الخلق الكوني؟![87].

ولهذا؛ فالوجود الكوني لم يكن مقتصرًا على الوجود المادّي سواء أكانت المادّة: (ماءً، أم نارًا، أم هواءً، أم ترابًا، أم أنّها مجتمعة)، بل الكون مبنيّ على معطيات تتعدّد ويصعب عدّها، سواء أكانت طاقة، أم مجرّات، أم فراغًا وظلمةً، أم نجومًا وكواكبًا، وهذه جميعها تتمدّد بين المستحيل بلوغًا، والمعجز نشوءًا ومعرفةً، والممكن تيسيرًا وصعوبةً؛ ولذا وجب علينا أنْ نميِّز بين وهم الحقائق والواقع وإلَّا سنكون على درب الواهمين سائرين حيث لا ماء يروي ظمأ من وراء السّراب.

هكذا هو الفِكْر يتولّد فِكَرًا: (فكرة بعد فكرة)، ثمّ يعمل العقل على صوغها بما يمكّن من المعرفة المنظّمة للسّلوك، والممكّنة من العمل والارتقاء؛ ولذلك فتلك الفلسفات والرّؤى المختلفة والمتناقضة والمتضادة والهابطة والصّاعدة لو لم تمرّ البشريَّة بها، ما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من غزوٍ للفضاء وهي تأمل بلوغ المزيد؛ ممّا يمكّن من رتق السّماوات والأرض جنّة لا وهم من بعدها.

ولهذا فالإنسان الطّموح يعرف أنَّ المسافة واسعة بين نقطة الصّفر التي وضع قدميه عليها، وما يأمله ارتقاء، ومع ذلك يسعى ولا يأس في قاموسه العقلي؛ فيرسم الخطط وفقًا لمنهجٍ مفتوح على كلّ الاحتمالات؛ حتى يتمكّن من معرفة: كيف يتعلّم؟ وكيف يبحث؟ وكيف يصوغ تساؤلاته

---

[87] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية ارتقاء، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020م، ص 126 – 131.

وفروضه لِما يود بلوغه؟ وكيف يفكّك ما يعوق سبيله؟ وكيف يميّز بين علمٍ لا ظن فيه، وعلمٍ وَقَفَ شاهدًا عليه وملاحظًا، وعلم عاشه تجربة لا وهم فيها؟ ومن ثمَّ يعرف كيف يركِّب ما تم تفكيكه؛ من أجل تحقيق أهدافه على أرض الواقع حقيقة لا زيف فيها؟ ثمّ كيف يحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل يقينًا؟

ومن هنا، يُوجِدُ منهجًا به يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع إليه حقيقة لا وهمًا بالأمر الواقع.

وعليه:

ينبغي أنْ نفكّر وعيًا؛ حتى لا تضمر ذاكرتنا، وأن نقارن بين الدّقيق والأدق منه؛ حتى تنشط عقولنا، وتستعيد عافيتها التي تمكّنها من التفكير المتوقَّع وغير المتوقَّع ارتقاء، فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن؛ حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتُمكّنه من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولها.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم؛ كي لا يغلبه الوهم ويرضخ للأمر الواقع استسلامًا، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجلها وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاءً فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن

يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه حتى ينكسر الوهم فيها؛ ومن ثمَّ يستطيع أن يدرك أسرارها وخفاياها، ويعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها (في النفس)، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى لا يفكّروا في غيره وهمًا.

والوعي بالحقيقة وكسر الوهم في النفس لم يكونا نتاج العاطفة، بل نتاجًا لحسن التدبّر بهدف صناعة المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، والممكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة على أرض الواقع حقيقة؛ إذ لا وهمٌ يرافقها؛ ولذا فإنْ لم يرتقِ الإنسان علمًا ومعرفةً وخُلقًا، وأسلوبًا، لا شكّ أنّه سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والمعرفة والحكمة؛ فالمستهلكون بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويَشَدُّونهم للخلف؛ ممّا يجعل الفارق كبيرًا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه القوَّة العاملة والمتطلّعة ارتقاء[88].

ولهذا؛ فالجيوش والطّلبة مع أنَّهم حيويَّة المجتمع، فإنَّهم في الغالب مستهلكون؛ ممّا يجعلهم عبئًا على جهود المتطلّعين لكلّ ما من شأنه أن يحدث النُّقلة والارتقاء، ومن هنا، وجب أن تكون القاعدة: تحويل الجيوش إلى ميادين التدريب والتأهيل والإنتاج، أمَّا الاستثناء: أنْ يعدّوا مقاتلين

---

[88] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية ارتقاء، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020م، ص 126 – 131.

متى ما دعت الضّرورة من أجل المحافظة على درجات سلمّ الارتقاء، وهكذا الطّلبة ينبغي ألَّا يقضوا جلّ وقتهم تعليمًا على أيدي الملقِّنين، بل يجب قضاؤه في تعلّم العلوم الممكِّنة من الحياة ارتقاء مع تعلّم الخبرة والتّجربة الممكِّنة من ميادين العمل المنتج والمبدع على أيدي المتطلّعين إلى ما هو أفيد وأعظم، وإن لم يحدث ذلك ويصبح حقيقة على أرض الواقع فستكون العملية التعليميَّة في ذاتها وهما ينبغي أن يكسَّر.

عقولٌ واهمة:

العقل حيويَّة استشعاريَّة تتمدَّد تجاه المشاهد والمجرَّد، حتى تلامس كلًّا منهما ولا تفارق، فتستقرئ ما بينهما من علاقة، ثمَّ تستنبط منهما الفكرة لتولِّد منها فكرة تميِّز بها بين ما يجب وما لا يجب.

ووفقًا لتعريفنا هذا فإنَّ العقل يميِّز بين ما هو مسيَّرٌ فيه، وما هو فيه مخيَّرٌ، ومن ثمَّ يميّز بين معرفة: (المعجز، والمستحيل، والممكن)، ما يجعله يفكِّر في دائرة الممكن دون أن تستوقفه إشارة (قف) حتى بلوغ الخوارق، وفي المقابل استشعارًا يسلِّمُ بالمعجز، ويقف عاجزًا أمام المستحيل.

وبما أنَّ العقل حيويّة التمييز استقراءً واستنباطًا، فهل العقل في حاجة لرقيب؟ أم إنَّه ليس في حاجة؟

مع أنَّ العقل كما سبق تعريفه وتبيانه هو حيويَّة التمييز؛ فإنَّه في دائرة الممكن اختيارًا يُمكِن أن يكون رقيبًا، ويُمكِن أن يكون في حاجة لرقيب؛ أي: في حالة ما غلب الوهمُ عليه، فهو في حاجة لرقيب يلفته إلى ما يجب، أمَّا إذا كان على الحقيقة دراية فهو ليس في حاجة لرقيبٍ.

ولمتسائل أن يتساءل:

بما أنَّ العقل رقيبٌ، ألا يكون قيدًا على الرَّغبة والشهوة وممارسة الحريَّة؟

نعم أنَّه رقيب ضابط، ولكن السؤال هنا متعلِّق بالضوابط القيميّة وفقًا لكل عرف، ولكل دين، فالعقل يُمكِّن من معرفة المحرم والمجرّم والمجاز، وما يجب الأخذ به وما يجب الانتهاء عنه، ويترك لك حريَّة الاختيار؛ ولذا فالعقل لا يمنعك عن شيء فيه مطلب شهوة، أو رغبة، بل الأديان السَّماويَّة، والأعراف الاجتماعيَّة، والدَّساتير والقوانين الوطنيَّة المنظمة للعلاقات هي التي تجيز أو لا تجيز، تبيح أو تحرِّم.

ولهذه العلل والقضايا يجد الإنسان نفسه بين دراية وحيرة؛ درايةٍ تُمكّنه من اتخاذ القرار وعيًا، وحيرةٍ تستوجب العودة إلى العقل بغاية استقراء المحيِّر.

ومن هنا نقول:

لا تؤمن إلَّا بعلم يقين، ولا تأخذ إلَّا بعين يقين، ولا تسلِّم إلَّا بحق يقين.

ولأنَّ العقول مصدر ولادة الفِكرةِ وصوغ الفِكْر فهي بين هذا وذاك ترشد تارة وتضل أخرى، وفي وقتٍ تنهض، وتنكمش في وقتٍ آخر وتركن إلى ما تألفه ولو كان وهمًا.

فالعقول عندما تستمدّ القوّة وتستشعر الحيويّة أمام منكمشٍ تزداد تمدُّدًا وتوهمًا على حسابه، وستظل تتمدد حتى يكتسب من كان التمدد على حساب الثقة في نفسه، ويستمد القوّة فيرفض أيّ تمدد على حساب حياته، وراحته، وأمنه، ورزقه، وشرفه، ودينه، ووطنه، ومع ذلك لا إمكانيَّة للمواجهة بوهم الرّفض، بل المواجهة بامتلاك القوّة المرهبة للتمدُّد على حساب الغير.

ومع أنَّه لا يبدو عند العموم وجود وهمٍ مع الاستنارة فإنَّ كثيرين من المستنيرين يصحبهم وهمٌ كبيرٌ؛ فالأفراد والشُّعوب والأمم عندما تعظم قوَّتها تفقد مفاتيح السّيطرة؛ فتفعل ما لا يفعله مستنيرٌ؛ ولهذا فالأنظمة ورؤوسها التي ترى أنَّها قد سيطرت قوَّة على الأمور السياسيّة والاقتصادية والاجتماعيَّة في البلاد تعد واهمة إن لم تحسب لشعوبها ألف حساب؛ فالشُّعوب عندما تستشعر إنَّها مجرد قطيع، والوطن أصبح وكأنَّه مزرعة للحاكم وأبنائه، أو قبيلته، أو حزبه ترفض، وتتمرَّد، ثمَّ تثور حتى تقلب الطاولات على رؤوس من ترأسوها.

وهكذا الدِّول هي الأخرى عندما تعظم توهمًا بقوَّتها تفقد مفاتيح السّيطرة طمعًا؛ فتتمدّد على حساب حدود دول الغير؛ فتقيّد الحريَّات، وتنهب، وتسلب، وتحرّم، وتحلل، وتسجن، وتقتل ظلمًا وعدوانًا؛ فمثل هذه الأساليب والسُّلوكيّات والمعاملات لا شكّ أنَّها بذور الكراهيّة التي تُبذر في نفوس المعتدى عليهم وهم أصحاب الحقوق المنهوبة، والأرض المسلوبة، والحريَّة المتحكم في شئون سيادتها وإرادة شعبها، وهذه البذور

وحدها كافية لكسر حواجز الخوف وقيود الجُبن مما يجعل الإقبال على الموت مطلبًا من أجل الحياة وكسر الوهم.

وعليه:

ينبغي أن نميّز بين مردود أو نتيجة وهم من غَرَّرَ بمن، ومن غُرِّر بهم، فالذي يغرّر بالغير يظل واهمًا إذا اعتمد في مشروعه على موهومين مغرّر بهم، بمعنى: هل يمكن لمن غرّر بمن، أن يبني بهم مجدًا ويحقق بهم مستقبلًا آمنًا وهو على يقين أنَّهم واهمون؟ ثمَّ إلى متى سيكون المغرر بهم موهومين؟ أي: لا بد من نهاية تكشف الزَّيف والوهم.

وفي المقابل عقول الموهومين ليست بمبدعة ولا خلَّاقة، بل إنَّها عقولٌ تميل إلى الاتكاليَّة ميلًا، ومن ثمَّ نفوسهم ضعيفة، وعقولهم مملوءة مطالب، ومن ثمَّ فهل يستطيع مَن أوهمهم أن يُشبع حاجاتهم التي تتطوَّر على الرّغم من أوهامهم التي لا تتطوَّر؟

ومع ذلك يظل الموهومون بالنسبة إلى من أوهمهم وقودًا لإدارة دفّة أموره حتى يصبحوا ضحايا، ومع أنَّهم سيكونون الضحايا فإنَّ نهاية المشهد لأيّ مسلسل ستكون نهاية البطل، وفي معظم الآحيان لن يكون من وراء نهايته إلَّا الوهم الذي استظل به وأوهم الآخرين به.

وعليه: عندما تصبح النهايات مؤلمة لكلٍّ من الواهم والموهوم، فهل لنا أن نميّز بينهما لو لم يكن الوهم هو العامل المشترك في تنوَّع أساليب وطرق صيد الطريدة؟

ولهذا يظل الموهوم مغيّبًا عن حقيقة المعرفة حتى يقع في الفخ، وساعة وقوعه فيه، لن يبقى في ذاكرة الموهوم شيئًا حيًّا إلّا الوهم، أي: بعد موت الواهم، والوعود التي أوهم الآخرين بها لم تنجز بعد؛ فلن يبقى معهم من بعد رحيله شيء يذكر إلّا الوهم الذي لن تطوى صفحاته إلّا شاهدًا عليهم.

أوهام الدَّولة الدينيَّة:

مع أنَّ الدّين يرسم العلاقة المباشرة بين المخلوق والخالق فإنَّ بعض السَّاسة بتوجهاتهم يتدخّلون في هذا الشّأن باسم الدّولة، وكأنَّ الدّولة نائبة الخالق في خلقه، أو وكأنَّ من يدّعي ذلك وصيًّا على الدين دون غيره.

ومع أنَّ الدَّين رحمةٌ مطلقة من الخالقِ إلى خَلقهِ فإنَّ البعض باسم الدّين يرى وجوب تضييق الرّحمة على عباد الرَّحمن بوهمٍ وصَفَ نفسه به علَّامة في الوقت الذي لم ينصّبه أحد لذلك، أو يصفه بهذه الصّفة؛ وهكذا على هذا الغرار هناك من يرى وجوب قيام الدّولة الدينيَّة التي فيها تضيَّق الرّحمة الشَّاملة على كثيرٍ من المواطنين الذين لا يدينون بالديانة المفروضة وهمًا.

ومع أنَّنا نعيش معطيات القرن الواحد والعشرين فبعضنا وكأنَّه لم يقرأ التَّاريخ الذي طوى صفحة الدّولة التي كانت الكنيسة فيها تضيّق الرّحمة على حريَّات النَّاس في أوروبا، وتملي ما لم يوصِ به الدين، وبخاصّة عندما سيطرت الكنيسة على 10% من أراضي المملكة الفرنسيّة، ثمّ أقرت كرهًا جباية عُشر دخل المواطن بدعوة أنَّها ستوزعه على الفقراء والمحتاجين؛

وبهذا التضييق كان لأفكار الفلاسفة والمفكرين وعلى رأسهم الفيلسوف فولتير أثرًا موجبًا على نشر الوعي والتمرُّد والثّورة على تعاليم الكنيسة وأوهام قساوستها؛ فكانت الثورة الفرنسيّة (ثورة كسر الوهم) الوهم: الذي به اجتمعت رؤية الكنيسة مع سياسة الملك لويس السّادس عشر، الذي أدّى إلى ثورة 1789 - 1799م، والتي كان من أعظم قراراتها إسقاط أوهام السيطرة التي سادت في ذلك الزّمن من خلال توافق الملك مع الكنيسة[89].

ومع أنَّ الكنيسة لم تحكم أوروبا فإنَّها كانت باسم الدين ذات أثرٍ عظيم على قرارات حكوماتها ورسم سياساتهم؛ إذ من طبيعة الحكّام عبر التَّاريخ مولات رجالات الكنيسة والدّين بشكل عام، وهذا الأمر لا زال سائدًا حتى يومنا هذا في معظم دول العالم؛ حيث ميول الرؤساء والقادة والزّعماء والملوك إلى كسب رضاء رجالات الدّين وبخاصّة الذين يديرون المؤسَّسات الدينيّة من: (كنائس، ودير، ومساجد).

أمَّا الدول التي تدير الدّولة باسم الدين حتى يومنا هذا فهي ثلاث:

دولة الفاتيكان:

دولة رمزيَّة من حيث حجمها، ومساحتها، وعدد سكانها. إنَّها دولة الكرادلة (رجال الدين الذين يمثّلون كنائس العالم)، التي فيها ينتخب مجمع الكرادلة البابا لمدى الحياة، ويكون مطلق الصلاحيَّة، وهي الدّولة التي أُسِّست سيادتها في قلب إيطاليا، وحرّاسها منذ العام 1506 من الدّولة السويسريّة، فهم الذين يحرسون حاضرة الفاتيكان والبابا، فالفاتيكان

[89] الثورة الفرنسية (تاريخ اجتماعي وسياسي)، باريس: بيلان للنشر، 2006، ص 148 - 215.

دولة دينيّة فيها أكبر كاتدرائيّة في العالم وهي كاتدرائيّة القديس بطرس التي تتجاوز سعتها 20 ألف عابد.

ومع أنّها على هذه الصّفة البسيطة محدودة العدد والمساحة والاختصاصات؛ فإنَّ السياسة فيها من صلب مهامها الروحيَّة؛ ولهذا مثلما يُرسل السُّفراء والرُّسُل إليها، فكذلك منها السفراء والمبعوثون يرسلون، ومنها تؤخذ المشورة.

ولأنَّ دولة الكرادلة دولة بلا شعب سوى العاملين فيها فلا تعد مثالًا لما نود الإشارة إليه من حيث إنَّ الدّولة التي يصطبغ شعبها بدينٍ معينٍ هي الدولة التي تقصي الجزء الآخر من شعبها باسم الدين الذي فرضته واستمدت منه شعاراتها ودساتيرها وقوانينها، ومن ثمَّ فمن يخالف ذلك في الدولة الدينيّة فستكون الأحكام الصادرة ضدَّه بمنظور الدّين الذي فرضه سلطان الدولة على شعبه.

دولة إسرائيل:

من أهم بنود القانون الإسرائيلي (لليهود فقط في إسرائيل الحقّ في تقرير المصير) أي: لا حقّ لعرب فلسطين في تقرير المصير مع أنَّهم في صلب الأرض، وليسوا بغزاة فيها.

فهذا القانون نصَّ على يهودية الدولة، ولم ينصَّ على الوطنية فيها، مما يجعل الدين اليهودي معيارًا للحكم ولمطاردة المخالفين واستصدار الأحكام ضدّهم، وهذا يعني لا قيمة في إسرائيل للمواطن المسيحي والمواطن

المسلم وغيرهم ممن اختاروا دينهم ولو كانوا بوذيين أو أنهم كفرة ولا دين لهم.

الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانية:

بعد أن قضت الثّورة الخمينيَّة على الملكيّة عام 1979م أعلنت الجمهورية الإسلاميَّة، ومن ثمَّ فإنَّ مضمون هذا المسمّى يقيِّد حريّة المواطن غير المسلم في الدولة، سواء أكان من المسيحيين، أم من اليهود، أم من الذين لا دين لهم أصلًا، وأضف إلى ذلك أنَّها أقرّت مذهبًا واحدًا من المذاهب الإسلاميّة وهو: المذهب الشيعي الإثنى عشري، مما يجعل كثيرين من مسلمي الجمهوريّة ليسوا كغيرهم من المسلمين فيها؛ سواء أكانوا مالكيّة، أم حنبليَّة، أم حنيفيّة، أم شافعيَّة، أم إباضيّة.

وفي مثل هذه الأنظمة الدين هو المعيار الرئيس وليس الحقوق والواجبات، مما يجعل حقوق المواطنة لا قيمة لها في الدّولة الدينيّة.

دولةُ الخلافة:

وفقًا لقاعدة الاستخلاف الربَّاني لا يخلف الرَّسُول إلَّا رسولًا من عند الله، ووفقًا لقاعدة الاستخلاف السياسي بين الأمم والشّعوب فلكلِّ عصرٍ من العصور خصوصيّة بها يتميَّز عن خصوصيات الآخرين ووفقًا لنواميس التدافع الإنساني.

ولذا فالرَّسُولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يصطفيه إلَّا الله، والله تعالى لا يُخلِفُ رسولًا برسولٍ إلَّا بنبأٍ أو رسالةٍ، سواء أكانت رسالة للخاصَّة: (القوم، والمدينة، والقبيلة)، أم للعامَّة: (رسالة كافَّة)؛ ولهذا لا يخلفُ الرَّسُول

إلَّا رسولًا، ومن ثمَّ فقد انتهى زمن الاستخلاف باستخلاف الرَّسُول الخاتم: (محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام)، أمَّا من بعد الرُّسُل الكرام فلا خلافة لأحدٍ على المسلمين، ومن يخالف ذلك فلا دليل أمامه إلَّا سراب الوهم.

ولهذا فمسمَّى: خليفة رسول الله لا ينطبق مفهومه مع مفهوم الاستخلاف، الذي يربط العلاقة بين السَّماء والأرض، فبعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي النَّاس وفقًا لإراداتهم الحرة شورى؛ حيث لا إكراه في الدين:{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[90]، والشورى هنا: مع أنَّها ذات مفهوم إسلامي فإنَّها لم تكن خاصّة بالمسلمين، وهي تعني: لا فوقيّة لرأي على رأي، ولا سيادة على النَّاس إلَّا النَّاس أنفسهم؛ إذ لا إملاءات، ولا إقصاء، ولا توجيهات من أحدٍ إلى أحد، فللنَّاس الحق التَّام في إبداء الرأي، واتخاذ القرار في كل أمر يتعلّق بشئونهم السّياسيّة والاقتصادية والاجتماعيّة سلمًا كانت أم حربًا.

ولأنَّ الخلاف لن ينتهي بين الشُّعوب؛ إذن فسيظل بينهم حيثما بقوا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب ألَّا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة فتُصلح المعوجّ، وتدفعه تجاه الحلّ دون أيِّ وهم من أوهام الهيمنة والحرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الخلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلّا حيثما حلّ.

---

[90] الشورى: 38.

وعليه: في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلُّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء تنزيلًا، أمّا في الزّمن الذي بعد رسُول الكافة، فلا نبي، ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أُنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى، سواء أكان أمر النَّاس سلمًا، أم حربًا، أم سياسةً داخليَّةً، أم سياسةً خارجيَّةً؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدَّر، ويحترم، ويعتبر؛ فيُقر، ويؤخذ به عملًا، وفعلًا، وسلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[91]، وقوله: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[92]، وقوله: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[93].

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل، فأصبح للقيم الاجتماعيَّة مكانة، إلى جانب مكانة تلك الفضائل الخيّرة، وكذلك أصبح لتنوّع اللغات ولاختيارات النَّاس أهميَّة ومكانة، ومن ثمّ، أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذا فإنَّ الأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهميَّة تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان، وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة عِلّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهميَّة ذلك، سيجد نفسه واهمًا حيث لا حجّة تدعمه.

ولأنَّ الأمر أصبح من بعد الرّسُول شورى بين النَّاس الذين يتعلّق الأمر بهم كانت سقيفة بني ساعدة مكانًا للتشاور في مَن يكون رأس الدّولة

---

[91] البقرة: 256.

[92] الشورى: 38.

[93] الكافرون: 6.

من بعد الرّسُول الكريم، وهناك قد تعدّدت الرِّوايات حول ما حدث تحديدًا في هذه الحادثة، واختلفت الرؤى على صحّة الاختيار في المفاوضات؛ فبعد وفاة نبي الإسلام محمَّد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ورشّحوا سعد بن عبادة، ولكن حينما سمع عمر بن الخطاب بهذا الأمر، أخبر أبا بكر الصدّيق وأسرعا إلى السّقيفةِ، وأكدا أحقيَّة المهاجرين في الخلافة كما كان يعتقدان.

دار جدال بين أبي بكر وعمر من جهة، والأنصار من جهة أخرى؛ فاقترح الأنصار أن يكون من المهاجرين أمير، ومن الأنصار أمير، فاختلف معهم عمر بن الخطاب في هذا الأمر، ورشح أبا بكر للخلافة، وانتهى الأمر باختيار صاحب رسول الله أبي بكر الصدِّيق خليفة للمسلمين، وتمت مبايعته وفقًا لترشيح صاحب رسول الله عمر بن الخطاب.

ومن هنا أقول:

لا يمكن أن يكون لرسول الله خليفة، ولكنَّ العرب المسلمين في ذلك الوقت اتخذوا عنوان الخلافة لإدارة شئونهم المدنيَّة، ولا اعتراض على مسمَّى الخليفة، ولكنَّ الاعتراض على إلصاق الخلافة بخلافة رسول الله؛ ذلك لأنَّ الرَّسُول لا يخلفه إلَّا رسولٌ من عند الله، وليس من عند العباد.

ومع أنَّ الاختلاف بين النَّاس من نِعم الله التي بها تتنوَّع أساليب الحياة، ففي المقابل الخلاف بين بني الإنسان نقمة؛ به تُقطع علاقات المحبَّة والمودَّة، كما قُطعت العلاقات بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ونبيّ واحد، كما هو الحال بين طائفة أهل الشيعة، وطائفة أهل السنّة؛ فطائفة الشيعة

كانت ترى أنَّ آل بيته أولى النَّاس بالخلافة، وأولى آل بيته عمّه العبّاس، وابن عمه علي، وعلي أولى من العبّاس؛ لأنَّه أسبق إلى الإسلام، كما أنَّ له نسلًا من ظهر الرّسول، ثمّ إنَّ العبّاس نفسه لم ينازع عليًّا في أولويَّته للخلافة.

وعليه: أقول: لا صراع على النبوَّة؛ لأنَّ أمرها لا يكون إلَّا من عند الله، مع العلم أنَّ هناك من ادَّعاها وهمًا، ولكن الفرق كبير بين الحقيقة، والادعاء؛ وفي المقابل كان الصراع على أشُدِّه بين النَّاس على من يحكم من.

وهكذا في كلِّ مرحلة من مراحل الدَّولة الإسلاميَّة، الخلافات تتجدّد؛ والخلفاء يُقتلون؛ فقُتل عمر، ومن بعده قُتل عثمان، ثمّ قُتل علي. وقد ظهر بأسباب الخلاف المرتدّون في زمن أبي بكر، والخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب عندما قَبِل التحكيم في موقعة صفِّين؛ ذلك لأنَّ الخوارج رأوا أنَّ عليًّا قد أخطأ بقبوله التحكيم؛ فقالوا جملتهم الشهيرة: (لا حكم إلّا لله).

ومن بين أهم المعارك الخلافيَّة موقعة الجمل التي وقعت في البصرة عام 36هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والجيش الذي يقوده الصحابيَّان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام إضافة إلى أم المؤمنين عائشة، التي قيل: إنَّها ذهبت مع جيش المدينة في هودج على ظهر جمل وسمّيت المعركة بالجمل؛ نسبة إلى الجمل الذي عليه هودج أمّنا عائشة رضي الله عنها.

فبعد حدوث الفتنة ومقتل الخليفة عثمان بن عفان عام 35هـ، بَايَعَ كبار الصحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وانتقل إلى الكوفة ونقل عاصمة الخلافة الإسلاميَّة إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصحابة أن يقتصّ الإمام من قتلة عثمان، لكنَّه لم يأخذ بهذا الأمر.

ومن هنا، كان الخلاف بين علي ومعاوية حتى بلوغ حالة الاقتتال بين صحابة رسول الله؛ فكانت معركة صفّين في محرّم سنة 37هـ؛ حيث أراد الخليفة علي أن يعزل معاوية من على الشَّام؛ فخرج إليه بجيشه، ودار الاقتتال عند صفّين، وعندما شعر جيش معاوية أنَّه على مقربة من الهزيمة، طلبوا التحكيم مع علي وجيشه: (أهل العراق) فرفعوا شعار: (كتاب الله بيننا وبينكم) إنَّه شعار أهل الشَّام تحت رئاسة معاوية.

ومع أنَّ الطرفين قد اتفقا على وقف الاقتتال والقبول بالتحكيم، فإنَّ الرّفض كان على أشدّه من قبل طائفة من جيش علي بن أبي طالب، ومع ذلك، تمّ الاتفاق وخُتم بختم علي بن أبي طالب على أعلى صحيفة التحكيم، وخُتم بختم معاوية بن أبي سفيان على أسفل الصحيفة.

ومع أنَّه الاتفاق المختوم، فإنَّ الرَّافضين من أهل العراق بقوا على رفضهم، بل زادوا على رفضهم الخروج عن طاعة علي، ورفعوا صوتهم بقولهم: (لا حكم إلّا لله) وطلبوا من الخليفة علي نقض العهد، ولكنّه رفض.

وكان أبو موسى الأشعري مفاوضًا وممثلًا لعلي وجيشه، وكان عمرو بن العاصّ مفاوضًا وممثلًا لمعاوية وجيشه؛ فقام الأشعري بخطبته قائلًا:

"أيّها النَّاس إنَّا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح، ولم الشعث، وحقن الدِّماء، وجمع الألفة خلعنا عليًّا ومعاوية، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتي هذه" وخلع عمامته[94].

وقام عمرو، وقال: (أيّها النَّاس إنَّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليًّا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني خلعت عليًّا وأثبِّت معاوية عليَّ وعليكم).

فقال الأشعري: كذب عمرو، ولم نستخلف معاوية، ولكنَّا خلعنا معاوية وعليًّا! فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليًّا، ولم أخلع معاوية؛ ولذا فنحن بعد هذه الحدَّةِ في الخلاف بين من صاحب رسول الله فلا يبقى لنا وللأسف الشديد شيءٌ نلاحظه سوى: عندما يكون الخلاف على الدّين أوجد الله لنا حُجّة نقولها، مصداقًا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[95]، وقوله: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[96]. ولكن ماذا نقول عندما يصبح الخلاف على ممارسي السّلطة أعظم من الخلاف على اتباع أمر الله تعالى؟

ووفقًا لصحيفة التحكيم عاد علي ومن معه من جيشه إلى الكوفة، وتحرّك معاوية وجيشه إلى الشَّام.

ولأنَّ الخلاف يشتدُّ مع شدّةِ الصدام؛ فكان على أشدّه بين علي بن أبي طالب، والذين انشقوا وخرجوا عنه، وكان أكثر شدّة عندما اجتمع

---

[94] سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج 3، ص 7.

[95] البقرة: 256.

[96] الكافرون: 6.

الخوارج في النهروان سنة 38هـ، فقاتلهم علي، وقتل منهم من قتل، ثم اختلفوا وتخالفوا؛ فانشقوا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

ثم قُتل علي بن أبي طالب على أيدي الخوارج في 16 رمضان 40هـ، وهو يُصلِّي الفجر في المسجد.

وبعد عصر الخلفاء الراشدين: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي) أخذت الخلافة لونًا آخر، كان التوريث فيها هو العنوان، بدلًا من تلك التجربة التي سبقت؛ ولهذا كان الاقتتال على أشدِّه بين الأخوة والأعمام، وبين الأقارب والأباعد؛ وبهذا انتهى عصر الخلافة دينًا، وهلَّ على المجتمع العربي والإسلامي عصر الخلافة وهمًا.

الخِلافُ على وهم الخلافة:

في زمن الخلافة لم يكن هناك فصل بين صلاحيَّات من يتولَّى رعاية الإسلام: (الدين) ومن يتولَّى إدارة شئون الدولة: (الرَّعيَّة)؛ أي: إنَّ نظام الخلافة كان راعيًا للدين وكأنَّه لا فرق بينه والدَّولة.

أمَّا بعد زمن الخلفاء: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ فقد كان الصِّراعُ داخل الأمَّة - على الخلافة - صراعُ وراثة دمويَّة، وفي المقابل كان الصِّراع مع الخارج فتح دِولٍ وأمصارٍ.

ولأنَّ الخلاف يفرِّق ولا يجمع، كان الخلاف بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ورسولٍ واحد، ولا يفرِّقون بين أحد من رُسله؛ فكان المرتدّون بأسباب حداثة الإسلام، وضعف الإيمان، والاختلاف على من يأتي من بعد الرّسول بأوهام الخلافة؛ فكان الاقتتال بين هذا وذاك قتالًا بلا شفقة

ولا رحمة؛ كلّ ذلك كان بأسباب عدم قبول الاختلاف: (عدم قبول الرأي الآخر). إنَّه الاقتتال من أجل أوهام السُّلطة، وليس الاقتتال من أجل الهداية، ونشر الإسلام، والعدالة، وإحقاق الحقِّ، ومن ثمَّ أصبح الوهم سيدًا في ميادين الصراع على السُّلطة.

ولأنَّه الخلاف المؤدّي إلى الاقتتال بوهم الاستلاء على السُّلطة؛ كان الخلاف بين أهل الدّين الواحد لا يختلف عن الخلاف مع من هم على دين آخر.

وعليه: فإنَّ الاختلاف والخلاف عبر الزَّمن متلازمان مترافقان في أيِّ مكان، وفي كلِّ دولة؛ وقد بدء الخلاف بعد وفاة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، واشتد في عهد الدَّولة الأمويَّة (662م – 750م)، ثم من بعدها الدَّولة العباسيَّة.

أمَّا في الدَّولة الفاطميَّة فكان الاختلاف منذ البدء مع مؤسّسها عبيد الله المهدي (909 – 934م)؛ وذلك بعد قضائه على دولة الأغالبة، واتخاذه مدينة المهديَّة بتونس عاصمة له، التي من بعدها زحف الفاطميّون وحلفاؤهم إلى المشرق وأسّسوا القاهرة مع رابع خلفاء العبيديين المعز لدين الفاطمي، وبأسباب الخلاف لم يتبقَّ منهم في الجزائر والمغرب وتونس إلّا القليل.

وتوسعت الدَّولة الفاطميَّة على حساب الخلافة العباسيَّة، واستولى الفاطميّون على شرق الجزائر ثمَّ تونس ثمَّ ليبيا ومن بعدها صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061م.

ولأنَّه الخلاف على السُّلطة والحكم، دخل الفاطميّون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشَّام، كما أنَّهم تنازعوا السيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس؛ وكذلك تمكَّنوا من السيطرة على الحجاز والحرمين ما بين 965 – 1070م، ولكن صلاح الدين الأيوبي انقلب على الدَّولة الشيعيَّة، وتولَّى الوزارة منذ 1169م وأعاد الخلافة العباسيّة سنة 1171م.

وفي أثناء حكم الدّولة العباسية تكوَّنت فرق دينيّة متعدِّدة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق والحكّام العبّاسيين: (أوهام الخلافة)، أو إمامة المسلمين، وكان لكلّ جماعة منهم خصوصيَّاتها السياسيَّة في إقامة الحكم الذي تريده ولو كان وهمًا.

وجعلت هذه الفرق النَّاس على خلافات بين طوائف وتحزُّبات، وأصبحت المجتمعات العباسيَّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسَّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدَّولة حتى تصدَّعت وحدتها، ومن العوامل الداخليَّة التي شجّعت على انتشار الحركات الانفصاليَّة، اتساع رقعة الدَّولة العباسيَّة، وبُعد المسافة بين أجزاء الدَّولة، وصعوبة المواصلات في ذلك الزّمن، هذه جعلت الولاة في المدن النائية يتجاوزون سلطاتهم، ويستقلّون بشئون ولاياتهم، دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصاليَّة، والتي لن تصل إلّا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العباسيَّة: حركة الأدارسة، وحركة الأغالبة، والحركة الفاطميّة.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م على يد هولاكو خان التتري، الذي قتل من قتل إلى جانب قتله الخليفة وأبناءه؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من بني العبّاس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد؛ حيث أقاموا الخلافة مجدَّدًا في سنة 1261م.

واستمرت الخلافة العباسيَّة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانيَّة بلاد الشام ومصر، وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان: (سليم الأوَّل) فأصبح العثمانيّون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينيّة.

هكذا هي نتائج الخلاف وأوهام السُّلطة، بداية استيلاء على السُّلطة، ثمّ صراعات وفتن بين الفرق والطوائف التي حياتها لهوٍ، وفساد، وكيد، ومكر، إلى أن تأتي النّهاية سقوطًا وكسرَ وهمٍ.

أوهامُ الدّولة العسكريَّة:

بعد أنْ تسيطر المؤسَّسة العسكرية على مقاليد الحكم في الدَّولة، يُصبح مصير الدّولة سياسةً واقتصادًا واجتماعًا بأيدي من قاموا بالانقلاب على السُّلطة المدنيَّة؛ ومن ثمَّ يحتكرون السُّلطة، ومن ثمَّ فلا تداول سلمي لها في عهدهم.

وفي عهد الدَّولة العسكريَّة تفعَّل الأحكام العسكريَّة على المدنيين بحيويَّة التوجيهات العليا للقيادة، مما يجعل القضاء المدني محمَّدًا فلا يتدخل في القضايا السَّاخنة والمصيريَّة.

ومع أنَّ كلّ الانقلابات العسكريَّة التي حدثت عبر التَّاريخ، وأينما حدثت تنقلب على السُّلطة باسم الشَّعب والوطن؛ فإنَّها في حقيقة الأمر لا تولي للشَّعب ولا للوطن اهتمامًا، بل لا يرى رأس الانقلاب أو رؤوسه عدوًّا لهم ولحكمهم إلَّا الشَّعب، الذي اتخذ المنقلبون اسمه وهمًا عنوانًا لثورتهم (ثورة الشَّعب) في الوقت الذي هم فيه منقلبون على إرادته.

ولذلك فهم يرفعون شعارات برَّاقة وجذابة في بدايات استلائهم على السُّلطة، بها يستطيعون جذب أنظار الواهمين من الشَّعب، وكأنَّهم المنقذ له مما يعاني من تأزُّمات سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة.

وبعد أنْ يقفوا على أقدامهم أمنًا وسيطرةً؛ يلتفتون إلى بعضهم بعضًا (من ينفرد بالأمر، ويصدر الأوامر دون غيره)، فتلدُ الظّنون بينهم ظنونًا، ويلتفت كلٌّ منهم إلى أطرافه إنْ لم يباغته أحد الأطراف فيجعله على رأس التآمر ضحيَّة، وهكذا تبدأ الانقلابات بأفرادٍ وكأنَّهم كلمة واحدة وعُصبة، وفي النهاية تنتهي الانقلابات ولا ترسو إلَّا على واحدٍ، لا يحصد الشَّعب من ورائه إلَّا الأوهام.

وبعد أن يستقر الأمر على واحد تصبح كل مقاليد الدَّولة بيده، وهو الآمر والنَّاهي عسكريًّا ومدنيًّا، ومن ثمَّ فمن يخالف الأمر فكتائب الأنياب (الكلاب المدرَّبة على شمّ الأثر) تلاحقه بمخالبها ديمقراطيًّا من أجل أن تمارس معه حقوقه، وتؤدِّي معه واجباتها.

ومع ذلك فإنَّ عِلل انقلاب المؤسّسة العسكريَّة واحدة، وأوهامها واحدة (حكمٌ عسكري بدلًا من حكمٍ مدني)؛ ولهذا ينقلبون على السُّلطة

المدنيَّة بوهمِ السَّيطرة العسكريَّة، وقهر إرادة الشَّعب، ومع أنَّهم مُتَخفُّون بلباس الشَّعب، ويرفعون الشِّعارات من أجله، فإنَّهم لا يثقون فيه، وكيف يثقون في الشَّعب وهم الذين انقلبوا على دولته المدنيَّة، وإرادته الحرّة؟!

ولذا فالانقلابات العسكريّة موهومة بالاستلاء على السُّلطة وتولّي زمام الأمر في الدَّولة؛ فبها تلغى الدّساتير، ويوقف العمل بالقوانين المعمول بها، ويطلق العنان للتوجيهات الآمر والنَّاهية من قِبل رأس الانقلاب أو مدّعي الثَّورة.

وبهذه الأفعال المملوءة أوهامًا لا يمكن لمن قام بانقلابٍ أو ثورةٍ أن يكون يومًا من أيَّام حُكمه آمنًا، لأنَّه يعلم أنَّ ما أُخذ بالقوّة كرهًا سيكون من ورائه كارهون، كما أنَّه يعلم أنَّ خيانة العهود ممكنة؛ فهي بالتمام لا تزيد عن الخيانة التي خان بها ذلك القسم الذي أَقسم به عندما التحق بالعسكريَّة أن يكون مخلصًا لرأس الدَّولة والوطن.

ولهذا فَمعظم الذين انقلبوا على أنظمة الدِّول أو ثاروا عليها؛ قد تمَّ الانقلاب عليهم بذات المنهج والوسيلة، ويحضرني في هذا الشأن الحكمة التي قالها (جورج دانتون) بعد إسقاطه ورفاقه الملكية في فرنسا 1789م فيقول دانتون: "الثورة يخطط لها المفكّرون، ويقوم بها الشّجعان، ويجني ثمارها الانتهازيون"[97]، وقبيل إعدامه بانقلاب عليه من قبل رفاقه عام 1794م قال: (إنَّ الثورة تأكل أبناءها)، وأُعدم بأمر: (أوبسير) وهو أحد أقرب الرِّفاق المقربين منه، فقال دانتون لرفيقه الذي كان وراء إعدامه، وهو

[97] أحمد عصام الدين: عن الثورة الفرنسية، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1971م ص 173.

أوبسير: (سوف يأتي عليك الدّور)، وفعلًا جاء الدّور على أوبسير وأعدم بعده بعد أربعة أشهر فقط[98].

وهكذا تشابهت أحوال الثورة المصريَّة عام 1952م، التي انقلبت على الملكيّة وعيّنت رأس الثورة اللواء محمد نجيب رأسًا موجّهًا للدولة؛ غير أنَّ صراعًا على السُّلطة نشأ بينه وجمال عبد النَّاصر إلى أن حُسم الأمر لصالح الرَّئيس جمال عبد النَّاصر، الذي جعل رفيقه رأس الثورة اللواء محمَّد نجيب تحت الإقامة الجبرية في قصر زينب الوكيل حرم مصطفى النحَّاس بالقاهرة حتى وفاته. وتولى الرَّئيس جمال عبد الناصر حكم مصر من (1954م حتى وفاته عام 1970م؛ وكان توليه هذا تحت عنوان: (شرعيَّة الثَّورة)، التي أسقطت الدولة المدنية والعمل بدستور 1923م[99].

وهكذا كانت الانقلابات في اثيوبيا على يد مجموعة من الضبَّاط، وعلى رأسهم (منغستو هيلا ميريام) الذي انقلب على الحكم مع مجموعة من الضبَّاط واستولى على السُّلطة، ثم سرعان ما تخلّص من 40 ضابطًا كانوا على علاقة به، ثم من بعدهم أعدم رفيقه المقرَّب (أتنافو أباته) على حين غرّة 1977م؛ خوفًا من أن يفكّر يومًا بعمليّة انقلابيَّة، ومع ذلك تمَّ الانقلاب على (منغيستوا) كما قلنا بنفس المنهج والوسيلة؛ فقتل 18

---

[98] جلال السيد، الثورة الفرنسية والفكر العربي، القاهرة: مجلة الهلال المصرية، عدد سبتمبر 1989م

[99] فتحي رضوان، أسرار ثورة 23 يوليو 1952م، القاهرة: (مجلة روز اليوسف)، يوليو 1975.

ضابطًا من الضباط الذين ناصروه، أمَّا هو فقد فرَّ لاجئًا إلى (زمبابوي) وكأنّه لم يكن شيئًا مذكورًا[100].

وهكذا هي أحوال الانقلابات العسكريَّة (المنهج واحدٌ والأسلوب لم يتغيَّر) فما جرى من انقلابات واقتتالات من أجل الاستلاء على السُّلطة في العراق، وسوريا، لا يختلف عمَّا جرى في ليبيا، واليمن، وفي معظم دول أمريكا الجنوبيّة وأفريقيَّة.

فتلك الانقلابات والثورات بعدما تسيطر بالقوّة على الدولة (شعبًا ومؤسّسات) تتظاهر بأنَّها ديمقراطيّة، وتدّعي ذلك بتشكيلها حكومات شبه مدنيَّة (وزراء مدنيون مع عسكريين)، ومن فوقهم الآمر العسكري رئيسًا للدَّولة، وهذا يعني: أنَّه لا مرجعيَّة في الدَّولة إلَّا الآمر العسكري وحده.

وعلى الرَّغم من ذلك وبعد أن يستسلم الشَّعب للأمر الواقع ويرضخ؛ يُفسح له المجال نسبيًّا بخوض انتخابات تسمح للقائد العسكري بالتدخُّل والتوجيه وفقًا لما يراه ضرورة؛ كونه المتقدّم الوحيد للانتخابات الرِّئاسيَّة.

ومع أنَّها انتخابات شكليَّة وفوز شكلي، يتم التغنّي به وكأنَّه الأرفع ديمقراطيًّا في جميع بقاع العالم؛ فيطلب من العموم الواهم أن يتظاهر في الشَّوارع ليحتفل بالفوز الذي تزيدُ نسبتهُ عن 99% من عموم الأصوات.

ومثل هذه الانتخابات لا تزيد عن كونها رسائل مشفَّرة لكلٍّ من:

---

[100] الرأي، منغيستو هيلا ميريام، 29- 5- 2008م

- العسكريين الذين قد يكون من بينهم رؤوس تعتقد إنَّها ما زالت صاحبة رأي، أو ينبغي أن يكون لها رأي في الدَّولة العسكريَّة.

- المدنيّين الذين لم يرضوا ولم يقبلوا بحكم المؤسَّسة العسكريَّة.

- العالم الخارجي المتحضّر الذي لم يكن أساسًا راضٍ عن الانقلابات العسكريَّة.

ومع أنَّ الجميع يعرف أنَّ ما حدث لا يزيد عن كونه تمثيليّة من نسيج الوهم فإنَّه بأسباب المصلحة تتم المباركات باستثناء فئتين:

- الواعين: الذين يقادون بعقولهم لا بأوهام الغير، وهؤلاء هم القلة.

- الواهمين: الذين يحلمون بذات الوهم الذي حَلِمَ به مَن انفرد بالسُّلطة في البلاد.

وعليه: سيكون واهمًا من تُغرِّر به تلك المسيرات الشّعبيّة التي يتم التظاهر بها في الدِّول ذات الأنظمة غير الديمقراطيَّة، والتي لا تخرج إلَّا بالأوامر، ولا تنتهي إلَّا بها، وكذلك سيكون واهمًا من يصدّق أنَّ تلك المبايعات التي تبايع القبائل بها من استولى على السُّلطة وأستفرد بها بأنَّها مبايعات مخلصة وحاسمة للأمر، وأيضًا سيكون واهمًا من يثق في تقارير التنمية والتطوُّر وحقوق الإنسان، التي تصدرها الأنظمة الخاضعة للرأي الواحد الذي في معظمه نتاج انقلابات عسكريّة، وليس بانتخابات حرة ونزيهة.

ومن أجل إطالة عمر الديمقراطيَّات المزيّفة ورؤوسها، وبخاصّة عندما تكثر مفاسد رأس الدَّولة، وأبنائه وأقاربه، وأتباعه، يختلق رأس الدَّولة المشاكل مع الغير، أو حتى المعارك، التي بها وهمًا يكسب تأييد الشّعب، وتجديد المبايعة له من خلال وهمه بقدوم مخاوف وعدوان من الخارج يتطلَّب من كافّة الشَّعب التدريب على حمل السّلاح من أجل الوطن، ومن أجل الوطن أيضًا ينبغي أن يتبرَّع المواطنون بمرتّب شهري من مرتّباتهم، ومن أجل الوطن ارتدى الرّئيس بزّته العسكريَّة وقبل بالاستشهاد دونه، وهكذا تتعدّد الأوهامُ والواهِم واحد.

ولأنَّه لا مشروع ولا مصداقيَّة في إدارة الدّولة العسكريَّة، فلا بدّ لِصبر الشُّعوب وأن ينفذ، مما يجعل الخائف من الموت مطالبًا به؛ وذلك من أجل إعادة إرادة قُهرت، وسيادة سُلبت.

ومن ثمَّ لن يعود الوطنُ كما يراه البعض صنمًا مثل ذلك الصَّنمُ في العصر الجاهلي، الذي كان يتحدّثُ باسمه كاهنٌ لعُبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)، فكان الكاهنُ كلَّما رغب مطلبًا تحدَّث لعبَّاده باسم الصَّنم، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول الكاهُنُ: إنَّ الصَّنم يطلب كذا وكذا، فيلبي العُبَّاد مطلبه؛ بغاية نيلهم رضا الإله (الصَّنم)، وهنا بالطّبع لن يعود المطلوب على الصَّنم في شيء، بل يعود على الكاهن، ويظل العبَّاد ينتظرون رضا المعبود من دون الله، حتى يبلغهم الكاهن برضاه، أو يبلغهم بمزيدٍ من المطالب.

هكذا بعض السَّاسة في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، وهنا إن لم يكن حال الوطن

مِلكٌ لجميع مواطنيه، فسيكون حاله كحال ذلك الصَّنم؛ فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ)؛ ما يجعل الفارق منعدمًا بين النَّاطق باسم الصَّنم، والنَّاطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صنمٍ.

وهكذا بالتمام عندما يقول رئيس الحزب في الأنظمة غير الديمقراطيَّة (أيِّ حزبٍ) لأعضاء حزبه: عليكم أن تقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الحزب فهو في حقيقة أمره يريدهم أنْ يضحوا من أجله، وأجل بقائه كاهنًا لصنمٍ لا ينطق (الحزب).

ولذا علينا أن نؤكِّد: أنَّ الشَّعب هو من يمتلك الوطن، وليس الوطن من يمتلك الشَّعب، وبذلك تصبح التَّضحيات واجبةَ الأداء، والموتُ من أجله يخلق الحياة، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين: أيُّهما أولى: الموتُ من أجل الشَّعب؟ أم الموتُ من أجل الوطن؟

لا شكَّ أن خيار الإجابة هنا أصبح بيِّنًا، ولكن عندما يكون السُّؤال:

أيَّهما أولى: التضحية من أجل الصَّنم؟ أم التضحية من أجل الكاهن؟

إذا قلت: لا إجابة؛ فأنت قد أجبت، وإن قلت إجابةً فستجد نفسك بين فكي كاهن الوطن وكتائبه ذات الأنياب، وحينها ليس لك بدٌّ

إلَّا الاعتراف بأنَّك لا تزيد عن كونك عاملًا في مزرعة الكاهن، الذي له حريَّة التصرُّف في مزرعته بيعًا، واستغلالًا، أو أن يتركها أرضًا بورًا، وكلُّ هذا؛ كي لا تحلم بأنَّك مواطنٌ حرٌّ في وطنك، وإن صدَّقت نفسك في غير ذلك فستكتشف يومًا أنَّك أوَّل من كَذَبَ على نفسهِ.

ولهذا فالكاهن الذي يُنصِّب نفسه كاهنًا على الوطن لن يكون الوطن في زمانه إلَّا صنمًا، ومن ثمَّ فلن تجد التضحيات مكانًا لها لتحلَّ فيه.

أوهام الدَّولة القوميَّة:

القوميَّة رابطة دم وعلاقات اجتماعيَّة، تلتحم مفرداتها قوّة كلَّما شعرت بخطرٍ يهدد كيانها ووجودها، وفي المقابل ترتخي، وتستكين، وتستسلم للشهوة، والرَّغبة، واللَّذة؛ فتنكسر، وتتفرَّق، ثمَّ تتفكَّك شيعًا وأحزابًا.

وفي زمن القوميَّات كان للزَّعيم دلالة ومعنى، وكان للقائد المغوار دلالة ومعنى، وبخاصَّةٍ بعد أنْ احتلَّت بلدان المسلمين كرهًا، وأصبحت تحت سيطرة المستعمرين، فكانت دائرة التَّاريخ تعصف قتالًا، وجهادًا، واستشهادًا في سبيل الدِّفاع عن الدِّين، والوطن، والعِرض؛ ومن هنا بدأ التفاخر بالشهيد، والقائد المغوار، والزَّعيم المرشد، والمجاهد البطل؛ فكان التحرُّرُ والاستقلال، وتكوين الممالك، والإمارات، والسّلطنات، وتأسيس الدِّول، والنُّظم.

ومن ثمَّ أصبح البحث عن الزَّعيم: إمامًا، وملكًا، وأميرًا، وسُلطانًا، وقائدًا، وبدأت الولاءات، والمبايعات للأشخاص، الذين يُعتقد أنَّهم قد خصُّوا بهذه الخاصيَّات؛ ولكن هنا اختلطت صفة القدوة الحسنة مع الواهم بها وهمًا؛ فكان الفساد، والظُّلم، والقهر، والاستعباد، والإقصاء، وتكبيل الحريَّات، إلى جانب اللهو على حسابِ حَمْلِ المسئوليَّة الوطنيّة؛ فبدأت الانقلابات، والثورات تتفجَّرُ على أيدي العسكريين، الذين اتخذوا شعارات مبدئيَّة ترفض الفساد، والفاسدين، وكان الاعتزاز والانتماء للقوميَّة عظيمًا.

ولأنَّ للقوميَّة صلة اجتماعيَّة فهي تنْشأ من الاشتراك في الوطن، واللغة، ووحدة التَّاريخ، التي تشدُّ الشَّعب بقوَّة رابطة العرق، أو القوم، ولهم من ورائها مقاصد سِيَاسِيَّة تَرْمِي إِلَى خَلْقِ وَعْيٍ بأهميَّة الحميَّة، والْمَصَالِحِ الْمُشْتَرَكَةِ؛ دفاعًا عَنْ الأُمَّةِ الَّتِي تَقُومُ وَحْدَتُهَا عَلَى أَسَاسِ وَحْدَة اللُّغَةِ، وَالتَّارِيخِ، وَالثَّقَافَةِ، وَالأَرْضِ.

ولقد عاشت معظم دول العالم عصر القوميَّات، وسادت قوميَّات على حساب أخرى، ولكن التَّاريخ سجَّل في صفحاته انكسارات كبيرة وكثيرة؛ أنهت عصر القوميَّات، وأوهام الزَّعيم، وأوهام القائد المغوار، والرَّمز، وحلَّ محلَّه عصر الدّولة المدنيّة.

وفي زمن الزّعامة القوميَّة الزَّعامة لا توهب، ولكنَّها تُنتزع انتزاعًا؛ فأصحابها يَظهرون في الكلمة حُجّة، وفي القول حكمة، وفي الموقف صوابًا، وفي الحركة تأنٍّ، وفي المواجهات صبرًا، وميزان عدل. ويذكّرني في ذلك مطلب الفرنسيين من شارل ديجول: بأن يتولى قيادة فرنسا عقب الحرب

العالميَّة الثانية؛ فكان سؤاله الوحيد: "وكيف حال القضاء؟ فأجابوه: إنَّه بخير، ولم يصبه الدّمار الذي أصاب البلاد من جراء الحرب، فقال: "إذن يمكننا إعادة بناء فرنسا"[101].

وفي مقابل هذا القول، قال غوستاف لوبون: "إنَّ الشيء الذي يهيمن على روح الجماهير، ليس الحاجة إلى الحريَّة، وإنّما إلى العبودية؛ وذلك أنَّ ظمأها للطَّاعة يجعلها تخضع غرائزيًّا لمن يعلن أنَّه زعيمٌ"[102]، ومع ذلك بقي الزّعيم الفرنسي شارل ديجول على قوله: "إنَّ القبور مليئة برجال لا يمكن الاستغناء عنهم؛ فالزّعماء يرحلون، ويتركون وراءهم انطباعًا: بأنَّه لا يمكن تعويضهم"[103].

وعليه: فالتَّاريخ لا يصنع الزُّعماء، ولكن الزُّعماء يصنعون التَّاريخ؛ ذلك لأنَّ الزُّعماء هم من يحدثون فارقًا يُمكِّن من تجاوز الأزمات، وإحداث النُّقلة إلى ما هو مأمول دون تردُّد، وفي مثل هذا الشأن، قال كارل ماركس: "إنَّ الرِّجال يصنعون تاريخهم، ولكنَّهم لا يصنعونه في الظروف التي يختارونها بأنفسهم، بل بفعل أمور فرضت عليهم من تبعات"[104].

إذن فالزّعيم في عصره لا ينسب لنفسه حقًّا أُمر بأن يفعله، بل ينسبه للحقِّ تعالى؛ ولهذا فالأنبياء جميعهم عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ يردّون

---

[101] الأهرام الرقمي، الأهرام اليومي، أحمد البري.

[102] غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، ط2، 1997م، ص 127.

[103] الأهرام الرقمي، الرئيس بين الزعامة وسجن التاريخ، المصدر :الأهرام اليومي، بقلم: عزّة إبراهيم.

[104] الأهرام الرقمي، الرئيس بين الزعامة وسجن التاريخ.

كلّ شيء يحقّقونه للحقِ تعالى، ومن هنا؛ فجميعهم كانوا زعماء حقّ من خلال عملهم على إحقاقه تبشيرًا، ودعوةً، وتحريضًا، وإنذارًا، ووعظًا، وإرشادًا، وهدايةً، إنَّهم الرُّسُل الكرام: (الزُّعماءُ العظماءُ).

أمَّا القادة والرُّؤساء الواهمون فينسبون كلّ شيء لشخوصهم، وبرامجهم السياسيَّة، ومن ثمّ، لا تجد الزَّعامة في مثل هؤلاء مكانًا تستأنسه، أو تستقر وتحلّ فيه، ومن هنا كانت الانتكاسة على دولة الزَّعيم، التي من بعدها جاء عصر الدَّولة المدنيّة كاسرًا للوهم.

الدّولة المدنيّة:

الدّولة المدنية في مفهومها العام لا تختلف عن الدّولة الوطنية والعلمانيّة، إلَّا بحصر التسمية المدنيّة في مخالفة لعسكرتها كما هو حال الدول التي فيها الانقلابات لم تختف بعد؛ كونها تتجدد بين الفينةِ والأخرى.

ومن أهم مبادئ الدّولة المدنيّة ألا يخضع أي فرد فيها لانتهاك حقوقه من قبل فرد آخر أو طرف آخر، فهناك دومًا سلطة عليا هي سلطة الدّولة، والتي يلجأ إليها الأفراد عندما يتم انتهاك حقوقهم، أو تهدد بالانتهاك، فالدّولة هي التي تطبّق القانون، وتمنع الأطراف من أن يطبّقوا أشكال العقاب بأنفسهم[105]؛ ولهذا فشعار الدّولة المدنيَّة (تطبيق العدالة).

الدّولة المدنية ترحب بحصول التغيير عبر الأغلبية لأنَّها تحترم الاستحقاق الديمقراطي؛ ومن ثمَّ يجوز للأغلبيَّة الفائزة تعديل القوانين مع

[105] ماذا تعنى: الدولة المدنية؟ أحمد زايد – جريدة الشروق الجديدة – تاريخ النشر 26 فبراير 2011 نسخة محفوظة 01 مارس 2011م.

مراعاة حقوق الأقليّة والحفاظ على الشكل المدني للدّولة، وتشترط التداول السّلمي المدني للسّلطة بشكل دوري عبر الديمقراطيَّة وأساليبها المتنوّعة.

الدّولة العلمانيّة:

العلمانيَّة رؤية في حكم الدّولة تسعى للحفاظ على وحدتها مهما تعددت أديان المواطنين ومرجعيَّاتهم الدينيَّة والثقافيَّة، ويعدّ الفيلسوف الإنجليزي جون لوك، واضع أسس العلمانيّة في القرن السَّابع عشر؛ فهو يرى أنَّ وظيفة الدّولة رعاية مصالح المواطنين الدنيويّة، أمَّا الدّين فيسعى إلى خلاص النفوس في الآخرة؛ لأنَّ الدولة لا تستطيع بما تملك من وسائل القانون وقوّة السّلاح أن تضمن لمواطنيها نجاتهم في الآخرة.

ولذا في الوقت الذي تدعو فيه الدّولة المدنيَّة للعدل تدعو العلمانيّة للمساواة، وفصل التشريع والقوانين عن الدين؛ ومع ذلك انقسمت أوروبا بعد نجاح العلمانيّة إلى معسكرين غربي أقرب للمدنيّة، وشرقي ديكتاتوريٍ وكلاهما نظام علماني.

ومن هنا فالعلمانيَّة لا تعادي الدين، بل تمنع استخدام الدولة له لتبرير سياساتها، وهي تكفل لجميع المواطنين على اختلاف أديانهم حريّة العبادة، وتقوم الدّولة العلمانيّة على مبدأين:

المبدأ الأوَّل: تفصلُ الدولة العلمانيّة بين مجالين مختلفين في حياة النّاس: المجال العام: ويكرِّس لما يخدم جميع النَّاس، بغضّ النّظر عن أصولهم، وألوانهم، ومعتقداتهم الدينيّة، أو ميولهم الإلحاديّة، فلا مرجعيَّة فيه لأيِّ دينٍ، أو فلسفةٍ إلحاديّة.

أمَّا المجال الخاصّ: فيستوعب كلَّ المعتقدات والرّؤى الشخصيّة؛ دينيَّة كانت، أم لا دينيَّة، أو إلحاديَّة.

المبدأ الثَّاني: تضمنُ الدّولة العلمانيّة المساواة الكليّة بين كل المتدينين بمختلف مذاهبهم، واللامتدينين والملحدين أيضًا، وتدافع عن حرِّيتهم المطلقة في إيمانهم، أو عدم إيمانهم.

الدَّولة الوطنيَّة:

كان في عصر القوميَّات الانتماء المجتمعي للقوم أينما حلَّوا، أمَّا في عصر الوطنيَّات فالانتماء الشَّعبي للوطن، أي: إنَّ العلاقة بين بني القوم علاقة اجتماعيَّة، والعلاقة بين بني الوطن علاقة شعبيَّة (مواطنة)؛ ذلك لأنَّ الشَّعب متنوِّع الأعراق؛ فالعلاقة بينه لم تكن علاقة دم كما هي العلاقة بين بني القوم الواحد.

فالدَّولة القوميَّة دولة مُغالبة، ولا معنى فيها للأقليَّات، أمَّا الدَّولة الوطنيَّة فهي: دَولةُ الجميع؛ إذ إنَّ معطيات العلاقة بين أبناء الدَّولة الوطنيَّة: دستوريَّة قانونيَّة، ومن هنا، فهي أكثر من كونها علاقة اجتماعيَّة عُرفيَّة عاطفيَّة تكون فيها المغالبة للعرق، مما يجعل الأقليَّات فيها مواطنون من الدرجة الثّانية.

ولسائلٍ أن يسأل:

ما الفرق بين: الوطن، والمواطنة، والوطنيَّة؟

أقول:

الوطن: حاضنة الشّعب، والمواطنة: حرمته التي لا تمسّ، والوطنيّة: تفاعل الشّعب في وطنه وحرصه على سلامة حرمته.

ولذا فالوطن هو المكان الذي تُبذر فيه الإرادة بين الشَّعب، فتنمو محبَّةً، وثمارها تتدلَّى بين أيدي النَّاس تيجانًا فوق رؤوسهم قِمَّة، وأصواتهم رفعةُ عدلٍ، وسلوكهم قدوة، والحُسنُ في ألوانهم قُزُحٌ، والشَّمسُ مظلَّة النَّاس، والأمن والقُرَّة، والملك بيد الله ثروةُ الوطن، لا عبث ولا ضُرَّة، والحقُّ صوت الشَّعب يمارسه على أرضه الحرَّة، والحِمْلُ إن ثقل على كاهل أحدٍ؛ كالريش خفَّ على الكلِّ والجُلَّة، والواجب مثل الصَّلاة والسَّلام على النَّبي في الشَّرع والملَّة، والموت من أجله وطنٌ يحيي البهاء كلَّه، والوهم إن ساد سادت به علّة[106].

فالوطن بهذه الصُّورة أنموذج لإنتاج العلاقات: مودَّةً، واحترامًا، وتقديرًا، وتفهُّمًا، واستيعابًا، ومشاركةً؛ إذ لا إقصاء، ولا تهميش، ولا حرمان، ولا مظالم، والملكيَّة حق، لا قيود وطنيَّة عليها.

وعليه: لم يعد الوطن كما يراه البعض صنمًا مثل ذلك الصَّنم في العصر الجاهلي، الذي كما سبقّ كره كان يتحدّثُ باسمه كاهنٌ لعبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)؛ فهكذا بعض السَّاسة في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، وهنا إن لم يكن حال الوطن كما سبق تعريفه، فسيكون حاله كحال ذلك

[106] عقيل حسين عقيل كشف أوراق الخلاف في دوائر التاريخ، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020م، ص 45.

الصَّنم؛ فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ)؛ ما يجعل الفارق منعدمًا بين الناطق باسم الصَّنم، والناطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صَنَم.

وعليه: لا شهداء للوطن إنْ لم يكن الوطن للجميع سكنًا، وعيشًا رغدًا، وعدالةً، وملكيَّةً، وممارسة حقٍّ، وأداء واجبٍ، وحمْلَ مسؤوليَّة؛ أي: عندما يمتلك الشَّعب الوطن كلَّه تُصبح التضحيات كلُّها من أجلهم: (من أجل الشَّعب)، وعندما يمتلكه الحاكم فلا تضحيَّات إلَّا من أجل الكاهن.

ومن ثمَّ ينبغي أن نميِّز بين، ثلاثة مفاهيم: (الإيمان، الولاء، الانتماء)، وهنا أقول:

- الايمان تسليم مطلق لا نسبيَّة فيه: (ومنه المستحيل، والمعجز)، وهذه لا تكون إلّا بيد الله تعالى: (الإيمان بالله تعالى).

- الولاء نسب إلى أصلٍ لا خيار في النسب إليه؛ كالولاء للعائلة والقبيلة.

- الانتماء انتسابًا عاطفيًّا تُغذِّية منظومة القيم الحميدة بحيويَّة التمسُّك بالمنتمى إليه؛ كما هي العلاقة بين المواطن ووطنه.

وعليه:

فمن يرى نفسه خليفة؛ أقول له: لقد انتهى زمن الخلافة، كما انتهى من قبلهِ زمن اصطفاء الأنبياء والرُّسُل الكرام الذين ربطوا العلاقة بين السَّماء والأرض: (بين المستحيل والمعجز، والممكن)، وهكذا لن يعود زمن الخلفاء أصحاب رسول الله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ لا وجود لنبيٍّ أو رسولٍ على قيد الحياة المشاهدة، ولا وجود حيٍّ لخليفة صاحب رسول الله، كما هو حال: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ ولهذا فإنَّ أحزاب وتنظيمات الإسلام السياسي التي تدَّعي بأنَّها الخليفة، أو إنَّها قادرة على إعادة نظام الخلافة الإسلاميَّة، هي كمن يرى نفسه قادرًا على إيقاف التَّاريخ عند دائرة من دوائره دون غيرها؛ وذلك من خلال إدارة عجلته إلى الخلف، حتى يقف عند ذلك العصر، الذي كان فيه نظام الخلافة مناسبًا في دائرة النسبيَّة، وهو ذاته النظام الذي لن يكون مناسبًا لعصرنا، والعصور القادمة.

وعليه: لكلِّ دائرة من دوائر التَّاريخ خصوصيَّة ينبغي أن تُقدَّر، وتُعتبر، وتُحترم، ومِن ثمَّ ينبغي أخذ العِبر منها؛ بتجنُّب ما يجب أنْ نتجنّبه، والأخذ بما ينبغي أخذه، أو الأخذ منه.

ومن هنا أقول: لا إمكانية لمن يريد أن يعيد نظام النبوَّة؛ حيث لا تطابق، ولا تماثل مع (محمَّد) عليه الصَّلاة والسَّلام، ونظامه، وزمانه، ومن يريد إعادة نظام الخلافة الرَّاشدة فعليه بإعادة أبي بكر الصّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب، وعثمان بن عفَّان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أحياء على قيد الحياة، وفي المقابل من يريد أن يكون خليفة فعليه بالدَّولة الوطنيَّة خليفة؛ حيث الحقوق تمارس عن إرادةٍ، والواجبات تؤدَّى عن رغبة،

والمسئوليّات تُحْمَلُ مع تحمُّل ما يترتَّب عليها من أعباء جسام، أي: لا خليفة في الوطن إلَّا سيادة الشَّعب؛ إذ لا سيادة لسواه.

وعليه: في دوائر التاريخ عناوين تبدَّلت، وتغيَّرات؛ إذ لكلِّ عصرٍ من العصور رموزه، وعناوينه الموضوعيَّة، وحُججه المنطقيَّة، والعُرفيَّة، والحضاريَّة؛ ولذلك في عصر الدَّولة الإسلاميَّة كانت الرموز والعناوين متعدّدة، ومنها: (النبي، والخليفة، والإمام، والعالم، والفقيه، والشيخ، والقدوة الحسنة)، وكان في زمن الدَّولة القوميَّة: (الشّعارات، والهتافات لمقولات القائد، والبطل)، وهكذا كان الأمر في زمن الدَّول الأيديولوجيَّة، الولاء: (للحزب، ورئيس الحزب، والمرشد، والقائد، والزَّعيم)؛ ولذا كان التداخل في هاتين الفترتين من التَّاريخ بين الولاء للأحزاب، والولاء للأشخاص، أمَّا في هذا العصر فالولاء للدَّولة الوطنيَّة بدلًا من الانتماء للرموز، والانتماء للمشاريع المتنافسة على إحداث النُّقلة إلى المأمولات، بدلًا من الوعود الزَّائفة، التي كانت لا تزيد عن كونها لحنَ قولٍ ووهمًا ينبغي أن يكسر.

الاستبدال بين حقيقة ووهم:

عندما توضع معطيات الاستبدال على كفّتي الاتزان لا شكَّ أنَّ إحدى الكفَّتين تَرجُح على حساب الأخرى؛ وهذا ما يشجّع البائعين والمشترين على البيع والاشتراء، ولكن إن أخذنا هذا المفهوم للاستقراء السياسي نجد أنَّ دائرة الاستبدال تدور بين حقيقة وما يشابهها من وهمٍ، أمَّا الاستبدال في دائرة الحكم السُّلطاني فتروسه تدور بين الحقيقة ومواجهة زيف الوهم.

فالسُّلطان الذي لم يولد من رَحِمِ الشَّعب لا إمكانيّة له أن يكون صادقًا معهم، حتى وإن تظاهر لهم صدقًا؛ فصدقه لا يزيد عن كونه مظهرًا من مظاهر الوهمِ وزيفه، ومن ثمَّ لا إمكانيَّة للمواطنين بأن يكونوا معه صادقين؛ ولهذا دفَّة الأمور في الدّول السُّلطانية كرهًا لا تسير إلَّا بعيونِ الأجهزة الأمنيَّة، التي لا منهج لها إلَّا الشَّكَ ومن بعده شكوك، والظَّن ومن بعده ظُنون، ومع أنَّها الظُّنون الزَّائفة فإنَّ الأحكام بها وفقًا لقوانين السُّلطان قاتلة.

ولأنَّ هذا الحكم السُّلطاني لا يرى من الألوان إلّا الأسود والأبيض (معي أم ضدِّي)؛ إذ لا خيار للشَّعب إلَّا أخذ اللونين وخلطهما ليكون اللون الرَّصاصي بين أيدهم ضرورة وواجبًا:

فهو الضرورة الرصاصيَّة من أجل إشباع الحاجات وإن كانت بالحدّ الأدنى، والواجب الرصاصي وهو الحد الأقصى الذي به تتحيّن الفرص للانقضاض على السُّلطان وكسر الوهم.

ومن ثمّ، يرتبط مفهوم الاستبدال بدلالة وجود البديل، واستبدَالَ الشيء بغَيْرِه إذا أخذ مكانه؛ فالاستبدال يقوم بالضرورة على وجود كينونتين منفصلتين، يفترض أن يؤدّيا دورًا متماثلًا باختلاف مستوى الأداء ونوعه، وهنا، تُحدث الأنا مفاضلة بينهما بما يفضي إلى استبدال القديم بالجديد وفق معطيات مختلفة، ووفقًا للمصلحة، أو المنفعة، التي بها يتمّ تجنّب الأضرار والمخاطر، في حالة ما إذا كان المستبدل معرّضًا للمخاطر،

أو التهلكة والانتهاء، فيصبح التخلّص منه على سُلّم الأولويّات قبل أن يتمّ القضاء عليه من قِبل الآخرين.

ويتّضح هذا الأمر على الصّعيد السياسي بصفة خاصّة عند بعض المقرّبين والموالين للأنظمة الحاكمة؛ فمثل هؤلاء إذا ما عرفوا أنَّ الحاكم أو النظام الذي يوالونه أصبح معرّضًا للسقوط؛ يسارعون بالتخلّي عنه قبل موعد سقوطه، ويتمّ القبول باستبداله؛ حتّى لا يتعرّضوا للمساءلة على ما فعلوا في عهده من مفاسد وجرائم.

أوجه الاستبدال السِّياسي:

الاستبدال السياسي يتمّ على أوجه، منها:

أوّلًا: أنْ تنسحب مجموعة من العناصر التي كانت توالي النظام من ميادين المواجهة، ثمَّ تفرُّ إلى الخارج تحت غطاء الهجرة، وطلب اللجوء السِّياسي، قبل أن يزداد عدد اللاجئين والمهاجرين وتصعب الأمور؛ فهؤلاء الحذّاق كما تسابقوا على اغتنام الفرص وأخذ المغانم والفوز بالمكاسب في ذلك النظام، هم الحذّاق والمنافقون أنفسهم الذين يتسارعون إلى الهروب من أجل المحافظة على تلك المكاسب؛ لأجل سلامتهم وسلامتها من المخاطر المتوقّعة وغير المتوقّعة في دائرة الممكن؛ ولذا فهم أوّل ما يبلغون مأمنهم يقرّون بأنَّ سُلطانهم كان واهمًا.

ثانيًا: الانسحاب من المنظومة الحاكمة والتطلّع إلى الثائرين على تلك المنظومة؛ ليكونوا بديلًا للسّابق مع وافر المنافقة والمبالغة في إظهار المواقف المزيّفة في القول والعمل والسُّلوك؛ وذلك بغاية الاستمرار في نيل

المزيد من المغانم والمكاسب كما كانوا يفعلون؛ فمثل هؤلاء دائمًا يتقلّبون، ولكن في دائرة الممكن فلكلّ قاعدة شذود، فعلى سبيل المثال: بعض الذين انتموا أو عملوا تحت مظلة أحد الأنظمة، ثمَّ لم يقبلوا ارتكاب الممارسات السلوكيَّة التي لا تليق بأخلاق المواطنة الكريمة، ولم يناصروا ذلك الحاكم على ظُلمٍ وباطلٍ؛ فحافظوا على مكارم أخلاقهم وقيم مجتمعهم الحميدة وفضائلهم الخيّرة، ثم انسحبوا تحت مظلة اللون الرَّصاصي هدوء؛ كي لا يتعرّضوا للمخاطر؛ فإنَّ انضمامهم للبديل وأخذه بديلًا لا يعدُّ منقصة يشار إليهم بها؛ فهؤلاء ومن على مثلهم مواطنون لهم أنْ يمارسوا حقوقهم، ويؤدّوا واجباتهم، ويحملوا مسئوليَّاتهم مواطنين كغيرهم من بني الوطن.

ثالثًا: إنَّ المواطن الذي عمل مسئولًا على أيِّ درجة من درجات السلّم الوظيفي دون أن ينافق، أو يسرق، أو يزيّف الحقائق، أو يظلم ويفسد، ثمّ تبيّن له أنَّ انحرافات بدأت تظهر من قِبل ذلك الحاكم الذي هو أحد أعضاء حكومته؛ فليس له بدٌّ في دائرة الممكن إلّا العمل من أجل البديل الجامع والممكِّن من الإرادة والسِّيادة الوطنيَّة.

والبديل يمكن أن يكون شرعيًّا ويمكن ألا يكون؛ فالشّخص الذي كان قريبًا مقرّبًا لقريبه وهو على قمّة سُلّم السلطان، وعمل ما في وسعه من أجل نيل المكاسب والمغانم وارتكاب المظالم، ثمَّ أسرع بأخذ البديل الأوّل؛ فلا ثقة فيه مع أيِّ بديل يُتّخذ وإنْ تلوّن بجميع الألوان.

فالاستبدال هو ذلك القرار المرتكز على معطيات سابقة أو آنيّة، وينبثق من قراءة متغيّرة بين الواقعيّة والنفعيّة؛ واقعيّة عندما يحدث اختلال

قيمي بين المستبدل القديم والبديل الجديد، بحيث تُرجَّح كفَّة البديل الجديد بما يستوجب استبداله، أمَّا النفعية فهي ترجيح محض لمصلحة الأنا في ضوء متغيّرات الحدث ونتائجه المتوقّعة أو غير المتوقّعة.

وفعل الاستبدال يوجب وجود البديل، وجودًا محدثًا في صورة الاستبدال الواقعي، ومسبقًا في حالة الاستبدال المنفعي، وفي هذه الحالة تكون الأنا قد أسّست البديل من قَبل وجعلته في خانة الانتظار لحين وصول اللحظة التي تدفع الحسابات النفعيَّة لاتخاذ قرار الاستبدال، وترك وهم السُّلطان يكسر.

أوجه الاستبدال:

يأخذ الاستبدال أحد الوجهين الآتيين:

1 . الاستبدال الموجب:

إنَّه من البديهي في دائرة الثنائيَّة الضديَّة أن يكون لدينا وجهان للاستبدال؛ وجه موجب، وآخر سالب؛ فالموجب هو ذلك الاستبدال الذي يتمثّل بغاية إصلاحيّة، تهدف من خلال القراءة الحثيثة للمعطيات الانتقال بالإنسان نحو الأفضل من خلال استبدال كلّ ما أصبح في حركة الزّمن متخلّفًا، أو باليًا، أو منحرفًا، أو معوِّقًا للتقدّم من أجل البديل الذي يدفع بمسيرة الحضارة الإنسانيَّة المجسّدة في الإعمار والإصلاح نحو الأفضل والأجود حتى بلوغ الحلّ؛ ولهذا يعد هذا الاستبدال الشكل الموجب للفعل الإنساني؛ ذلك لأنَّه استبدال قيمي، بمعنى: أنَّه ينطلق من قياس حقيقي لقيمة المستبدل ووجوب استبداله، فهو بالقياس إلى البديل الجديد أقلّ

قيمة من ذلك السّابق؛ ومن هنا وجب أن يحصل فعل الاستبدال بناء على المعياريّة الموضوعيَّة؛ ففي مسيرة الإصلاح والإعمار لا يمكن أن نقتصر في عصرنا على استخدام أدوات استخدمت قبل مائة عام؛ ولذا لا بدّ من حصول عمليّة الاستبدال بما يوافق التطوّر الهائل في الفكر الحضاري ومنجزاته العمليّة؛ وذلك بوجود بدائل جديدة متنوّعة وخلَّاقة من أجل إحداث النُّقلة إلى المستقبل المأمول إنسانيًّا وحضاريًّا؛ أي: لا بدّ من استبدال تلك الوسائل بوسائل جديدة أكثر إيجابيَّة في بناء التقدُّم والارتقاء الحضاري والإنساني.

ومن ثمَّ فعلى مستوى الإنسان وقيمه يحصل فعل الاستبدال عندما يتأكّد أنَّ قيمًا بالية كان شديد التمسّك بها لم يعدّ لها قيمة أمام القيم التي تعرَّف على حقيقة منافعها وفوائدها من بعد.

2- الاستبدال السَّالب:

يقوم الاستبدال السَّالب على مقياس منفعة الأنا بغض النّظر عن القيمة الحقيقة للمُستبدل، وإن كانت قيمة المستبدل هي أكثر من قيمة البديل، ولكن الحسابات النفعيّة ترفض جعل القيمة الحقّة مقياسًا لفعل الاستبدال؛ ولهذا فإنَّ مثل هذا الاستبدال هو نمط أناني يجعل دائرة القرار محصورة بحسابات الرّبح والخسارة.

ومن الجدير بالقول: إنَّ هذا النَّوع يسود الذوات الضعيفة والانهزاميَّة المنسحبة؛ ذلك أنَّها لم تبنِ لها قاعدة قيميّة تمكّنها من الارتكاز المستمر في قراراتها المفضية إلى التمسّك بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة؛ ولذا فهي

ذوات فارغة من مضامينها، وهي أقرب ما تكون إلى صورة بالُّونة الهواء؛ مع أنَّها ملوّنة وجميلة لكنّها لا تحتوي إلّا على الهواء، فهي فارغة من كلِّ ما يمكن أن يكون له قيمة سوى الهواء قيمة الحياة المجانيَّة؛ لذلك نجد مثل هؤلاء يتّخذون قرار الاستبدال ما إن يشعروا أنَّ خطرًا محتملًا يهدّد منافعهم ومكاسبهم ومصالحهم التي يعتقدون أنَّها رأس مالهم الوحيد، وأنَّ كلَّ شيء آخر لا قيمة له حتّى وإن كانت له عند الآخرين قيمة.

مرتكزات الاستبدال بين الحقيقة والوهم:

الاختيار:

يمكن القول: إنَّ الاستبدال المرتكز على الاختيار يقوم بشكل أساس على مبدأ التفضيل؛ ذلك أنَّ الذوات تتفاضل في نواحٍ كثيرة، الأمر الذي يفضي إلى إمكان تفضيل ذات على أخرى وفقًا لمبدأ الاستبدال الاختياري، ووفقًا لمقاييس منطلقة من إحاطة الأنا بقيمة ما هو قابل للتفاضل وصولًا إلى قرار الاستبدال الذي يتأسّس على مبدأ المفاضلة مع الإقرار بقيمة المتروك من القيم المستبدلة.

إنَّ الاستبدال الاختياري في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع يكون بين أفضل وأفضل منه، أو حسن وسيء، أو بين سيء وأسوأ منه، ممّا يجعل الحركة في حالة امتداد على سُلّم القيم صعودًا وهبوطًا، ولكلٍّ ثمنه الذي لن يكون متساويًا في حالتي: السِّلم والحرب، ومع ذلك لكلِّ حالة من الحالتين هامش امتداد وانكماش؛ ففي حالة السِّلم وقمّة سلّم السُّلطان ما زال مسيطرًا (يتحكّم في الأمر)، وله المقدرة على حسم الصّراع فلا إمكانيَّة

لمنتفع أن يغيّر رؤاه تجاه بديل مشكوك في أمره؛ فالمنتفع لا يميل سلبًا أو إيجابًا إلّا مع ميول النظام سلبًا أو إيجابًا، وفي حالة ما إذا اختار السُّلطان الميل سلبًا (إلى دخول المعارك القاتلة) فلا يميل مع السُّلطان إلا الواهمون، أمَّا النفعيون فلا يميلون إلّا مع ما يحقق لهم المكاسب؛ ولهذا فالنفعيون لا يخلو وهمهم من أخذ الحذر مع أنَّ كثيرين منهم لا يحفظون جدول الضّرب؛ ولهذا فهم في الوقت الذي يتبدَّلون فيه من مولاة سُلطان إلى موالاة سلطانٍ يتوقعون ميلاد سُلطانٍ آخر.

ولذا فهم في حالة الحرب أو ظهور الاضطرابات أو المواجهات لهم ميولٌ أخرى تميل بهم في الاتجاه الأكثر سلامةً، أي: في اتجاه الابتعاد عن كلّ ما يقرّب من الخطوط السّاخنة؛ تجنّباً لفقدان المنفعة.

إنَّ الميل الإيجابي المتوقّع من وجهة نظر البعض من المحايدين لو كان هناك ميل إيجابي من أولئك النفعيين مع النظام المتّجه إلى الهاوية لا يمكن أن يكون إلّا معه مناصرة من أجل البقاء المشترك أو الفناء المشترك، والمناصرة قد تكون متكئة على مبررات المنفعة المشتركة، أو رابطة العصبيّة، أو الإحساس بالخطر الآتي من الآخرين الذين لا يفرِّقون بين رأس النظام وأعوانه على مختلف درجات سُلّم السّلطان، وفي دائرة الممكن أيضًا هذا الأمر يجعل البعض يفكّر مرّتين بين الاستسلام؛ تفاديًا لمزيد من سفك الدّماء، أو أن يقبل دفع الثّمن، وفي مثل هذه الحالة فإنَّ نظرة الواهمين لا تتجاوز أصابع أقدامهم.

أمّا أولئك الذين لا تقودهم الأوهام فسيظلون متمسّكين بإحقاق الحقّ في مواجهة الزيف، فهم رجال لا تلههم تجارة ولا بيع، وما الحياة الدنيا عندهم إلا متاع الغرور، قال تعالى: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[107].

الإرادة:

الإرادة وعي بما يجب وبما لا يجب، وهي قرار يصدر للإقدام الاختياري دون إكراه على ما يجب أو ما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسئوليّات، والإرادة وثيقة الصّلة بالوعي بفعل يحقّقها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس، الذي يُظهر العلاقة القويّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

والإرادة في دائرة الممكن تكون مسئولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسئولة عن الأخذ بالبديل تحقّق للفاعل وللموضوع الاعتبار والاعتراف والتقدير، وعندما لا تكون مسئولة عن اختيار البديل لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل تحقّق له النّدم يوم لا ينفع.

إذن، الإرادة قرار يحمل مسئوليّة، والمسئوليّة لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب على ما أقدم عليه من

[107] النور 37، 38.

أخذ ببديل على حِساب بديل آخر، سواءً أكان المترتّب عليه سالبًا أم موجبًا.

ولأنَّ الإرادة نتاج قرار قابل للتنفيذ؛ فهي بعد التنفيذ في دائرة المتوقّع تُمكِّن من تحمُّل أعباء المسئوليَّة دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل من دون توافر الإرادة؛ فلا يحقّق للفعل إنجازًا بعلل الخوف والتردّد.

فالإرادة المسئولة الواعية التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام لا ندم من بعدها؛ ولهذا فلكلِّ شيء قاعدة إصلاحيَّة واستثناء إفسادي.

وفي مقابل هذه القواعد تظهر الاستثناءات، ممّا يجعل مَنْ وضع نفسه على قمّة سلّم السّلطان مهيمنًا على الأمر السِّيادي في خانة الاستثناءات مطاردًا، حتى وإن نصَّب نفسه شرطيًّا مدَّعيًا سلامة الوطن والأمن العام وتنفيذ القوانين بحزم، أو حتى وإن نصَّب نفسه واعظًا ومرشدًا.

ومن هنا فكلّما اشتدّت المطاردة، واشتدّت التأزّمات بين قاعدة الاعتبار (الشعب) وقمّة سلّم السّلطان، وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هم في دائرة الاستثناءات، أصبح الموت عندهم مطلبًا مع توافر الرّغبة؛ ولهذا يفقد من هو على قمّة سلم السّلطان مكانته، ويفقد الشرطي سلاحه، والواعظ حُجَته التي بها يلاحق الآخرين، ويكون كلّ منهم ضحيّة مستبدلًا بلا ثمن.

وعليه: فإنَّ الموت الذي هو سلب الحياة يتحوّل إلى قيمة عالية بها يتمّ نيل الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملًا يرجو تحرير الوطن،

أو صدّ خطر يحاك ضدّه، أو ضدّ الشَّرف والدين والقيم الحميدة والفضائل الخيّرة.

ويتصوَّر كثير من النّاس أنَّ الإرادة هي حُسن الاختيار، لكن لو كان الأمر كذلك، لكان المسميان لمعنى واحد، والدليل على ذلك أنّ الإرادة عندما تكون أمام أمرين فإنَّها تختار أحدهما، أو تستبدله دون الآخر، وكذلك؛ فإنَّ الإرادة عندما تتخذ قرارها يكون هذا القرار في اللحظة نفسها اتجاه هذا الأمر، أمّا الاختيار فيكون من أمور متعدِّدة يقع الاختيار على واحد منها يتمّ دفعه للإرادة التي تتّخذ قرارها فيه.

فالاستبدال، إمَّا أن يكون بين أمرين، أو اختيارين وفقًا لِما تمليه القيم، أو ما تمليه المصلحة، أو حتّى ما تمليه الأطماع، وإمّا أن يكون الاستبدال الإرادي من متعدّد البدائل؛ فالإنسان بإرادته الحرّة يستطيع أن يختار أو يستبدل ما يشاء وفقًا لتفضيلاته، أو وفقًا لِما هو أقلّ ضررًا، بين هذا وذاك في دائرة الممكن، ويستطيع الإنسان أن يُرتِّبَ بدائله وفقًا للمتاح مع مراعاته للظرف الزّماني، والمكاني، ولكلٍّ خصوصيَّة لا تتطابق مع خصوصيات الآخرين وإن تماثلت معها.

ولأنّ العلاقة قوّية بين الإرادة والاختيار والرّغبة في الاستبدال، ودرجة التفضيل بين ما هو قابل للاختيار منه، أو قابل لاستبداله بالكامل، فإنَّ التقييم للاستبدالات أو الاختيارات والتفضيلات يُسهم في تهذيب الإرادة وتطويرها وتغييرها من أجل استبدال ما هو أفضل أو أنفع، وهكذا

تتحسّن الأحوال وتقوَّم من قِبل الواعين بما يجب وبما لا يجب لتكون السُبل ممهّدة تجاه غايات مستنيرة بالحقّ وموجبات إحقاقه.

والاستبدال الإرادي هو في واقع الأمر تقديري، بمعنى: أنّه يقوم على تقدير الأنا للقيمة المفترضة، ثمَّ تقييم تلك القيمة وصولًا إلى قرار الضرورة الإراديَّة للاستبدال؛ فالتعويض مثلًا: هو استبدال إرادي لفاقد يجب تعويضه لضرورة أو لرغبة أو حاجة.

الاضطرار:

تواجه الأنا جملة من التهديدات والتحدّيات التي تعصف بمخطّطاتها المأمولة، الأمر الذي يجعل الأنا في دائرة الاضطرار للقيام بفعل الاستبدال؛ وذلك عندما تكون التحدّيات والتهديدات أكبر من قدرة الأنا على المواجهة، فيتحقّق الاستبدال هروبًا وانسحابًا، وذلك بالتحوّل نحو البديل المفترض الذي سبق تأسيسه على نحو يجعله البيئة البديلة لاستيعاب الأنا المستبدِلة في أي وقت تشاء؛ فوجود البديل الافتراضي المؤسّس يجعل فعل الاستبدال واردًا في كلِّ حين.

فالذين ينتمون إلى نظام مَن هو متربّع على قمّة سلّم السّلطان من أقارب وأباعد في أيّام حُكمه دون أن يرشدوه ولو بموعظة، بل إنَّ منهم من زيّن له كلّ فعلٍ متعارضٍ مع القيم الحميدة والفضائل الخيّرة للنَّاس، ثمّ إذا تعرّض نظامه لضائقة أو تعرّض للانهيار تركوه بأسباب مكاسب جنوها بغير حقّ من مكاسب الشّعب (ثروةً واقتصادًا ومالًا)؛ فهؤلاء على أحد وجهي الاضطرار من حيث:

. إنَّهم مضطرون للتخلّي عنه من أجل الحفاظ على ما اختلسوه من ثروة الشَّعب؛ فيفرّوا مسرعين بما كسبوا هروبًا لتلك البلدان التي سبق لهم أن هاجروا إليها بوصفها بديلًا بالنسبة إليهم عند كلّ شدّة، وبخاصّة إذا لم ينسفوا جسور العودة بمحافظتهم على علاقات هناك في تلك البلدان، التي امتلكوا فيها أو فتحوا معها أبواب التجارة، وبخاصّة إذا كانت لهم فيها مشاركات، أو إنَّه قد سبق لهم امتلاك حقوق المواطنة المزدوجة؛ ممّا جعلهم على حالة من ازدواج الهويّة والانتماء، وازدواج الوثائق الشخصيّة التي تُثبت وجودهم مواطنين أينما حلّوا؛ ولذا فالوطن الذي يعبأ على مثل هؤلاء لا يفاجأ إذا واجهه ما واجهه من مخاطر في دائرة غير المتوقّع، وعند المواجهة يكتشف أنَّه كان واهمًا.

أمَّا الاضطرار الموضوعي فهو ذلك الاضطرار الذي لا يكون إلّا من أجل النجاة من أفعال الظُّلم التي قد تلحقهم من الذين تمتلئ أنفسهم غضبًا على ذلك الدكتاتور ونظامه الفاسد؛ فهؤلاء مضطرون، وكحالِ من كان في مخمصةٍ؛ فلا يُلقي بنفسه إلى التهلكة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[108].

القسرُ:

القسرُ نمط من أنماط الاستبدال لا يتحقّق إلّا إكراهًا؛ وذلك حين تفرض الأنا فروضها القيميّة أو المادّيَّة أو الفكريَّة قسرًا، وتطالب الآخرين بتبنّي تلك الأطروحات كرهًا، هذا الأمر يفضي إلى اتخاذ الآخرين قرار

[108] البقرة: 173.

الاستبدال؛ لأنّه ما من ذات حُرّة في اختياراتها ترضى أن تُكره على ما تعتنق أو تؤمن، ولو أبدت رضاها المصطنع إلّا أنّها في الحقيقة لتوهم المكره المخيف، ولتتحيّن الفرصة للانقضاض؛ من أجل إظهار حقيقة فعلها الذي استبدلت فيه كلّ ما أكرهت عليه ببديل هو في دائرة المتوقّع بناء على معطيات الواقّع، وربّما غير متوقّع وخارج معطيات الواقع، فالإكراه يولّد ردودًا تصل في بعض الأحيان إلى درجة الغرابة والتطرُّف والانحراف؛ ولذا يكون واهمًا من يعتقد في ولاءات المكرهين.

والقسر فعل قهري لا مكان فيه للإرادة، ممّا يجعل الأفعال المترتّبة عليه لا تحقّق الطمأنة في نفس المكرِه، وإن أوهم المكرِه نفسه أنّه بما أقدم عليه من قسرٍ للآخرين سيؤمِّن به حاله أو نظامه، ولا يستغرب إن واجهته المفاجآت بما أنَّ الأمور قد تأسّست على الإكراه والقهر والإجبار؛ ولذا فالبحث عن البديل يعدّ من الضرورات المهمّة بالنّسبة إلى من تمّ إكراهه وقهره بالقوّة على القول أو الفعل أو العمل أو السُّلوك الذي ليس بحقٍّ؛ فالبديل بالنسبة إلى من أكره هو المخلّص من المظالم والمكائد والمكر والقسر، وهو المنقذ من التأزُّمات والشدائد؛ ومع ذلك قد يكون المنقذ عادلًا، وقد يكون ظالما؛ فكلّ شيء يؤسّس على المظالم والمفاسد والإكراه لا بدّ أنْ تواجهه المقاومة السريّة أوّلًا، ثم العلنيّة ثانيًا (طال الزّمن أم قصر)، وبهذه المعطيات تنمو الخلايا السريّة النَّائمة بعناوين متعدّدة ومختلفة من أجل الإقدام على استبدال المكرِه قسرًا، وهذه لغة القرن العشرين ومنطقه، الذي كان الاستبدال يسوده من أجل التغيير من حالٍ إلى حال، حتى وإن كان البديل ليس على مستوى المسئوليّة؛ فالمهم بالنسبة إلى الذين أُكرهوا

على ما لم ينزّل الله به من سلطان، هو التغيير على أمل تصحيح الأحوال، ولكن في كثيرٍ منها ساءت الأحوال على البعض أكثر ممّا كان سابقًا عليهم من قبل، وهنا ستبدأ حلقة جديدة تناضل من أجل ممارسة الحرّيَّة وكشف الوهم.

أمَّا لغة القرن الواحد والعشرين ومنطقه فهما غير ذلك، إنَّهما اللغة والمنطق الموجّهان لمن هم على قمّة سُلم السّلطان مباشرة وفقًا لقاعدة: (ارحل عن إرادة وإمَّا سترحّل قسرًا)؛ فتفجّرت الثورات وكان الرّحيل النهائي لمعظم الذين ظنّوا أنَّهم سلاطين زمانهم، كما هو الحال في تونس ومصر وليبيا واليمن، وهكذا سيكون الحال من بعدهم موجّهة إلى كلِّ مستبدٍّ تربّع على العرش السُّلطاني بوهمٍ قد تمَّ كشف زيفه.

وعليه: فالفرق كبير بين لغة الاستبدال في القرن العشرين ومنطقه، ولغة الاستبدال في القرن الواحد والعشرين ومنطقه؛ ففي القرن العشرين كان المهم أن يتمّ الاستبدال من أجل التغيير والإصلاح، أمَّا في القرن الواحد والعشرين فالاستبدال من أجل بلوغ الحلّ؛ ولذا فالفرق كبير بين الإصلاح والحلّ؛ فالإصلاح دائمًا للقديم بهدف المحافظة على بقائه، أمّا الحلّ فهو المولود الجديد، أي: إنَّ الإصلاح يحافظ على القديم وملامحه، أمَّا الحلّ فهو إظهار الجديد في مظهره الذي يستوعب الجميع حيث لا إقصاء، ولا تغييب، ولا تهميش، ولا حرمان، ولا وجود لمظلّة تعيد الوهم كرها من جديد.

معاهدات توليد الوهم الدولي:

المعاهدات والاتفاقيَّات الدّوليَّة عندما تعقد وتعلن من فوق الطّاولات لم تكن وليدة تلك السّاعات المنعقدة، بل الولادة الفعليّة لا تكون إلَّا تحت الطّاولات، مما يجعل الجلوس على الطّاولات لمجرد الإشهار؛ كي يعلم الجميع ويقف كلٌّ عند حدّه، وكلٌّ لا يكون إلَّا شاهدًا حتى وإنْ كان الأمر يتعلَّق بمصيره أو مصير هويّته ووطنه (إنَّها لغة الأقوياء المنتصرين، أمَّا الضّعفاء المنهزمون فالصَّمت يكفي)، ومن هذه المعاهدات:

معاهدة سايكس بيكو:

هي المعاهدة التي أنهت سيادة الدّولة العثمانيَّة، وقسّمت معظم الوطن العربي إلى دويلات عام 1916م وبذلك التقسيم كَسَّرت تلك المعاهدة وهمُ الإمبراطوريَّة العثمانيّة، وقسَّمت الوطن العربي إلى دويلات تكون خاضعة لإرادة المقسمين له وهما: (فرنسا وبريطانيا)، وبالفعل كُسر وهمَ الامبراطوريَّة العثمانيَّة، وكسر الوطن العربي إلى قطعٍ صغيرة إذا ما قورنت بوحدة الوطن وعظمة هويّته، وأخذت المعاهدة عنوانها: (سايكس بيكو) من الاسمين:

- مارك سايكس الإنجليزي (وكيل وزارة الخارجيَّة للمملكة المتحدة).
- فرنسوى جورج بيكو الفرنسي (الموظف بوزارة الخارجيَّة الفرنسيَّة).

عُقدت اجتماعات معاهدة (سايكس بيكو) في مدينة (بطرس برج) بروسيا عام 1916م وكانت اجتماعات سريَّة تحت الطَّاولة، ولم تكشف أوراقها ويعلن عنها إلَّا بعد الثورة البلشفيَّة 1917م، والتي من بعدها انسحبت روسيا من المعاهدة مع أنَّ انسحابها لا يعني شيئًا؛ ذلك لأنَّه لم يغيِّر شيئًا.

تمَّ الاتفاق بين سايكس وبيكو بمصادقة روسيا القيصريَّة على تقسيم الشَّام والعراق بين بريطانيا وفرنسا، وأعطي شرق الأناضول لروسيا، وبقي القدس تحت الرِّعاية الدوليَّة إلى أن تمَّ من بعده وعد بلفور الذي أعطى فلسطين للإسرائيليين.

وعليه: فإنَّه تاريخيًّا (فرنسا وبريطانيا وروسيا) هي الدِّول التي قسّمت الوطن العربي، ولم تترك لشعوبه سوى وهمٍ، ومن ثمَّ فمن يعتقد من العرب أنَّ هذه الدّول ستناصره فيما يخالف هذه المعاهدة سيكون من أكبر الواهمين.

ومن هنا فمن يحاول أن يرفع شعار الوطن العربي، والوحدة العربيّة سيكسَّر بأوهام معاهدة (سايكس بيكو) وأقصد بأوهامها: أنَّ تلك الدِّول تعرف جيِّدًا أنَّ العرب أمَّة عظيمة (مخيفة)، قادرة على التحدِّي وبلوغ الخوارق، ولها رسالة، وهذه جميعها شكّلت وهمًا لدى تلك الدِّول، مما دعا ساستها لأن يفكِّروا في ذلك الزَّمن في تقسيمها، حتى لا تَعظُم وتصبح قادرة على تصدّر التَّاريخ كما سبق وأن تصدرته بقوّة الإسلام وعظمته،

فقرّروا تقسيم الوطن وكسر الهويّة العربيّة الإسلاميَّة، ثمَّ نفَّذوا قرارات التقسيم.

معاهدة أوشي (لوزان):

كانت اتفاقيَّة كسر الوهم الذي أزعج أوروبا من التوسع الذي تمدّدت فيه الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، ولكن بعد أن بدأ الضّعف والوهن ينخر مفاصلها قبلت الجلوس والتفاوض في 1912/10/15م وجلست على طاولة التفاوض مع الوفد الإيطالي بمدينة لوزان السويسريَّة وبالتحديد في قصر (أوشي)، وكانت أهم بنود الاتفاق:

– أن يصدر السُّلطان العثماني خلال ثلاثة أيَّام استقلال ليبيا، وتمَّ ذلك يوم 1912/10/16م.

– أن يعين السُّلطان العثماني ممثل ديني له، مهمته تولي الإشراف على الشئون الدينيَّة في ليبيا، وتمَّ ذلك يوم 1912/10/16م.

– يصدر الملك الإيطالي مرسومًا بالعفو العام عن كل المقاتلين العرب الذين قاتلوا إيطاليا، ويعترف بالممثل الديني الذي تم الاتفاق عليه، وأن يسمح لليبيين بممارسة شعائرهم الدينيَّة، وثمَّ ذلك بذات التاريخ 1912/10/16م.

– إيقاف الحرب بين إيطاليا وتركيا.

– يصدر السُّلطان العثماني قرارًا بالعفو عن الأتراك الذين قاتلوا مع إيطاليا في الجزر التركيَّة المحتلَّة.

– تتعهّد تركيا باستدعاء جنودها من ليبيا.

- تتعهد إيطاليا باستدعاء جنودها من الجزر التركيَّة المحتلة.
- تتعهد إيطاليا بعقود تجاريَّة مع الدّولة العثمانيَّة.
- تؤيّد إيطاليا الدّولة العثمانيَّة في مطلبها عقد مؤتمر دولي لوضع حد للامتيازات الأجنبيَّة بممتلكات الدّولة العثمانيَّة.
- إعادة الإيطاليين الذين طردتهم الدّولة العثمانيَّة من أراضيها وعددهم 5000 إيطالي وتعيدهم لسابق أعمالهم، وتعيد لهم ما صودر منهم أو أخذ.
- تتعهد إيطاليا بدفع ألف مليون ليرة للدّولة العثمانيَّة، وتمَّ استصدار الاتفاق يوم: 18/10/ 1912م[109].

وبناء على هذه المعاهدة ثم الاتفاق المرضي بين الدَّولتين، ولم يبق لليبيين إلَّا وهمًا.

وعليه، أقول: لا يليق بمن يتم احتلال بلاده أن يعشق المستعمرين، فمهما عشقت من عشقٍ لهم فليس لك منهم إلَّا وهمًا.

وهكذا في المقابل سيكون واهمًا من يعتمد على الأجنبي في تحرير وطنه من الغزاة، فالوطن إن لم يقاتل عنه أبناؤه فلا إمكانيَّة لعودته إليهم إلَّا وهمًا.

معاهدة لوزان الثَّانية:

إنَّها معاهدة كسر أوهام الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، وقد جرت وعقدت في مدينة لوزان السويسريَّة 1923م، وقد تكوَّنت معاهدة لوزان من 143

---

[109] محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، دار النفائس، الطبعة العاشرة: 2006 م، ص 115.

بند قُسِّمَت إلى عدَّة أقسام رئيسة، وهي: مؤتمر المضائق التركيَّة، وتبادل إلغاء التعهُّدات، وتبادل السكان بين اليونان وتركيا.

إنَّها المعاهدة التي وُقِّعت بين كل من الحلفاء الذين انتصروا في الحرب العالمية الأولى وعلى رأسهم فرنسا وبريطانيا وروسيا، والجمعية الوطنيَّة العليا للحركة القومية التركيَّة بقيادة مؤسّس الجمهورية التركيَّة الحديثة مصطفى كمال أتاتورك[110].

وُقِّعت معاهدة لوزان الثانية بين الدِّول الأوروبية المنتصرة في الحرب العالميَّة الأولى وتركيا المنهزمة، وبموجبها حصل الأتراك على اعتراف أوروبي بدولة تركيا الحديثة العلمانيَّة ودعمها، على أن تحتفظ بالأناضول وتراقيا الشرقيَّة (الجزء الأوروبي الحالي من تركيا) في مقابل أن توافق تركيا على استقلال الدول والمناطق التي كانت تحت سيطرتها.

ومن أهم بنود الاتفاق:

- اعتبار مضيق البسفور ممرًّا دوليًّا ولا يحق لتركيا أنْ تحصِّل أيَّة رسوم على السُّفن العابرة له.
- منع تركيا من التنقيب عن البترول في أراضيها.
- إعلان علمانيَّة الدّولة[111].

وعليه:

---

110 Finkel, Caroline, Osman's Dream, (New York: Basic Books, 2005, p 57.

111 Glasse, Cyril, New Encyclopedia of Islam, (Rowman Altamira, 2003, p 229.

فإنَّ الوهم الذي قيَّد تركيا مائة عامٍ من عمرها، حان وقت طي صفحاته؛ ذلك لأنَّ المائة عامٍ أصبحت في نهاياتها 1923م؛ ولذا فعندما ينكسر وهم القيد، هل ستبقى تركيا وكأنَّ قيدها لم يكسر، أم أنَّها ستكون طائرًا خارج القفص؟ وفي المقابل من تعوَّد على رؤيّة الطائر داخل القفص هل يقبل بمشاهدة القفص فارغًا؟

الأمر لن يصبح هيِّنًا، خاصَّة وأنَّ حدوده قد تتجاوز دائرة المتوقَّع إلى ما هو ليس بمتوقَّع، ومن ثمَّ فإنَّ إعادة الطَّائر الذي أصبح يحلِّق في آفاقه العالية ليس من السهل إعادته إلى القفص، ومن هنا سيكون الثّمن غاليًا في حالتين:

- حالة ما إذا كان وهم الطَّائر بلا سقف ليقف عنده.
- حالة ما إذا كان الواهم مازال واهمًا أنَّ حال الطائر في القفص لا ينبغي أن يختلف عن حاله يحلِّق في السّماء.

وبالتَّالي: ستكون أهميَّة التنقيب عن النفط بالنسبة إلى تركيا الجديدة متوازيًا مع أهميَّة السيطرة على مضيق البسفور، الذي ستكون الدخول منه مكوِّنة لرأس مال مضاف إلى رأس المال التركي.

ولذا أقول: الأمر لم يعد هينًا، فمضيق البسفور سيترتّب عليه أحد أمرين:

- اتفاق وانسجام تركي روسي.
- عداء واقتتال بينهما؛ لأنَّ مضيق البسفور يعد مخنقًا للبحر الأسود الذي لا إمكانيّةِ للحركة الرُّوسيَّة إلَّا من خلاله، وفي حالة ما احتدم الخلاف سيأتي الغرب بجميع ألوان طيفه، وفي مقدّمته الولايات المتحدة

الأمريكيَّة لمناصرة الاتراك كما جاءت من قبل مناصرة لهم عام 1954م عندما قرَّر ستالين إعادة بعض المناطق التي كانت تحت سيطرة الأتراك، ثمَّ إقامة قواعد على حساب تركيا؛ ولهذا انضمت تركيا إلى حلف الناتو وأصبحت فيه عضوًا فاعلًا.

ومن هنا فإنَّ المستقبل سيكون مخيفًا وعنيفًا، وتركيا إن لم تفكّر أكثر من مرّة فيما تفكِّر فيه ستكون هي الخاسرة؛ ولأنَّ المستقبل مخيف وعنيف فقد يعاد تشكيل كتل العالم من جديد، مما قد يجعل روسيا وتركيا في تحالفٍ مع جزءٍ من أوروبا التي لن تكون كتلة واحدة، أي: ستكون بين كتلة شرقيَّة وأخرى غربيّة، ومع ذلك على تركيا أن تعيد قراءة التَّاريخ قبل أن تقرر، وبالتحديد تعيد قراءة علل الهزيمة قبل أن تعيد قراءة أسباب النصر.

وفي المقابل قد يحدث توافق وتحالف تركي أوروبي أمريكي يجعل من البسفور مخنقًا لروسيا، ومع ذلك لا أعتقد أن تكون روسيا غافلة عن خطورة هذا الأمر وأهميَّته، حتى ولو أدَّى بها الأمر إلى التنازل عن جزيرة القرم.

معاهدة يالطا:

معاهدة يالطا أو اتفاقيّة يالطا هي الاتفاقيَّة الموقعة بين الاتحاد السوفيتي بزعامة (ستالين) وبريطانيا بزعامة (تشرشل) والولايات المتحدة بزعامة (روزفلت) في 11 فبراير 1945م. وأخذت المعاهدة اسم المدينة السوفييتية يالطا عنوانًا لها، وبها عُرفت.

لقد ناقش المؤتمرون كيفيَّة تقسيم ألمانيا، وكيفيَّة محاكمة أعضاء الحزب النازي وتقديمهم كمجرمي حرب، بالإضافة إلى كيفيَّة تقسيم ألمانيا هل إلى أربع كما رغبت بريطانيا والولايات المتحدة؛ أي: بزيادة فرنسا، أم إلى ثلاث كما رغب الاتحاد السوفيتي، فكان الاتفاق أن تأخذ فرنسا حصّة لها مما أجيز للولايات المتحدة وبريطانيا، وهكذا بالتمام تمّ تقسيم مدينة برلين بالكيفيَّة التي قسمت بها ألمانيا.

وتمّ الاتفاق على تقسيم دول العالم وإيقاف الحرب العالمية الثانية، بين دول تحت السيطرة، ودول نفود ومصالح، وكان ذلك للحد من أوهام المواجهات واحترام المكاسب والمغانم التي تم الظفر بها على حساب الدول المنهزمة في الحرب العالميَّة الثَّانية، كما ترتّب على ذلك قبول الخلاف وفقًا لقواعد الحرب الباردة.

الفِكرةُ الحلّ تكسر الوهمَ:

تُنتِّج الفكرة الحلّ تدبُّرًا عقليًّا ولا شيء غير العقل ينتجها، ولكنّها لا تنتج إلّا باستفزازٍ ذهني يثيرها بمشاهدةٍ تولِّدُ في العقلِ حيرةً؛ وبذلك تعدُّ من إعمال العقل الذي يستمدّ الشيء المجرّد من الشيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونيَّة والطّبيعيَّة، ولأنّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، ولَّدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول وبين الحقيقة والوهم.

ومع أنَّ الفكرة الحلّ تخلّص من الحيرة والوهم، فإنّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدهما؛ فالحيرة بالنّسبة إلى الفكرة تعدّ مخاض ولادة، والوهم لا يكون إلَّا عتمة حائلة بين العقل والاستنارة، وولادة الفكرة من دون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتولد مشوّهة، ومن هنا ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعدّ سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاءً، فإنّه الأمر المحيّر والمستفز لعقول الآخرين إيجابًا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم وتكسر الوهم.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكريّة مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء؛ ولذلك فالبحوث العلميّة ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّز على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع لكسر الوهم.

إذن: فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يقتنص له حلّ، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشيء استحالة، أو إعجازًا، أو ممكنًا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلًّا وتكسر الوهم.

وهذا لا يعني: أنْ تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلّ، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق والوهم بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي

لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة في تحدّ؛ فلا إمكانيّة لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة القادرة على إبطال الوهم.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم إنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة إلى آدم لم يكن مولودًا، بل مخلوقًا خلقًا مباشرًا بلا أب ولا أم؛ ولهذا ما وجد عليه فهو المخلوق معه خلقًا، أمَّا بنوه فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده؛ فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: حالهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ولكن في دائرة الممكن يصل مبلغه تعلّمًا وتعليمًا[112].

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة إلى آدم عليه السّلام هو حياته في كونين مختلفين على التّمام؛ كون الارتقاء (الجنّة) وكون الدّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقًا، خسرها خُلقًا؛ وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا، بدأ يفكّر، كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ في ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي: وُلدت الحيرة إنذارًا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى تلك الجنّة التي أهبط منها. أمَّا الحيرة والوهم فهما اللذان ألمَّ بابنه في لحظة قتله أخيه،

[112] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2017، ص 22.

الذي وقف قاصرًا عن المعرفة، حيث لا فكرة له عمّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابًا ليريه سلوكًا وعملًا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا؛ فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد من أجل كسر الوهم وبلوغ الحل.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ:

الأمر الأوّل: من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي وهمًا ومعصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنّ آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة الممكِّن من كسر الوهم.

ولهذا؛ فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصيّة، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة لكلّ الأنواع تيسير جاذبيّة نوعيّة، وغريزيّة؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيًّأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلِّدًا لما يراه في دائرة الممكن تخييراً[113].

الأمر الثاني: التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلٍ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة؛ ذلك لأنّه لم يمرّ بزمن الحيرة

---

[113] المصدر السابق 24.

الممكّن من التعمّق في التفكير، حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن الكاشفة للوهم والكاسرة لأسبابه؛ فآدم تقليدًا قلّد إبليس الذي أوهمه بما لم يكن حقيقة مرضية؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا هي الحياة تطوّرًا من الخَلق إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة، ولكن يظل التقليد قاصرًا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرّسل عليهم السّلام بالنبأ العظيم؛ لإخراج النَّاس من الحيرة والوهم إلى النُّور.

الأمر الثالث: النبأ العظيم: مع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه لم يُخلق على الكمال؛ ولهذا فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلًا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا معصيةً واقتتالًا؛ ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه؛ كونه المنقذ من الوقوع في الوهم والاتصاف به.

الأمر الرَّابع: **الفكرة**: تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع الممكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلًا على الأنبياء والرُّسُل عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، وكسر الأوهام وإن عظم أصحابه.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة إلى من تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورًا وجذعًا وأغصانًا وأوراقًا وثمارًا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصّورة، ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ويكسر الوهم.

ولهذا؛ فالفكرة في ذاتها مجرّدة؛ حيث لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة؛ ولذا فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ؛ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهيئ لاصطيادها، أمّا التدبّر فلا يكون إلّا نتاجها سلوكًا وعملًا بعد أن تم التخلُّص من الوهم الذي أخر كثيرين من بني آدم وجعل الفتنة بينهم تتجذّر وهمًا بعد وهم.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، فإنّها على أرض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ؛ سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم إنّها معرفة ملموسة مادّيًا، ومن هنا، كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقًا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعًا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرًا، فمع أنّها لم تكن مخلوقة، فإنّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرًا من بعد تدبّر، وإنتاجًا من بعد إنتاج؛ فهي القوّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، فإنّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءًا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءًا زوجيًا، كان وجوده وفقًا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنّه من بعد ذلك إنباءً استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي

لفتته إلى نفسه ومَن حوله، وإلى ما يمكن أن يوهمه ظلمًا، أو عمدًا؛ لغاية في نفس من أوهمه.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقليَّة تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يُقدِّم التنازل من بعد التنازل، والوهم يزاح وينكسر بقوّة التحدّي من أجل الأنفع والأفضل.

فالصّعب ليس بالمستحيل ولا المعجز حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب الذي يلتحف بلحاف الوهم، بل الخوف من عدم حدوث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقليَّة معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاءً؛ وستظل الفكرة عقليَّة إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو الدّلالة.

ومع أنَّ العقل مكمن الفكرة، فإنّه أيضًا منبع الأمل، ومع أنّهما معًا من إعمال العقل وفي محفظته، فإنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجيّة التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرًا وإرادةً؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسئوليَّة، ومن لا يمتلكها، فإشارة (قف) لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك وراء كلّ غاية فكرة، ولكن أيّة فكرة؟

هل هي فكرة فكّ القيد؟ أم إنّها فكرة وضعه؟

أقول: القيد مولود الفكرة؛ فلو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤه حتى يجد قيدًا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد من قِبل الغير، يبدأ في البحث تفكرًا في كيفيّة فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيلٍ.

ولذا؛ فمن يريد أن يكون إنسانًا في أحسن تقويم فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أراد الحرّيّة فعليه أن يقبل التنازل عن عقله؛ كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنَّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنًا، وهكذا إذا أرد الاثنين معًا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضيَّة:

(كل أ ليست أ)

فنحن بنو آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا الوهم والموهوم به، ولا المحلّل والمحرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قفْ وسرْ)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ فإنْ لم يقيّد الإنسان نفسه عقلًا، سيجد نفسه مقيّدًا من قِبل الغير بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنَّ السّجن هو السّجن؛ فإنَّ تدبّرًا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله؛ فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرهًا؛ فهل يُمكن له أن يكون على شيءٍ من الإرادةِ؟

ومن ثمّ؛ فإذا سلّمنا أنَّ العقل هو الذي يقيِّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاءً؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرًا إذا قبل التوقّف عند حدوده وكسر الوهم، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير وهمًا؛ ولكن إن تمدّد وهمًا؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا.

ولهذا؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجيَّة، عاش حياة الفطرة جنّة إلى أن عصى ربّه؛ فأُهبِط به والأرض أرضًا؛ فظلَّ من بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك فهم يعلمون أنّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة؛ ولكن لأنَّهم قبلوا التحدّي في مواجهة الصّعاب فستكون أيَّامهم هازمة للصعاب يوم بعد يومًا، وكاسرة للأوهام يومًا بعد يوم.

ولذلك؛ فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان يقف على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه وعيًا وارتقاء.

ومع أنَّ الفكرة مولود العقل، فإنَّ مستفزّاتها خارجيّة، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[114]؛ ولذلك فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تُبعث من العدم.

[114] الغاشية: 17 . 21.

فالفكرة في ذاتها مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعًا، أو رؤية، أو حلًّا يمكّن من فكّ التأزّمات، ويكسر الوهم، ويمكّن من الإقدام وعيًا؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنّها لم تأتِ، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل.

ولهذا؛ فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلومًا وليس مخلوقًا؛ فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئًا لا ينقص من المخلوق شيئًا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة وتكسرُ أوهامًا.

والفكرة لم تولد في الخارج، بل الخارج يستفزّ العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف، فيبدأ العقل عمله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانًا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، كما لا يبقى الوهم مع كشف الزيف عن الحقيقة؛ ولذا فهما لا يبقيان مع بقاء الغفلة والغموض.

والفكرة تعدّ صوغًا عقليًا لمولودٍ لم يولد بعد، وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئًا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها، فلو لم تكن ما كان؛ ولهذا فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء بعد تهيّئه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والموضوع وعيًا ودراية لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحًا.

فبعد أنْ تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافًا وليس خَلقًا؛ ذلك لأنَّ المخلوق لا يَخلق،

ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارًا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثًا، وتأملًا، واستنباطًا، واستقراءً، حتى يتمكن من معرفة القوانين المنظمة لها، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة التي تكسر الوهم وتعمل على قبره، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسًا على استنباط الفكرة ارتقاءً، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُّفليَّة والانحدار.

ومع أنَّ الفكرة تولد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجيَّة، فإنّها بعد أن تولد منه إنتاجًا تصبح وفقًا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرًا موجبًا، أم سالبًا، وعندما تكون الفكرة بنائيَّة تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة وهميّة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونيّة. ومع ذلك، فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها سلبيّة)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي: تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها سلبيّة.

ومع أنَّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائيّة أو هدميّة)، فإنّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنَّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النّاس موضعيًّا، ولا إمكانيَّة أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقًا (حُجّة بحجّة)؛ ولذلك فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما

طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة الهدَّامة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملا[115].

والفكرة كونها مجرّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسئوليَّة من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوئها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقين، وللفكرة السّيئة مسوّقين، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعيَّة راجت فكرته حتى وإن كانت وهميَّة أو هدميَّة، وإن لم يكن له مقدرة إقناعيَّة انكمشت فكرته وإن كانت بنائيّة، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، ومن يسعى للدّونيّة والسُّفليّة؛ أي: فمن أراد ارتقاءً فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّمًا، أمّا من أراد سُّفليَّة فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك، تعدّ الفكرة ارتقاءً مصدرًا للرّؤية البنائيّة، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السّياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم إنّها كانت عمليّة، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظريّة أم عمليّة، تخلق جدلًا بين منظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

الفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفيّة تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو

---

[115] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2017، ص 32.

خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر في ما يخالفها غاية، فأوجد كيفيّة تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير؛ لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاءً من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاءً عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلًا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء في مواجهة الوهم الذي لا يشدُّ إلّا إلى الخلف، وقد يكون سببًا من أسباب إيقاد نار الفتنة.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر، وإنما الخَلق بالأمر كن والعلم يأتي من بعد؛ ومن هنا فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم؛ ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم ويتخلّص من الحيرة والوهم.

ومن هنا فالفِكْرة كمفردة تتشعّب فِكَرًا، فتتمدّد في شئون الموضوع الذي يحملها في أثنائه فروعًا، فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروعًا متفرّعة، أي: تتفرّع الفِكْرة الواحدة فِكَرًا متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

تطوّر الفِكَر يكسر الوهم:

تعدّ الفِكَر من إنتاج العقل، ويعدّ الفِكْر من إعماله؛ ولأنَّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأنْ تُصنّف بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الوهم؛ ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة، أم متلقيها؛ فهو المخيّر قبولًا، أو رفضًا، أو حيادًا وانتظارًا، وفي المقابل هناك الواهمون الذين لا يرون البحث عن الحلول إلَّا وهمًا.

ولأنَّ الإنسان مخيّر فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان وجودًا مستحيلًا، أم معجزًا أم ممكنًا؛ فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعماله؛ ليكون عقله متهيأ ومتأهبًا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر أمره. كما أنَّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَرِهِ (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه من فِكَر؛ ولهذا فالفِكْر هو إعمال العقل، أمَّا الفِكَر فهي إنتاج العقل.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، لكنّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة إلى المستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة إلى دائرة الممكن فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقًا للإرادة والمقدرة.

فبمرور الزّمن كان التكاثر البشري بين اختلاف وخلاف حتى أصبحت الهوة بين النّاس تتسع صدامًا ونزاعًا واقتتالًا؛ فبعث الله الأنبياء والرُّسُل مبشّرين، ومنذرين، ومحرّضين، وداعين للكلمة السّواء، ومع ذلك كفر من كفر، وأشرك من أشرك، وآمن من آمن، ومن هنا، اتخذ الاختلاف والخلاف أوجها جديدة بين من يؤمن بالله، ومن يكفر به أو يشرك، حتى وُصف هذا الصّراع بأنّه الصراع بين: (الخير والشّر).

ولسائل أن يسأل:

هل الخلاف والاختلاف نتاج تفكير بشري أم إنّ الإنسان مجعول عليه جعلا؟

أقول:

الخلاف لا يكون إلّا من بناة الفكر البشري؛ كونه لا يكون إلّا نتاج الخصام على المشبع للحاجة، أو الملبي للشهوة، أو المؤدّي إلى التهلكة، وهو نتاج الرّغبة الشخصانيَّة أو الذاتيَّة التي تتمدّد على حساب رغبة البعض وعلى حسب ممارستهم حقوقهم وأدائهم واجباتهم وحملهم مسئوليَّاتهم؛ فيكون الإكراه والقهر وحتى القتل أساليب من أساليبها.

أمّا الاختلاف كونه تنوّع فقد جُعل الإنسان عليه جعلًا وفقًا لمشيئة الرّب، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}[116]. أي: خلقهم على التنوّع الممكّن من الارتقاء والتعاون والنُّهوض، والاستئناس الجذاب للأنواع لتكون العلاقات بينهم عن رغبة وإرادة مرضية، وتمكّن من الطمأنينة النفسيّة والقلبيَّة.

---

[116] هود 118، 119.

ولأنَّ الله جعل النّاس مختلفين خَلقًا؛ فهو بلا شكّ يريدهم على الاختلاف بقاء إلى النّهاية؛ ولذلك سيظلون على الاختلاف حتى النّهاية، ولا إمكانيَّة لتبديل خلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[117].

ولأنَّ النّاس مجبولون على الاختلاف فطرة، فهل الرّبّ يجعل خلقه على ما يسيء لِفطرة صُنعهِ؟!

أقول: لو أنّ الله خلق النّاس بلا اختلاف؛ لكانوا على الكمال، وهذه من صفة الله وحده، أي: لو لم يُخلقوا على الاختلاف ما كان أحد في حاجة للآخر، ولولا الاختلاف ما كان التنوّع مغريًا، ولو لم يكونوا مختلفين ما كان للأمومة معنى، وللأبوة معنى، ولا للأخوة والعمومة والغير معنى، وهكذا ليس الذّكر كالأنثى؛ ولأنّهما كذلك كان للمودّة دلالة ومعنى؛ ولهذا كان الاختلاف بين النّاس رحمة؛ فينبغي أن يسود بينهم رحمة، وفي المقابل وإن كان من الأهميّة أن يكسر الوهم فكسره لن يغيره اختلافًا.

إذن: لو لم يكن الاختلاف فطرة بين النّاس ما كان العقل متدبّرًا؛ فالاختلاف خلقًا هو أساس الوحدة بين النّاس، وأساس التذكّر والتدبّر والتفكّر، أي: لو لم يكن النّاس مختلفين لكانوا آحادًا، وليسوا أزواجًا، وجماعات، وشعوبًا.

ولهذا؛ فالاختلاف ارتقاء لا تضاد فيه؛ لكونه الاعتراف بالخصوصيَّة (أنا وأنت)؛ فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، وما الاختلاف بين الألوان إلّا زيادة الجمال جمالًا؛ فالألوان مع أنّها تتعدّد جمالًا، فإنّها

[117] الرّوم 30.

عندما تُنسج بساطًا تلاحظ أنّها أرقى بكثير عمّا كانت عليه قبل أن تُنسج في وحدة من الجمال.

والإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم؛ فهو من دون شكّ إنسان واحد، ولكنّه لم يكن نوعًا واحدًا (ذكرًا وأنثى)، ولم تكن قدراته وظروفه ومعارفه متساوية؛ فالاختلاف تنوّع ألوان، وأشكال، وآراء، ومعارف؛ ومع ذلك فالتّشابه والتّماثل ارتقاء لا ينقطع؛ فالنّاس من بعد الرّسل لو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن لأنّهم خُلقوا على الاختلاف، اختلفوا ثمّ تخالفوا على ما جاءت به الرّسل، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ارتقاء، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ سُفليّة. ولو لم يختلف النّاس بما اختلفوا فيه لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة؛ وهذا الأمر يجعل الحياة مُملّة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل (حياة لا تشدّ الرّغبة إليها)، ولأنَّه الاختلاف جاء الوهم معطية من معطيات الاختلاف؛ إذ القدرات والإمكانات مختلفة ومتباينة. أمَّا القول بكسر الوهم ضرورة فيأتي من زاوية مغالبة الحق للباطل ضرورة.

وهكذا يسود الخلاف بين النّاس عندما يرى كلّ طرف أنّه صاحب الحقّ الوافر، وغيره لا حقّ له، أو ليس له إلّا حقًّا منقوصًا؛ فتُرفع الأصوات على الأصوات وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائمًا أعلى من أيّ صوتٍ؛ ولأنّه كذلك فلا داعي لرفعه؛ ولذا فاترك الحقّ يعلو ارتقاءً على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النّاس وعلى الملأ أكثر منك حُجَّة وارتقاء،

ويومها نأمل أن تتمكّن من معرفة نفسك إنَّك كنت واهمًا، ويا ليتك تتعظ وتكسر وهمك.

ومن ثمّ؛ فالخلاف مع المخالف لما يجب يعدُّ ارتقاءً، والخلاف معه على ما لا يجب يعدُّ انحدارًا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم إلّا أنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث قد يجد نفسه في دائرة الممكن في مواجهة مع غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر ارتقاءً، وإلّا ليس له إلّا الانحدار الذي تكمن فيه معطيات الوهم مواجع.

ولهذا فالتفكير ارتقاء يُحدث النُّقلة المأمولة تقدّمًا، وما دونه يجعل الفكرة غير فاعلة، والتفكير غير مُفعَّل.

ولأنّ العلاقة متداخلة بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة تناول أحدهما بمنعزلٍ عن الآخر؛ فالتفكير يولِّد الفِكْرة التي متى ما كانت راقية أضافت معارف جديدة نافعة، ومتى ما كانت على غير ذلك تؤدّي إلى ما يترتّب عليه فراقًا وألما[118].

ومن هنا؛ فمن لا يفكّر في مستقبله مع المختلفين عنه، لا يمكن له أن يسعى لتأمينه، ومن لم يفكّر في صناعة مستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرّصيف متسوِّلًا مع المتسولين، أو سجينا بين الجدران مع المساجين بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة المتطوّرة، وعدم معرفته كيف يفكّر تعاونًا مع المختلفين، ومن ثم ينبغي أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر، وعليه

[118] 118 عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة: 2017، ص 110.

ألَّا يغفل عن اختلاف الغير عنه، وأن يعلم أنّه مثلما هو مخيّر هم مخيّرون، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}119، والواهمون وحدهم هم الغافلون عن هذه الفضيلة.

الآملُ يَكسرُ الوهم:

الوهم لا يخرج عن حيّز مفاهيم الأماني، والأحلام، والرَّجاءات، والخيالات، التي يوصف أصحابها بأنّهم يتخيَّلون، ويحلمون، ويترجّون، ويتمنون؛ وهذه جميعها لا تتحقّق ولا يتم بلوغها، بل تظل في عقول أصحابها عالقة، وبأنفسهم متعلَّقة وهمًا.

أمَّا الأملُ فتعلُّق بمأمولٍ لا يأس فيه ولا قنوط، وهو لم يكن الرّجاء ولا التفاؤل؛ ذلك لأنَّ الرّجاء توسّلي، وفيه من المطامع ما فيه، ومن يتكئ عليه يجد نفسه معتمدًا على غيره وهمًا؛ ممّا يجعله على استعداد لتقديم التنازلات وهمًا ورجاء.

وفي المقابل التفاؤل انطباع توقّعي استبشاري لمستقبل مأمول، ولكن الاستبشار قد لا يزيد عن كونه انطباعًا نفسيًّا مُرضيًا لأصحابه؛ لأنَّ مفهومه لا يحتوي الإصرار والعزيمة على بلوغ المستبشر من أجله؛ ولذا فهو شعور لا يشترط عملًا ولا جهدًا يبذل مما يجعله شعور وهمٍ لا مستقبل من بعده ولا ارتقاءً.

أمَّا الأمل فله من المعطيات والمؤشّرات ما يثبت وجود المستهدف من ورائه؛ ولهذا فلم يكن وهمًا وتخيُّلًا، بل احتمالات بلوغه في دائرة الممكن

---

[119] الكهف: 29.

متوقّعة بحسابات قابلة للتقييم والتقويم، وهو يستوجب حيويّة تبذل في سبيل بلوغه مع تصميم على الفوز به ونيله.

ولهذا؛ فالأمل لم يكن مجرّد شعورٍ في ذاته، بل هو ذلك الشّعور المملوء طموحًا، وهو المرتبط بالزّمن وما يُسجّل في صفحات التّاريخ، وهو المتعلّق بما يُمكِن إنجازه أو تحقيقه أو بلوغه، ومن هنا، يرسم المتفائلون خططهم واستراتيجياتهم ويعدّون لها العدّة، ثمّ يتهيؤون لها ويتأهبون إقدامًا.

ومن ثمَّ فالآملُ قادرٌ على كسر الوهم بتحقيق نتائج مرضية على أرض الواقع؛ ذلك لأنَّه ينظر إلى المستقبل مخبأ الكنوز؛ فيسعى إليه جادًّا وهو متيقّن أن المستقبل تأتي إليه ولا يأتي إليك؛ ومن هنا يعمل كل ما من شأنه ميسّرًا لبلوغه حتى يستطيع إحداث النُّقلة المأمولة وبلوغ الحلّ. وفي المقابل الحالمون والمتمنون باقون على منصّات الحُلم والتّمني وهمًا ينتظرون المستقبل الذي لن يأتي.

والآمل تحيّره القضايا، وتلفت انتباهه لنفسه وللآخرين خوفًا؛ فتأخذ من تفكيره حيزًا، تشغله بداية، ونهاية تجعله متهيئًا لتقديم الحلّ المخرج من التأزّمات، أمَّا الواهمون فلا مأمولات أمامهم؛ ولهذا فهم دائمًا يسلِّمون بالأمر الواقع وإن كان وهمًا، ومن هنا فهم يسخّرون لخدمة الغير كما يشاء الغير.

ولذلك فالآمل لا يستسلم للواقع مع أنَّه لا يغفل عن أهميّته، بل يعمل على استفزازه لعلّه ينهض، فالواقع عندما يصبح قاصرًا عن إشباع الحاجات المتطوّرة فلا ينبغي الرّكون إليه، بل ينبغي نفض الغبار عنه وكسر الوهم، وكشفه كما هو، والعمل على تغييره لما يجب أن يكون عليه قمّة.

ولهذا فأقْدَام الآملين لا تقبل المشي على الغبار ورائحة المياه من جوف الأرض تنبعث، الحالمون والواهمون وحدهم فوق الغبار ينتظرون، أمّا الآملون فقد أسرعوا مشيًا وتنقيبًا في الأرض حتى تفجّرت منها العيون تنبع ذهبًا وثمرًا.

إنّه المستقبل المأمول الذي إن لم تأت إليه لا يمكن أن يأتي إليك، فمن المستغرب أن تكون المياه تحت الأقدام والحالمون والواهمون والمتمنون يمشون على الغبار حفاة ولا شيء أمامهم إلَّا السَّرابَ!

وعليه: فالآمل لا يرضخ لواقع فيه من الألم والوهم ما فيه، أنّه شخصيَّة حيويّة، يسعى لما يشبع الحاجة قبل الشعور بها حاجة، ومخازن تفكيره تجعل من الثروة مخازن. إنّها المخازن المأمولة التي لا تأتي لمن قَبِل بوضع قدميه في الغبار وباطن الأرض تحتهما كنوز عظيمة.

ومع أنَّها الحياة الدنيا، فلا تنس نصيبك منها، ولا ينبغي أن تقصر مأمولك عليها؛ فهناك ما هو أعظم، وهو الآخر لا يأتي إليك إن لم تأت إليه؛ فاعمل صالحًا واتق الله في قدميك وأخرجهما من الغبار بما أنّك خُلقت مخيّرًا في كل ما يتعلّق بأمرك، ولا تفكّر في التسيير فهو بيد الله شئت أم أبيت.

كن آملًا واكسر وهم نفسك الذي إن لم تفارقه لن يفارقك إلَّا تخلُّفًا. وإن لم تفارقه ليس لك إلّا قبول المزيد من دفع الثّمن مع وافر الحيرة والألم عند كلّ تغيّر مفاجئ؛ ولهذا فالتغيير إلى الأحسن نزهة الآملين، وفي المقابل التغيّر إلى الأسوء لا يكون منزلة إلّا للمفسدين فيها.

ولأنّ الآمل يترقّب التغيير للأحسن فلا استغراب في قاموس أمله، بل التغيير للأفضل يحفّزه على طي المسافات مع المأمول المراد نيله؛ فيغتنم التغيير حيويّة مضافة.

ومن ثمّ فالآمل لا ينكسر، وإن انكسر بأيّ علّة جُبر بمأمولٍ؛ فالمأمول لا يفارق الآمل؛ ولهذا إذا وقع في مفاجأة واجهته يهمّ وينهض ويستأنف المسير، أمَّا الواهم إذا وقع فلا نهوض، وهنا أقول: ليس عيبًا أن يسقطك الخصم أرضًا، ولكن العيب ألّا تحسب الوقت وتهمّ وتنهض.

فالشخصيّة الآملة مع أنَّها تؤمن أنَّه لا إمكانيَّة لبلوغ المستحيل والمعجز، فإنَّها تعمل وكأنَّها واثقة من بلوغهما؛ ولهذا بإمكانها توليد الأمل من الأمل حتى بلوغ الخوارق. فالآمل لا يتقدّم خطوة إلّا وحسب لها ما حسب في دائرة الممكن، وعرف أين يمكنه أن يضع قدميه، وعندما يضع قدمه بداية المسير لا يمكن أن يرفع قدمه الأخرى إلّا إذا تبيّن له المكان الذي يجب أن توضع عليه، ولأنَّ خطاه ثابتة فالوهم لا يصمد أمامه.

التحدِّي يكسرُ الوهمَ:

الوهمُ كونه نتاج معلومات مُضلِّلة ومزوّرة لا يصمد أمام التحدّي عن وعيٍ وإرادةٍ؛ ولهذا فالصّعب لا يستطيع المواجهة والصّمود، فمواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، ولأنّها ممكنة فالصّعب لا يخيف إلّا الواهمين؛ ودائمًا التحدّي يكسر الوهم ولو كان صعبًا.

إذن أهِّبْ نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهِّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحدِّيًا، وأهِّب نفسك لمواجهة الصِّعاب تجد الصِّعاب مستسلمة، ومن يتأهّب للشيء عن عزيمة بعد تهيّؤ وإرادة

واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاءً أن يُنفِّذ ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله تعالى.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل الصّعب ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم فينكمش بنفسه تحت مظلّة الوهم.

ومن هنا، تعد الصِّعاب مجموعة من المعيقات التي لا يتمُّ تجاوزها إلّا بالإزاحة، أي: لا إمكانيَّة لإنجاز الأهداف، وتحقيق الأغراض، وبلوغ الغايات، ونيل المأمولات ما لم تزِحْ الأوهام من السبيل المؤدّي إلى ذلك.

ولأنّها الأوهام عوائق فهي قابلة لأن تزاح، ولأنّها قابلة للإزاحة، فلا داعي للانتظار، ومَن يتأخّر عن إزاحتها في شبابه سيجد نفسه متأخرًا عمّن أزاحوا مثيلاتها وتقدّموا، والصِّعاب لا تخيف، بل المخيف الوهم المعيق لتحدّيها. ومع ذلك فالصِّعاب لا تواجه الواهمين والكسالى، بل تواجه المتطلّعين لصنع المستقبل، فالصِّعاب إن لم تداهم تحدٍّ، تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصِّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا عن إرادة، والتحدّي لا يفارق.

ومن هنا فتهيّؤ العقل للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، والتهيّؤ للعمل المنتج يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب، وهكذا فالتهيؤ لبلوغ المأمول يؤدّي إلى نيله ويكسر الأوهام[120].

---

[120] عقيل حسين عقيل، إحداث النُّقلة تحد، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020، ص 14.

اللَّاشيءُ بين وهمٍ وحقيقةٍ:

مع أنَّ اللاشيء موجودٌ فإنَّنا لا نميزه إلّا بوجود الشيء كما نميز بين الظُّلمة والكواكب والنجوم، فالظلمة التي يعدُّها البعض لاشيئًا في حقيقة أمرها هي الشيء بعينه، وما الكواكب والنجوم في حركتها الحرّة إلَّا شيئًا متحرّكًا فُسحةً مقنَّنةً في السَّماءِ والظُّلمةِ؛ وبذلك يعدّ اللاشيء شيئًا، ومن يخالف الإثبات العلمي في ذلك سيظل واهمًا.

وعليه: لا وجود للشيء حرًّا إلَّا في حيّز اللاشيء، الذي يمنحه فرصة الحركة والتمدد والانكماش، أو المناورة والبحث عن البديل الممكِّن من المعرفة، ولا شيء يولد أو يوجد حرًّا إلَّا في حيز اللاشيء؛ إذ لا إمكانيَّة لوجود الشيء ما لم يسبقه اللاشيء، ولا إمكانيَّة لوجد اللاشيء ما لم يكن المشيء الأعظم شاء له وجودًا.

فالشيء المحسوس لا إمكانيّة لوجوده ما لم يسبقه حيّزٌ ليحل فيه وجودًا ملاحظًا ومشاهدًا. أي: لا إمكانيّة لوجود الشيء مهما قلَّ حجمه أو عظم ما لم تسبقه مساحة يشغلها، وفراغ يتحرّك فيه أو يتمدّد.

ومن ثم فالخلق كيفيَّة تجعل الأشياء على هيئاتها قبل أن تُخلق؛ ولذلك فخلق هيئة الشيء تسبق جعله شيئًا، وهيئات الأشياء تأخذ في التناهي كبرًا وصغرًا، فما يظهر منها للمشاهدة والملاحظة الحسيّة يعدُّ شيئًا، وما يختفي عنها يعدُّ لاشيئًا على الرَّغم من وجوده؛ ولذلك فالعالمون يعرفون أنَّ اللاشيء أعظم من الشيء وإنْ عَظُمَ، أمَّا الواهمون فلا يرون الحقيقة إلَّا

وهمًا، ومع أنَّ الواهمين يعرفون الحقيقة فإنَّهم لا يقولونها، ولا يدافعون بها ولا عنها إذا ما تعرضت لهجمة ودعاية مضادّة من قبل السُّلطان.

إذن الشيء على الرَّغم من أنَّه قابل للمشاهدة والملاحظة، فإنَّه لا يقتصر عليهما؛ فهناك من الأشياء ما لا يشاهد: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}[121]؛ فالكتاب مع أنَّه يشاهد، لكن ما يحتويه الكتاب لا يشاهد، بل يُدرك إدراكًا؛ فلو قلنا: الجهل شيء، نقول: الدراية شيء آخر، وإذا قلنا: الحقّ شيء؛ فالباطل شيء آخر، وسيظل الجهل لاشيء حتى يتحقّق، وسيظل التعلّم لاشيء حتى يتحقّق: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}[122]؛ فالساعة علم تحقّق؛ كونها تعني شيئًا معلومًا، وفي المقابل لحظة قيامها تعني لاشيء معلوم.

ولأنَّ اللاشيء المتناهي في الدّقة يملأ الكون؛ فإن قُورِنَ مع الشّيء من حيث المساحات التي يشغلها من الكون، يصبح الشيء لاشيئًا أمامه، ويكون اللاشيء هو الشيء العظيم.

فاللاشيء الذي يملأ الكون وجودًا يعدُّ مادّة خلق الأشياء؛ فتلك الأجسام المتناهية في الصّغر، لو جمّعت بقوّة الطّاقة والحركة الكونيّة، لكوّنت شيئًا عظيمًا يمكن أن يكون بحجم نجمٍ أو كوكبٍ. ومن هنا،

---

[121] النحل: 89.

[122] لقمان: 34.

نستطيع القول: إنَّ هذا الشيء المتولّد بالطّاقة الكونيَّة أصبح بإرادة المشيء له شيئًا، بعد أن كان لاشيئًا؛ وهذا يعني لم يعد اللاشيء وهمًا[123].

ولأنَّ وراء كلّ مخلوق خالقًا، والشيء مخلوق، إذن: فمن ورائه خالق، وإلّا هل هناك من واهمٍ كما وهم لورانس كراوس بأنّ اللاشيء خُلق هو الآخر من لاشيء؟

أقول: بما أنَّنا نصفه باللاشيء إذن: فلا يمكن أن يكون خالقًا، أي: لا بدّ أن يكون مخلوقًا، وبما أنَّ الشيء مخلوق من اللاشيء، واللاشيء من ورائه مشيئٌ له (خالقه)، إذن: لا بدّ أن يكون الشيء مخلوقًا ومن ورائه خالق شاء له أن يكون مخلوقًا: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[124].

إذن: اللاشيء لو لم يكن موجودًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه موجود فهو قابل للنّفي والإثبات، وإلّا هل هناك من ينفي وجود شيء أو يثبته لو لم يكن موجودا؟

وبما أنَّنا نتحدث عن اللاشيء إذن نتحدث عن شيء حتى وإن لم نتمكّن من رؤيته، ولمتسائل أن يتساءل:

ما الفرق بين اللاشيء والشيء؟

---

123 عقيل حسين عقيل، نحو النظرية خلقا، المصرية للنشر والتوزيع القاهرة، 2020، ص 56.

124 الواقعة: 60.

اللاشيء هو الذي على الرّغم من وجوده نجهل حيثيته، وبتناهيه في الصّغر لا يخضع للمشاهدة العينيَّة، ولكن إن حال بينه وبين معرفته جدار عاتم يمنع مرور الضّوء عبره لا يخفيه عن خالقه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[125]. وفي المقابل الشيء نعلمه، ونشاهده، ونلاحظه، وندركه.

ولأنَّ اللاشيء لا يتولّد إلّا في دائرة المجهول؛ فسيظل هناك لاشيئًا، حتى لحظة اكتشافه التي من بعدها يصبح شيئًا وإنْ كان متناهٍ في الصّغر والدّقة، وإلَّا من أين نستمد أو نستكشف الجديد لو لم يكن في الوجود موجود لم يسبق لنا معرفته من قبل؟

فاللاشيء هو على غير صفة، فلو كان على صفة، لكان له مسمّى، ولأنَّه يفتقدها؛ فهو لا شيء، أمَّا الشيء فله صفة ومسمّى، مثل: الأرض، والشّمس، والقمر، ومثل: الكائنات والأدوات المشاهدة وغيرها من المتنوّع والمتعدّد وإن عظم في صغره كما هو حال: (فيروس كورنا 19) الذي غزا العالم وهو اللاشيء من حيث إنَّه لا يُرى بالعين المجرَّدة ولا حتى بالمكبرات العاديّة؛ ولذلك فمن يستهين باللاشيء سيظل في غيبوبة المعرفة واهمًا.

وعليه: وجب علينا تبيان ما يدلّ عليه مفهوم اللاشيء حتى لا يؤخذ عنَّا ما أُخذ عن تنظيرات العالم الفيزيائي لورنس كراوس الذي كان

---

[125] آل عمران: 5.

واهما بقوله: "إنَّ الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له"[126]، أي: لاشيء يمكن أن يشار إليه بالشيء قبل خلق الكون من لاشيء.

أمَّا نحن فأسّسنا أفكارنا وفقًا لقانون الخلق: (لا مخلوق إلّا ومن ورائه خالق)؛ حيث لاشيء إلّا ومن ورائه مشيء له؛ ممّا يجعل المشيئة سابقة على المشاء؛ ولذلك فالمشيئة قرار مسبق على خلق شيء لم يسبق له أن كان شيئًا.

غير أنَّ العالم الفيزيائي كراوس يحاول أن يرسّخ نظريَّته: (كون من لاشيء) بمفهوم وهمي يقول: (خُلِقَ الكون بلا خالق)، معتبرًا أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء، ثمّ يرى من زاوية أخرى أنَّ الكون كان نتيجة انفجار تلك الذرة المتناهية في الصّغر[127].

وإن سلّمنا بخلق الكون من لاشيء فهل الكون خلق نفسه من لاشيء لحظة الانفجار، أم إنَّ خلقه من لا شيء كان مترتّبًا على ذلك الانفجار، أم أنَّ خلقه من لاشيء كان مرتبطًا بذلك المنفجر؟

وإذا سلمنا أنَّ: (الكون خُلق من لاشيء)، فهل خلق نفسه عن تدبّر أم هكذا عبثًا؟ وإذا كان الانفجار سبب خلق الكون من لاشيء، فكيف يخلق من لاشيء، والانفجار شيء في ذاته؟ وهل يمكن أن يحدث

---

[126] A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012.

[127] المصدر السابق.

الانفجار لو لم تتوافر أسبابه؟ وكذلك، هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يتوافر له مكان وزمان؟ وكيف يُقبل أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء وفي ذات الوقت يقال: إنَّه المنفجر من شيء سابق عليه يسمي: الذّرة المتناهية في الصِّغر؟

وإذا سلمنا أنَّ ذلك المنفجر هو ما وُصِف بالذّرة، أو النّقطة الصّغيرة؛ فكيف يصحُّ لبعض الفيزيائيين وصفها ذرّة وهم لم يتمكّنوا من معرفةٍ تمكّنهم من الوقوف عند أثرها إلّا وهمًا، وبخاصّة أنَّ لحظة الانفجار لا بدّ أن تكون فاصلة بين المنفجر وانفجاره وما سيترتّب عليه لاحقًا؟

وعلى الرَّغم من هذه التساؤلات والافتراضات لكن اكتشافات العالم الفيزيائي كراوس قد أحدثت نُقلة في علم الفيزياء وبخاصّة تعريفه اللاشيء الذي لم يعدّ لاشيئًا؛ كونه كما قال: "يعج بالجسيمات الافتراضيَّة، التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصّغر، لدرجة أنَّه لا يمكن مشاهدتها"[128].

إنَّ قول كراوس: إنَّ اللاشيء لم يعدّ لاشيئًا هو بحقّ إضافة معرفيَّة لمعارفنا، لأنَّ اللاشيء لو لم يكن شيئًا ما تحدثنا أو تساءلنا عنه، وإلّا هل يمكن لنا الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ بمعنى: لو لم يكن اللاشيء موجودًا ما نفينا وجوده؛ ولهذا فالقاعدة العلميَّة تقول: (نفي اللاشيء

[128] المصدر السابق.

يثبت وجوده شيئًا) ومن يخالف ذلك سيظل واهما في نفيه لما لم يكن موجودًا.

ومع ذلك؛ فاللاشيء يُعدُّ المجهول المحيّر الذي تتوافر معطيات وجوده وهو لا يتوافر إلّا أثرًا، ممّا يُحفِّز البحاث على صياغة فروض أو تساؤلات علميَّة تستند على ما يتوافر من معلومات بهدف البحث عن الجزء المفقود منها؛ فالعالم كراوس انطلق من المشاهد الكوني إلى ما لم يكن مشاهدًا حتى اكتشف أشياء متناهية الصّغر والدّقة، ولا يمكن رؤيتها بالمشاهدة العينيَّة، وعندما تُقارن بالأشياء الظّاهرة للمشاهدة توصف بأنَّها لاشيء.

فاللاشيء، لا يعدُّ غير موجودٍ، بل يعدُّ غير مكتشف، وغير مصنّف، ومع ذلك فنحن مهما بلغنا من العلم نظل واهمين إن لم نعرف أنّنا في حاجة للمزيد المعرفي حتى ندرك لا شيئًا: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[129]، وبما أنّنا لم نؤتَ من العلم إلّا قليلًا إذن فما نجهله هو الأكثر؛ فيجب البحث والتقصي العلمي الممكّن من معرفة ما نجهله حتى يظهر اللاشيء للوجود شيئًا معلومًا.

إنَّ معرفة اللاشيء، لا يقتصر على ما يمكن مشاهدته بالمناظير الدّقيقة، بل يمتدّ إلى ما يكتشف أثره حتى وإن لم يخضع للمشاهدة، وفي

---

[129] الإسراء: 85.

هذا الأمر يقول كراوس: "على الرّغم من أنّنا لا نستطيع رصد الجسيمات الافتراضيَّة مباشرة، إلا أنّنا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر"[130].

ومن ثمَّ؛ فاللاشيء على الرَّغم من وجوده فهو المجهول معرفةً مصنَّفةً، ويوصف اللاشيء بهذه الصّفة اللاشيئيَّة؛ لأنَّه غير المميّز بخاصيّة منفردة؛ ممّا يجعل الشّيء واللاشيء في موقع النَّكِرة؛ حيث انتفاء أو غموض الصّفة والخاصيّة والنّوع.

ولأنَّ الاختلاف من أجل المعرفة الواعية ظاهرة موضوعيَّة؛ أصدر العالم لورانس كرواس حُكمًا وهميًّا مطلقًا بأنَّ: (الكون خُلق من لاشيء)، ولكن بهذا الحكم اختلف بعض علماء الفيزياء معه، وبعضهم خالفه مخالفة تامّة، وفي اعتقادنا الاختلاف والخلاف على الشيء لا يلغيه، بل يُثبته شيئًا وليس وهمًا.

ولأنَّ اللاشيء يمثل 99% من كتلة الكون؛ فهل هذا اللاشيء هو مادّة خلق الكون التي خلق نفسه منها؟ أمّ إنَّ اللاشيء هو ذلك الذي ليس له وجود؟

---

[130] 'A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012

وحتى لا يعلق في الأذهان ظنّ فإنَّ ما يقصده لورانس كراوس، بقوله: (الكون خلق من لاشيء ومن دون خالق) هو أنَّ الكون قد أوجد نفسه من غير وجود سابق عليه.

ومع أنَّ كراوس قد أصدر نظريتَّه: (كون من لاشيء)، لكن كيف جاء هذا الكون العظيم من لاشيء في الوقت الذي يقول فيه: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه "اللاشيء"، وأكبر طاقة في الكون تشكل 70% من الطاقة الكونيَّة، التي هي موجودة في الفضاء الخالي، ونحن لا نمتلك أيَّة فكرة عن سبب وجودها هناك؟!"[131].

ومن هنا، وجب فكّ اللبس والغموض الذي تثيره نظريَّة العالم الفيزيائي لورنس كراوس بقوله: "(إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه اللاشيء)، وفي الوقت ذاته يقول: (خُلق الكون من لاشيء)، ثمّ يقول: (لا يعدُّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لاشيئًا)"[132].

وإذا كان اللاشيء يسيطر على الكون؛ واللاشيء هنا هو المكتشف الذي تعرّف عليه كراوس، والذي قال عنه: (لا يعدّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لاشيئًا) فكيف لنا بقبول ذلك، وهو قد أسّس نظريَّته على قاعدة: (كون من لاشيء)؟

---

131 المصدر السابق.

132 المصدر السابق.

فالكون إذا خُلق من لاشيء، لا يمكن أن يسيطر عليه اللاشيء، وفي هذا الأمر كمن يقول: خُلق الإنسان من تراب والتراب يسيطر عليه؛ فالإنسان لو سيطر عليه التراب لكان الإنسان جدارًا.

ومع أنَّ نظريَّة كراوس تأسّست على: (كون من لاشيء) فإنَّها تتحدث عن الشّيءِ (الكون) المملوء بالأشياء (دقيقها وعظيمها)، وهي التي لا ترى خالقًا للكون.

فإذا سلّمنا بهذه المقولات المتناقضة وهمًا؛ فإنَّنا كمن يقول: خُلقت تلك الذّرة من تلك الذّرة، وخُلقت الأرض من الأرض، وخُلقت السّماء من السّماء، وخُلق الماء من الماء، وخُلق الإنسان من الإنسان!

إنَّ خلق الكون من لاشيء وفقًا لتعريف كراوس؛ يعني: أنَّه خُلق من شيء متناهٍ في الدّقة، وقد ترك أثرًا، ولكن إذا أجزنا هذا؛ فمن أين جاء ذلك اللاشيء المتناهي في الدّقة؟ أي: فمن أين خُلق ذلك الشيء السّابق على خلق الكون والذي يملؤه لاشيئًا؟

فنقول: يعدُّ اللاشيء ما نجهله ونسعى لمعرفته، واكتشاف أسراره، وسيظل أمره محيّرًا للباحثين حتى يتمّ اكتشافه، وتقصّي الحقائق المخفيّة وراءه، ومعرفتها عن بيّنة، من أجل إضافة شيءٍ جديدٍ لمعرفة اللاشيء الذي يملأ الكون ظلمة وعتمة.

ومع ذلك، يقول العالم كراوس: "نحن نعلم بدقة 1% أنَّ الكون مسطّح، ولديه طاقة كلية تساوي الصّفر؛ ولذلك يمكن للكون أن يوجد من لاشيء، ومن تلقاء ذاته "[133].

عالم لا يمتلك من الحجّة إلّا 1% وبها يحكم حكمًا مطلقًا على أنَّ الكون خُلق من لاشيء؛ فهل يمكن أن تُجاز هذه الحُجّة وهي تفتقد 99% من الحقيقة؟!

أي: ألم يكن واهمًا من يحكم بالمطلق على الأشياء ولم يتوافر بين يديه من الحقيقة إلَّا ما نسبته 1%؟ هكذا هو بالتمام حكم الواهمين على الحقيقة دائمًا لا يتجاوز ما نسبته 1%.

وعليه: فمن يرى قيمة الإنسان مادّة، لا بدّ له أن يحكم بانعدام قيمته، ولكن لو قَلبَ الإنسان الصفحة في أيِّ اتجاه من اتجاهات القراءة السليمة ليقرأ قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[134] لأمكن له أن يتذكّر، ويتدبّر، ويفكّر، ومن ثمّ لأمكن له الأخذ بما يجب والانتهاء عمّا يجب، وهنا تكمن قيمة الإنسان وعظمة الخالق ويُكسر الوهم.

---

[133] المصدر السابق.

[134] النمل: 88.

المنهجُ بين وهمٍ وكسرِ وهم:

المنهج إتقان فكري يَنظِمُ في المعلومات المتفرّقة في نسجٍ معرفي فسيفساء نَظْمِهِ حُجَّة بحجّة، وفكرة بفكرة، تفرز العلّة من المعلول تفكيكًا وتركيبًا وفقًا للمتغيّرات أثرًا وسببًا، فتُكسر الحيرة والوهم بنتائج قابلة للقياس والتوظيف.

ولذا فحجج المنهج العلمي معلومات موثوقٌ من مصادرها، وملاحظات ومشاهدات عينيّة بأدلة لا وهم فيها، ومعايشة مع تجربة معملية أو ميدانيّة.

ولهذا فالمنهج لم يعد كما يظن الواهمون قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسُّلوكيَّات، وتحدّد على ضوئه الاتجاهات وتستقرأ نتائجها المستقبليَّة مما يجعل البحَّاث يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع)؛ ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، فهذه المناهج اجترارية، فهي كمن يَلُكُّ العِلكة أكثر من مرّة، ولا تُمكِّن الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجد من الجديد، والأنفع من النافع؛ فالمناهج التي تُمكّن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجدّدة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافيَّة مع أخذ الحيطة والحذر من كل انتكاسة، ومن كلِّ وهمٍ.

ولأنَّ البحوث تختلف باختلاف مواضيعها، ودرجة اهتمام الباحثين أو المجتمع بها؛ فهي تتطلَّب مناهج علميَّة مرنة تُمكِّن الباحثين من الوصول إلى أهدافهم العلميَّة بأقصر الطّرق، وأقل التكاليف، وتقدّم الموضوع بخطوات يمكن مراجعتها والتأكد منها، ومع ذلك لم تكن المناهج قوالب جاهزة كما يعتقد الواهمون، بل ذات الأساليب المتنوِّعة والمتعدّدة؛ ولهذا لا داعي إلى فرضها على الآخرين نتيجة خصوصيَّاتهم وخصوصيَّات مواضيعهم، التي تتطلَّب أساليب مرنة تراعي خصوصيَّاتهم الثقافيَّة والتعليميَّة والدّينيَّة والعرفيَّة في أثناء تجميع المعلومات، وتحليلها، وتشخيص حالتهم، واستخلاص النتائج منها ثمّ تفسيرها.

والمنهج الموضوعي هو المنهج المفتوح غير المقفل، فالمناهج المقفلة مناهج واهمة، تتقيد بالتكرار الذي لا يفتح آفاق التعلّم واكتساب الخبرة أمام منتهجيه، أمَّا عندما تكون المناهج مفتوحة ومقنّنة فإنَّها تكون مناهج استيعابيَّة، تستوعب تطلّعات الباحثين وشطحاتهم، مما يجعل بحوثهم إبداعيّة، ومنها يأتي الجديد.

وكما أنَّ لكل فرد منهجًا خاصًّا به في حياته العادية يسير عليه سلوكًا وأسلوبًا في تعامله مع الآخرين، ويتميّز به عنهم، كذلك الباحث ينبغي أن يكون له منهجٌ يصطبغ بخصوصيَّة موضوعه.

وعليه: ينبغي أن يهتم الباحث بالمنهج الذي يستوعب شطحاته التي منها قد يأتي الإبداع، وكثيرًا ما يصف الواهم إبداع المبدع في البداية بأنَّه شطحات، ويكون في النهاية إضافة علميَّة جديدة، مما يبطل آراء

البعض المنادين بالتقيد ببعض الاتجاهات المنهجيَّة التي لا تنتج إلّا التكرار، وتبث الملل في نفوس الباحثين.

والمنهج مع أنَّه يَنْظِمُ المعلومات تحليلًا وتعليلًا فإنَّه قد لا يكون فعَّالًا، أي: يمكن أن يتبع الباحث خطوات البحث العلمي بكل دقة، ولكنَّه قد يكون مقفلًا على تعاليم سابقة وغير قادرٍ على الخروج عنها بما يُمكِّنه من أن يكون مبدعًا.

إنَّ اقتصار التفكير العلمي على ما تسمح به اللوائح والقوانين الوضعيَّة، هو تفكير تحت قيد الأوهام فلا يحقّق الإبداع، ولا يرتقي بالمبدعين، فالذي يرتقي بالمبدعين هو ألَّا يُحدَّ من تفكيرهم بسقفٍ يقفون عنده أو دونه؛ لتكون آفاق الخيال العلمي مفتوحة أمامهم، وهكذا من الواقع والخيال والحدس يصل العقل المبدع إلى الجديد المفيد.

المنهج العلمي يرتبط بالموضوع، ولا يحيد عنه؛ ولذا فالموضوع هو الذي يحدّد المنهج المناسب للبحث أو لدراسته؛ ولهذا لا يمكن أن يكون المنهج سابقًا على الموضوع، فلولا الموضوع ما كان المنهج، ولولا المنهج ما سُبرت أغوار الموضوع وكُشفت أسراره؛ ولهذا نقول:

(لكلِّ موضوع منهج خاصٌّ به، فلا داعي لتسويق المناهج الجاهزة التي تُسهم في خلق التُّبع ولا تُسهم في خلق المبدعين).

وعليه:

بالمنهج نستطيع أخذ العبر من الماضي، ونستوعب الحاضر الجميل من أجل المستقبل الأكثر أهميَّة وجمالًا، ولكيلا تكون المناهج تكرارًا مملًّا

نتيجة اقتصارها على الجاهز فقط ينبغي أن تكون مناهج تطلّعيَّة تفتح آفاق الإبداع أمام البحَّاث في جميع مجالات العلوم وميادينها الواسعة؛ وذلك باستيعابها تطلُّعات المجتمع وأمانيه المرجوة[135].

ولذا فالمنهج يربط العلاقة بين العقل وما يفكّر فيه أو يبحث عنه، وبه تحدد المواضيع وتسبر أغوارها عللًا وأسبابًا وتحليلًا وتشخيصًا ونتيجة أو استنتاجًا، ويتضح الفن المنهجي لدى الباحث عندما يتمكّن من ضبط قدراته العقليَّة مع الموضوع قيد البحث أو الدراسة؛ لأنَّ المناهج هي المفاتيح التي تُدخل الباحث إلى الموضوع وتمكّنه من التعرف عليه وكشف أسراره وخفاياه، وتدخل المتعلّمين للكتب وتمكّنهم من الخروج منها معرفة ودراية، وبهذا تنتهي المناهج التي تُدخل المتعلّمين للكتب ولا تعلمهم كيف يخرجون منها. وبذلك المنهج هو الذي يُمكِّن من اكتشاف الأثر سواء أكان أثرًا ماديًّا أم فكريًّا.

إنَّ المناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع للبحث والدراسة هي مناهج واهمة وقوالب جاهزة لا تضيف الجديد؛ ولذا ينبغي أن تكون المناهجُ تطلّعيَّة؛ لكي تكون سباقة لتحقيق أماني المجتمع وواقية له من التخلّف والمرض، ودافعة به إلى التقدُّم والرّقي، مع أخذ الحيطة والحذر من الانتكاس.

---

[135] المصدر السابق، ص 34.

ولهذا لا ينبغي أن تقف المناهج عند الذي كان، أو عند ما هو كائن، بل يجب أن تتطلَّع إلى ما هو ممكنٌ (متوقَّع وغير متوقَّع) من أجل المستقبل الأفضل.

والمنهج العلمي هو الذي يُمكِّن من إحداث النُّقلة التي بها يُصنع المستقبل؛ ولهذا ينبغي للباحث ألا يستهين بالزَّمان، ولكيلا يستهين بالزَّمان عليه أن يُعطي قيمة له، وإن لم يفعل ذلك يجد نفسه قد أسهم في ضياعه وضياع مستقبله ومستقبل أبنائه من بعده.

وعليه: فإنَّ الزّمن مخيف وإن لم نَخَفْهُ قد نفاجئ في مستقبل منه، ممَّا يُحفِّز الباحثين لأن يصوغوا له الفروض والتساؤلات العلميَّة بموضوعيَّة؛ ولهذا فهم يبحثون دون توقّف عند حدود الماضي والحاضر؛ وذلك لمعرفتهم بأنّ المستقبل سيأتي بالقوَّة شئنا أم أبينا، فإنّ لم نعد له العدة قد ننهزم في مواجهاته.

وبما أنَّنا نعرف أنَّه سيأتي بالقوَّة، إذن: لماذا لا نبحث عنه؟ ولهذا يجب أن نتعلّم من أجل المستقبل الذي لم نعرف مضمونه، مع أنَّنا نعرف أنَّه سيأتي إن لم تقم السَّاعة؛ ولهذا فنحن الذين أسلمنا وجوهنا لله تعالى، نصلّي، ونصوم، ونحج، ونزكّي، وكذلك نعمل، ونتزوج، ونُأمِّن على ممتلكاتنا، ونأكل ونشرب، ونتعلّم، ونبحث، ونفكّر ونتذكّر ونعتبر، كل ذلك من أجل المستقبل، ولم يكن من أجل الماضي والحاضر.

وقد يتساءل آخر:

. وما الحكمة من كلِّ ذلك؟

لأنَّنا نجهل المستقبل، ولا نثق فيه، كما لا نثق في الماضي والحاضر؛ لأنَّ الماضي تركنا دون أن يأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرٌّ على ذلك بتنازله عنَّا ثانية بثانية، ولا يود الاستمرار معنا؛ ولهذا انعدمت الثّقة في الزّمنين (الماضي والحاضر)، مما يجعلنا لا نقصر تفكيرنا عيهما إلَّا لأخذ العبر والقدوة الحسنة؛ ولذا فنحن نفكر في غيرهما، ولا غير لهما إلَّا المستقبل مع أنَّه شقيقهما الذي قد يغدر بنا إذا لم نحتط من غدره، وعليه: لا ثقة في الزَّمن على الإطلاق، الثّقة في العمل دون سواه، ومن لا يعي بأهمّيّة ذلك سيكون واهمًا مع الواهمين؛ ولهذا ينبغي أن نعمل دون تردّد، نبحث، نتعلّم، نتعرَّف، ونصحّح أخطاءنا أوَّلا بأوَّل، ونتطلَّع إلى حياة المستقبل، ونعمل على صناعته دون توقف، ومن يتوقّف قليلًا لا شكَّ أنَّه سيتأخّر كثيرًا، فلا داعي للتوقّف ولو لبرهة.

المناهج العلميَّة هي المناهج التحسينية التي لا تقف عند قبول الواقع فقط، بل تعمل على تحسينه إلى ما ينبغي أن يكون عليه؛ حتى لا تكون بمرور الزَّمن جامدة لا مرونة فيها، وتصبح هرمة لا حيوية لها، متكئة على عصا لا غاية من ورائها إلَّا إثبات عدم قدرة من يتكئ عليها، فهي لم تكن عصا موسى عليه الصَّلاة والسَّلام التي جاءت حقيقة ولقفت أوهام السّحرة الواهمين.

للباحث العلمي أساليب فنية تربط المنهج بالطريقة البحثيَّة المتوافقة مع الموضوع قيد البحث والدّراسة، مما يجعل للمنهج المتقصّي للحقائق عناصر التشويق التي تُحفِّز القراء على البحث، وتُمكِّنهم من التعرّف على أسراره وخفاياه وكنوزه الثمينة؛ ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب

التقيد بها كما يعتقد الواهمون، بل لها من الأساليب المتنوِعة التي بها تتنوعّ البحوث وتتزين بموضوعيَّة.

وعليه: فإن المنهج فكر للعمليَّة الشَّاملة التي بها تحلّل المعلومات والمعارف والقضايا والعلوم والأفكار، وهذه العمليَّة هي التي تُمكِّن طرق البحث من بلوغ النتائج؛ فالطريقة التجريبيَّة لن تنجز أهدافها إلَّا بكشف العلائق الدالة على حلقات الترابط بتحليل الظَّاهر والكامن أو الصريح والضمني، وهكذا الطريقة التَّاريخيَّة وطريقة المسح الاجتماعي لن تتما كطريقتين بحثيتين إلا بالمنهج التحليلي.

لذا؛ إنْ حُددَ المنهج من قبل الباحث لا بدَّ وأن تكون من ورائه فلسفة، وتتَّضح فلسفة المنهج بالإجابة عن السُّؤال: لماذا يختلف البحَّاث، أو يتفقون في التعرّف على الموضوع الواحد، وكيف؟[136].

بشكلٍ عام يختلف البحَّاث ويتفقون حسب المواضيع، والفلسفات والأهداف المرجوة من كل باحث، وكذلك الأغراض والغايات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكلٍّ منهم أيضًا.

أمَّا بشكل خاصّ فلكلٍّ شِرعة ومنهاجًا، أي: إنَّ المنهج هو المتغيّر الرّئيس في التباين بين الباحثين؛ فمنهم من تُنْظم فرضيَّاته وتساؤلاته وأفكاره على قواعد، ومنهم من يتخلّى عنها أو عن بعض منها؛ ولهذا لا يستوون في علاقاتهم البحثيَّة مع الموضوعيَّة التي تسنها الأخلاق المهنيَّة والحرفيَّة والعلميَّة.

[136] المصدر السابق، ص 41.

ومن ثمَّ تستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع، فيُصبغ المنهج بفلسفة الموضوع كما تُصبغ الأشياء بالألوان مما يجعل وحدة بينهما لدرجة تصعب علينا الفصل بينهما؛ فالورقة الخضراء من أيّة شجرة إذا غمرناها مثلًا في محلول كيميائي قد يتغيَّر لونها الأخضر إلى لون سماوي أو برتقالي، أو أيّ لون آخر طبيعي كما تحوَّل لون مايكل جاكسون من اللون الأسمر إلى اللون الأشقر فأصبح موضوعًا بلا منهج؛ لأنَّه فقد فلسفة وجوده باللون الأسمر الذي ارتضاه الله له، حتى وإن كانت له فلسفة من وراء تغيير لونه.

وإذا غمرنا قميصًا ورديًّا في محلول كيماوي فإنَّه سيفقد لونه الذي أصطبغ به، والذي ميّزه عن غيره من ألوان القمصان، وعندما تزال الألوان عن أوصولها تصبح كالمواضيع بلا منهج؛ لأنَّ المنهج هو الطّابع المميز للموضوع من خلال وسيلة إبرازه علميًّا، وكذلك السُّبل الفنية التي تتبع من قبل الباحث في أثناء تجميع المعلومات والبيانات وانتظامها تحليلًا وتعليلًا واستنتاجًا وتفسيرًا؛ والبحث الذي لا يؤسّس على المنهج الموضوعي لا يزيد عن كونه مجهودًا وهميًّا أو مشروعًا ارتجاليًّا لا يمكن الاحتكام به ولا الاحتكام إليه.

فالمنهج هو الذي به نتعلّم كيف نتعلَّم، والمنهج الذي يعلّمنا كيف نتعلّم هو الذي يُمكِّن من المعرفة الواعية، والمناهج المخالفة لذلك هي المناهج الإعلاميّة الإبلاغيّة؛ ولذا فالفرق كبير بين المناهج التي تُعلِّمنا كيف نتعلَّم، والمناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، فالأولى: تُفسِح الطريق

أو المجال أمامنا بما يظهر إبداعاتنا العلميَّة، والثانية: تُفسِح الطريق أمامنا بما يجعلنا نردد ما تم إعلامنا أو إبلاغنا به، ولا تُحفِّزنا على سواه.

والمنهج العلمي هو الذي يُمكِّن الباحث من كشف العلاقات بين المتغيّرات والعلل والأسباب مع المقارنة لأجل التفصيل والتدقيق والتقصّي الواعي بموضوعيَّة، مما يؤدّي إلى معرفة العلاقات بين الكل والجزء والمتجزئ، وأثر كل منها على الآخر وفقًا لمتغيّرات البحث المستقلة والتابعة والمتداخلة والدخيلة.

وعليه:

لكي تكون مناهج البحث العلمي مبدعة ينبغي أن تتحرر من طرقها الوهميَّة وأساليبها التسليميَّة والسرديَّة التي لا تمكّن من استيعاب الخصوصيَّة الزّمانيّة والمكانيَّة والظرفيّة والقانونيَّة.

إنَّ انتقادنا للمناهج التسليميَّة؛ لأنَّنا نريدها أن ترتقي إلى استيعاب المستقبل الأفضل الذي يأمله النَّاس، ويكفيها القصور عند الماضي أو الحاضر فقط، وهذا لا يعني إنَّها تنفصل عن ميز الماضي ومميزات الحاضر الجميل، بل يعني: أن تَستمد القوَّة منهما لبلوغ ما هو أقوى وأعظم وأهم؛ ولهذا التسليم بكل ما يُكتب، أو يُقال لا يعد ميزة، بل يُعدّ عيبًا إن لم يتم التفحُّص بعد شكٍّ بغرض اليقين؛ ولذا لا تسليم إلّا بمسلمات يدركها العقل الواعي وتثبتها التجارب الاجتماعيَّة، أو المعمليَّة المختبريَّة، ولا تسليم إلا لمطلق، ولا مطلق إلّا من عند الله عزَّ وجلَّ، وبما أنَّنا نعترف أن البشر

غير معصومين من الخطأ، فلماذا إذن: لا نشكّ في آرائهم إلى أن نتبين أنَّه الحقّ اليقين؟!

وعندما ينتقل تفكير المعلم والمتعلِّم من الانتظار إلى الامتداد في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقّع – أي: عندما لا يقف المعلم والمتعلّم عند حد المعلومات التي استقبلوها أو تعلموها- عندها لا تتوقّف قدراتهم واستعداداتهم عن الاستيعاب بل تنطلق إلى طلب المزيد المفيد، لأنَّ التفكير العلمي تفحصي واستبياني استيضاحي استنتاجي، يربط العلاقات بين المتغيّرات، ويتوقّع معلومات أخرى قد تقع في أيّ لحظة من لحظات الزَّمن، وفي أيّ مكان على الكرة الأرضيّة[137].

والمناهج العلميَّة هي التي تبني الثّقة في المعلم والمتعلم، وتحررهما من التبعيَّة وهمومها التي تطمس شخصيّة كلّ منهما وهمًا.

والمناهج العلميَّة استفساريّة تساؤليّة؛ وذلك عندما تستفز القارئ والمتعلم علميًّا، وتحفزهما على الاطلاع والتساؤل، وتشوقهما إلى المعرفة الواعية التي لا تجعل من العلم طلاسم أمام البحث والنقاش والحوار والجدل بالتي هي أحسن؛ ولهذا لا يمكن أن يحس المعلم بالتعالي ولا يحس المتعلم بالغربة، وتنتهي النظرة التلقينيَّة التي تجعل المعلم طرفًا موجبًا، والمتعلّم طرفًا سالبًا، والمعلم مُرسل للمعلومات، والمتعلم مستقبل لها، ويصبح التعليم متحرّرًا من القيود، وفيه تتساوى كفتا الميزان بين المعلّم والمتعلّم، فمع أنَّ

---

[137] المصدر السابق، ص 53.

العمليَّة التعليميّة يقودها المعلّم فإنَّ المستهدف بالتعلّم هو المتعلّم مما يستوجب مشاركته وعدم تغييبه.

ولهذا يجب أن تبدأ المناهج مع المبحوثين والمتعلمين من حيث هم؛ لكي تندفع بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه، وذلك باستيعاب أحوالهم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والدّينيَّة والثقافيَّة، بمعرفة المستويات التي هم عليها؛ لتكون البداية منها كواقع اجتماعي وإنساني، مع مراعاة الفرق في القدرات، والاستعدادات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات؛ ذلك لأنَّ البداية مع النَّاس أو المتعلمين من حيث هم تحليلًا وتشخيصًا تُمكِّنهم من استيعاب الرِّسالة الموجهة إليهم.

والمنهج يُعدّ هو الوعي بالموضوع من خلال الوعي بفلسفته والخطوات التي تُتبع من أجل اكتماله وتبيانه، فإذا سألنا سائلٌ:

أيّهما أسرع حركة الجسم الأثقل أم الجسم الأخف؟ فإذا أجبناه إجابة عابرة كما سألنا عابرًا نقول: الجسم الأخف أسرع حركة من الجسم الأثقل، ولكن هل نحن على وعيٍ عندما أجبنا بأنَّه الأخف؟ لكي نكون واعين بإجابتنا علينا أن نطرح الأسئلة الآتية، ونحاول الإجابة عنها.

. هل تتأثَّر حركة الأجسام بحجمها أم لا تتأثر؟ أي: هل تستوي سرعة جسم يزن 145 كيلو غرامًا مع سرعة جسم يزن 75 كيلو غرامًا في مضمار كرة القدم؟

. هل تتأثر حركة الأجسام بالمسافة أم لا تتأثر؟ أي: هل تكون سرعة الجسم واحدة إذا قطع في المرة الأولى مسافة 200 متر، وفي المرة الثانية 2000 متر؟

. هل الاتجاهات تؤثّر على حركة الأجسام؟ أي: هل الحركة إلى الأمام تساوي الحركة إلى الخلف؟

. وهل الحركة من أسفل إلى أعلى تساوي حركة الجسم وسرعته من أعلى إلى أسفل؟

. هل الزَّمن يؤثّر على حركة الأجسام؟

. هل الذي قضى من الزَّمن 80 عامًا يكون مساويًا لمن لم يقض إلَّا 25 عامًا في سرعة حركته؟

. هل اختلاف زمن السّباق للمتساوين في السّرعة لا يؤثّر في المسافة المستهدفة بالمرور؟

. ألا تتأثر حركة الأجسام بنوعيّة الأرضيّة التي يتحرك عليها؟ أي: هل الحركة على الأرض الرمليّة تساوي الحركة على الأرض الممهدة بالفلّين؟

. هل المناخ يؤثّر على الحركة؟ أي: هل الحركة في اتجاه الريح تساوي الحركة التي في مواجهتها؟

. ألا يكون للحرارة تأثير على الحركة والمتحرك؟

. هل للثقل أثر على الحركة؟ أي: هل كلَّما زاد ثقل الجسم قلت سرعته الحركيّة؟

. ألا يكون شكل الجسم مؤثّرًا على حركته؟ أي: أيهما يسقط أوّلًا كرة دائريّة الشّكل وتزن كيلو جرامًا، أم مظلة دائريّة الشّكل وتزن 3 كيلو جرامات؟[138]

كل الأسئلة السَّابقة تحمل إجاباتها في مضامينها نتيجة منهج التوليد الذي يحدّد متغيّراتها والعلاقات المتكوِّنة بينهما وتأثيراتها الموجبة والسَّالبة، وعناصر الإثبات والنفي المحمولة فيها؛ ولذا فطريقة عرض هذه الأسئلة تعبر عن وجود منهج من ورائه حكمة؛ ويكون المنهج في هذه الحالة هو المجسد للسُّبل التي يتّبعها الباحث في تقصي المعلومات وتفكيكها من خلال تتبّع موضوعي من الكل إلى الجزء ثم إلى المتجزئ منه مما يجعل المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من ألفه إلى يائه.

ولهذا فالمنهج لم يكن قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار تحت درجات حرارة عالية وكأنَّه فرن لإذابة الحديد أو الخامات المعدنيّة الأخرى الصّلبة، بل المنهج يكون قابلًا لاستيعاب الجديد ويسعى للكشف عنه.

والمنهج لم يكن تكرارًا روتينيًّا كما يعتقد البعض الذين يحاولون قصره على دراسة الماضي بالتحليل والتفسير، أو البعض الآخر الذي يريد قصره على دراسة الحاضر المشاهد، بل هو الذي يربط الموضوع بالزَّمان والمتغيّرات

---

[138] عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات جامعة الفاتح، دار ألجا، الطبعة الثانية، 1995، ص 48.

التي تظهر من فترة لأخرى، ومن مكان لآخر وهو المستوعب للمستقبل والمتطلّع إلى آفاقه المرتقبة[139].

ومن ثمَّ بالمنهج يتم أخذ العبر من الماضي، واستيعاب الحاضر من أجل المستقبل الأنفع والأفيد، ولكي لا تكون المناهج تكرارات روتينيّة تُولِّدُ الملل عندما تقتصر على معرفة الجاهز فقط في الزَّمن الماضي أو الحاضر ينبغي أن تكون تطلّعيَّة؛ لكي تفتح آفاق الإبداع أمام العلوم باستيعابها تطلعات المجتمع وأمانيه وتتابع عن كثب مراحل نموّه وتطوّره وتستوعب التغيرات الطَّارئة عليه، وكذلك ينبغي أن تستوعب شطحات الباحث العلميَّة من أجل أن تفتح الآفاق أمامه في معرفة الجديد واكتشافه من خلال خروجه عن الروتين والقولبة الفكريَّة والعقليَّة المميتة للتألق والإبداع وبلوغ الخوارق[140].

وعليه: فالمنهج العلمي هو الذي يُتَّبع في تقصي الحقائق وتبيانها، ويحتوي على عناصر التشويق التي تُحفِّز القراء على البحث والتقصي الدقيق الواعي، وتُمكِّنهم من التعرّف على أسراره وخفاياه؛ ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض، بل تختلف بالضرورة من موضوع إلى آخر، ومن باحث إلى آخر، وحسب الظّرف الزَّماني والمكاني والفلسفة التي دفعت الباحث إلى اختيار الموضوع والبحث فيه.

---

139 عقيل حسين عقيل، القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2020، ص 24- 47.

140 المصدر السابق، 61،

ونتفق مع الفيلسوف ديكارت في قوله: "ليس غرضي ها هنا أن أعلم المنهج الذي ينبغي على كل امرئ اتباعه من أجل اقتياد عقله على النحو الصحيح، بل فقط أن أبيِّنَ الطريق الذي سلكته لإرشاد عقلي"[141].

ويتمركز منهج ديكارت على معطيتين رئيستين، هما:

الحدس: أي التصوُّر الذي يتولَّد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الأنوار العقلية، ومن هنا فالحدس هو مصدر المعرفة الأوَّل وليس الإحساس.

الاستنباط: هو العمليَّة العقليَّة التي تنقلنا من الفكرة البديهيّة إلى نتيجة أخرى تصدر عنها بالضرورة، أي: استنباط الحقائق بالمنطق والحجَّة.

ويستند المنهج الديكارتي إلى أربع قواعد:

1 - التسليم بيقينيّة المبادئ التي تبدو للعقل بسيطة وواضحة، لا تثير يقينيَّتها أي شك بداهةً، وهو ما يفهم أو يدرك بالفطرة، والبديهي هو الأمر الواضح بذاته لا يحتاج إلى غيره ليفك الغموض والالتباس عنه، ويعني: لا أقبل شيئًا على أنَّه حقّ ما لم أعرف بوضوح أنَّه كذلك؛ ولذا يجب أن أتجنَّب التسرُّع، وألّا أتشبَّث بالأحكام السَّابقة، وألّا أُدخل في أحكامي إلّا ما يتمثّل لعقلي في وضوح وتميّز يزول معهما كل شكّ.

2- تقسيم كل مشكلة إلى أجزائها (التحليل)، أي: تقسيم المشكلة المعترضة إلى ما يمكن من الأجزاء والمشكلات؛ ليتم تبسيطها وتوضيحها

---

[141] عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984، ص 493.

أكثر، ومن ثمَّ عندما يتم تقسيم المشكلة المطروحة الى أكبر عدد ممكن من القضايا نصل إلى فهم كل واحدة على حدة فتكون بذلك الرؤية واضحة ومتميزة.

3 – الانتقال المنظّم من المعروف والمبرهن عليه إلى المجهول الذي يتطلّب البرهان (التركيب والتأليف)، والتركيب يأتي في مقابل التحليل، أي: القيام بعمليّة عكسيّة، فبعدما تم فصل الأجزاء في مرحلة سابقة، نكون خلال هذه المرحلة بصدد تركيبها وجمعها من جديد؛ ليكون ذلك التركيب هو الانطلاق من الجزئيَّات إلى الكليَّات.

4 – عدم إغفال أي من مراحل البحث المنطقيَّة استقراءً وإحصاء من خلال المراجعة لكل العناصر والأجزاء بغاية الوصول إلى الصدق واليقين؛ وذلك من حيث أنَّ الإنسان كائنٌ نسبي معرَّض للنسيان والخطأ، ويعمل وفق مشاعر وعواطف قد تحيده عن طريق الموضوعيّة[142].

هذه القواعد أُخذ بها وما زال يؤخذ حتى الآن في تقصِّي المعلومات وتتبعها مركبة ومجزأة وكمًّا وكيفًا.

ونحن نقول إنَّ للمنهج البحثي ثلاث قواعد رئيسة وواضحة لكشف الحقيقة يقينًا وتبيانًا، مع التمكين من كشف الجديد وإضافته لميادين المعرفة العلميَّة وهي:

---

142 توم سوريل، ديكارت، (ترجمة: أحمد محمَّد السروي)، القاهرة: 2014م، ص 63.

1 – العلم اليقين: الذي لا ظنون فيه ولا شكوك، مسلّمات هي كما هي، سواء أكانت من مصادر ومخطوطات متحقّق منها، أم كانت عن علم مُنزّل تنزيلًا من الله تعالى، أو حديث مجمع عليه.

2 – العين اليقين: تراه مشاهدةً بأمِّ عينيك، أو تلاحظه ملاحظةً واعيةً، مع أخذ الحيطة والحذر من خدعة الحواس.

3 – الحق اليقين: الذي لا يكون إلّا عن معايشة وتجربة، سواء أكانت تجربة اجتماعيَّة أم معمليّة ومختبريَّة.

هذه القواعد تُمكّن الباحث أو الكاتب أو المفكر من الدخول إلى الكتب عن يقينٍ والخروج منها وعيًا، أو الخروج عنها وعيًا، ولتبيان ذلك أقول:

الخروج منها: الخروج من الكتب استفادة ومعرفة تُمكّن من التغيير.

الخروج عنها: الخروج عمَّا احتوته من معارف لا يقين فيها، ولا حجّة، ولا تُمكِّن من العمل والتغيير.

وعليه:

فالمنهج لا يُكتب، بل يُكتب عنه، فما يكتب هو المعلومة سواء أكانت معطية أم نتيجة، أمّا المنهج فهو الفِكْر الذي به يستقرأ النصّ، وبه تفكك المعلومة وتركب؛ لِتُنظم بكيفيَّة تجعل لها وحدة لا متناقضات بين مفرداتها والتي إذا ما ظهرت المتناقضات جعلتها وهمًا في ذهن الكاتب، أو المؤلف، أو الباحث، والمفكر تجاه سعيه لإظهار الحقيقة وكشف الزّيف

عنها؛ ولأنَّ المنهج يكتب عنه ولا يُكتب فمن يعتقد أنَّه بإمكانه كتابة المنهج فهو لا يزيد عن كونه واهمًا.

والغرض من تقديم المنهج هو تبيان النقاط المهمَّة والأساسيَّة في استيضاح المعلومات والبيانات؛ حتى لا يضيع جهد من يحاول البحث في التخطيط الواهم الذي تجاوزه العلم الحديث؛ ولهذا تكون للمنهج قواعد علميَّة ينطلق منها البحَّاث ويعودون إليها عند الحاجة دون أن تُجرّدَهم من خصوصيَّاتهم الذاتيَّة وأساليبهم الموضوعيَّة[143].

كسرُ أوهام القوَّة:

مع أنَّ القوَّة لا تستمدُّ إلَّا من القوي، ولا يُعظَّم شأن الضّعيف إلَّا بها فإنَّ كثيرين من الذين امتلكوا القوَّة وهمًا انكسروا بقوّة لا وهم فيها، فالقوّة التي لا تحقّق التوازن حتى وإن انتصر أصحابها في معركة أو عدة معارك سيتعرّضون لكسرٍ وهزيمةٍ من قوّةٍ قادرةٍ على إعادة التوازن حتى وإن كانت هذه القوّة نتاج قوّة متحالفة.

كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ المُتَوَازِيَةِ مَعَ خَطِّ الْوَطَنِ:

يَرسمُ خطَّ الوطن دستورٌ يرسِّخ السّيادة، ويَرسمُ الخريطة الوطنيَّة لوحةً جميلةً بروعةِ فُسيفساءِ ألوانه الطبيعيَّة دون أن يستثني لونًا من ألوانه أو يُقصيه، ويمكّن إرادةً من إشباع حاجات الشّعب المتطوّرة والمتنوّعة، وكلٌ

---

[143] عقيل حسين عقيل، البحث العلمي (المنهج والطريقة)، القاهرة: المصرية للنشر والتوزيع، 2019، ص 22 – 45.

في مكانه حيث لا مركز في الوطن إلَّا الشَّعب يمارس حقوقه، ويؤدَّي واجباته، ويحمل مسئوليَّاته؛ ولهذا فلا مجال للخطوط المتوازية مع سيادة الشّعب وإرادته الحرّة، وفي حالة ما إذا تكوَّنت أو ظهرت خطوط متوازية مع خط الوطن فهي إن لم تكسَّر ستكون على حسابه سيادة وإرادة، وفي المقابل من يظن بداية أنَّها لا تخيف سيكتشف نفسه نهاية من الواهمين.

ويتكوَّن خَطُّ الوطن من تلك النِّقاط المتراصَّةِ مواطنين، والقيم الحميدة ترسِّخ سيادتهم تاريخًا عبر الزّمن، والمأمولُ بالنسبة لهم لا ينفصلُ عن المستقبلِ رفعةً، والإرادةُ لا تنكسرُ أبدًا.

ولأنَّ الخطوطَ المتوازيةَ لا تلتقي ما لم تصطدمْ بخطٍّ قاطعٍ لتمدداتها؛ فتنكسرُ أمامَ فائض القوَّة المعترضِ لتلك الخطوطِ المتوازيةِ، فهنا قد تغيَّر القراءاتُ والحساباتُ أو السياساتُ مما يجعل الاندماج بين الخطوط المتوازية في دائرة المتوقَّع ممكنًا؛ ولذا ينبغي أن تُكسر الخطوط المتوازية مع خط الوطن قبل أن تكون علّة لكسرهِ.

وَمِنْ ثَّم فخطُّ الوطنِ لا يكون إلَّا بالجميعِ وَمِنْ أجلهم، أمَّا الخطوط المتوازية معه فلا تكونُ إلَّا على حسابه، مما يستدعي وجوب تكسير فائض القوَّة، الذي يُشَكِّل خطرًا على الوطن قبل أن تَسُودَ الخطوطُ الواهمة؛ اقتتالًا ونهبًا لثرواته، وهدًّا لسيادته، وكسرًا لهيبته.

إِذَن: إِذَا أردنا وطنًا وسيادةً فينبغي أن نقبلَ بدفعِ الثَّمنِ المُمَكِّنِ من تكسير فائض القوى المتوازية مع خط الوطن، والتي تهدّد أمنه وسلامة شعبه وسيادته، وفي المقابل إذا قبلنا بانكسار السّيادةِ والإرادةِ فَلا داعي

للتعبيرِ وإلقاءِ الخطابات النَّاريَّة، والظهور في القنواتِ المرئيَّة والاستئساد على الضعفاءِ.

وعَلَيْهِ: فَلا إمكانية لعزّةِ وطنٍ والخطوط المتوازية معه داخل الوطن لها من فائضِ القوّةِ ما لها.

ولذا فعندما يتغوَّل الأفرادُ أو الجماعاتُ أو القبائلُ أو الأحزابُ، أو الطوائفُ والطبقاتُ على حساب خط الوطن تضيعُ مصالحُ الشَّعْبِ، وتتشتتُ قُوَاهُم، وتنهك طاقاتهم؛ فيتحولون إلى خصوم وأعداء، ويتحولُ الوطنُ إلى تِيهٍ والمواطنون فيه ضياعٌ؛ ولهذا لا مُهْلِكَ للوطنِ إلَّا المُتَغَوِّلُونَ بأوهام السُّلطة أو الثروة أو العصبيَّة، وكذلك المُتَأَدْلِجُونَ لأيِّ فِكْرَةٍ أو فِكَرٍ؛ الذين لا يرون الوطن إلَّا بأعينِ الْغَيْرِ.

وأَقُولُ: إنَّ أخطرَ المُتَغَوِّلِينَ هم المُسْتَوْلُونَ على الحكم بفائضِ القوَّة على حساب سيادةِ الوطنِ كما هو حال الانقلاباتِ العسكريَّةِ الواهمة، التي يقودُهَا فردٌ أو مجموعةُ أفرادٍ؛ عَسْكَرَةً للدَّولةِ على حساب مَدَنِيَّتِهَا ووطَنِيَّتِهَا وإرادة شعبها، وفي المقابل عندما يكون الجيشُ وطنيًّا فلا إمكانيَّة لنجاحِ هذه التَّغَوُّلَاتِ؛ ولذا دائمًا الجيوشُ الوطنيَّةُ حاميةٌ للحدودِ، وصَائِنَةٌ للدَّساتيرِ، وحاميةٌ لمؤسّساتِ الدَّولةِ كلما تعرضت لخطر.

وَمِنْ ثَمَّ عندما ينتخبُ الشَّعْبُ ممثلينَ له ونوابًا عنه فلا خَطَّ لهم يسيرونَ عليهِ إلَّا خط الوطن، ومع ذلك فلكلّ قاعدةٍ استثناءٌ؛ فمتى ما انقلبَ الممثلونَ وتوازوا وهمًا مع خطِّ الوطن انقلب الشَّعْبُ عليهم إرادةً وسيادةً.

وهكذَا تتوازى الخطوطُ استثناءً مع خط الوطن بعللِ فائضِ القوَّة التي ينبغي أن تكسَّر في مهدهَا قبل أن تتحوَّل إلى وهمٍ مستغولٍ على حسابِ قوَّة الوطنِ وسيادةِ شعبِهِ، وهذا بالتمام ينطبق على الأحزاب والقبائل والطوائف فعلى سبيل المثال: الحكم الطَّائفي كما هو في (لبنان) يعد خطًّا متوازيًا مع خطِّ الوطنِ؛ إذْ لا مستقبل آمن للبنان والشَّعب اللبناني والخطوط المتوازية معه خطوطًا تمتلك فائض القوّة على حساب قوّة الوطن، وكذلك لا مستقبل للعراقِ وخطوط الشِّيعَةِ والسُّنَّةِ تمتلك فائض قوّة على حسابه، وهكذا لنْ يكونَ هناك مستقبلٌ آمنٌ لليمنِ وفيه أكثر من حكومة أو قوّة مسلَّحة تُغَذِّيهَا قوىً خارجيَّةً بالحقدِ والكرهِ لإخوانهم في الوطنِ.

ولأنَّ الخطوطَ المتوازيةَ مع خط الوطن لا تكون إلا على حسابه كانت الخطوطُ المتوازية في ليبيا على حساب الليبيين ومصالحهم وحاضرهم ومستقبلهم؛ ولهذا لا إمكانيَّة لقيام الدّولة الليبيَّة ما لم يكسر فائض القوّة التي تهدد أمن الدَّولة ومواطنيها، ولا إمكانيَّة للسيادةِ الوطنيَّة وفي الدولة أكثر من حكومة وأكثر من مجلس متوازٍ مع غيره على حساب قيامِ الدَّولةِ الوطنيَّةِ.

وَعَلَيْهِ: فَلَا إمكانيَّة لقيامِ الدَّولة ولا مستقبل لأي دولةٍ والعصابات فيها والمليشيات تتغوّل على حساب أمن الوطن ونموه، وأيضًا لا إمكانيَّة لقيامِ الدَّولة ورؤوس الخطوطِ المتوازيةِ مع خط الوطن تُحَرَّكُ مِن الخارجِ؛ تَبَعِيَّةً وَعَمَالَةً وإن كانت شعاراتها: (مِنْ أَجْلِ الْوَطَنِ).

وحتَّى لا تلهينا الشعاراتُ الزائفةُ علينا أن نميّزَ بين مفهومي: (الْوَطَن، وَالوطَنِيَّة)؛ فالوطنُ هو الأرضُ الَّتي لا تُبَاعُ وَبِأي ثَمَنٍ، والأَنْفُسُ الْغَالِيَةُ ترخصُ مِنْ أَجْلِهِ، ومع ذلك فالوطنُ ليس الترابُ وحده، بل الشَّعْبُ سيدًا على أرضِهِ هو المالكُ لترابِهِ كَامِلًا.

أما الوطنيَّةُ فهي التشبُّثُ بالسّيادةِ الوطنيَّة والتمسّكُ بها وعيًا بوافرِ الإرادةِ والرّغبةِ مع ثبات وديمومة يجعلان للأرض قيمةً، وللملكيَّةِ قيمةً، وللحياةِ قيمةً ممَّا يجعلُ الوطن ملكًا للجميع، وثرواته لا تستغل إلا من أجل مواطنيه نهوضًا ورفاهيةً.

ولِذَا لَا يَنْبَغِي أنْ تسودَ أيُّ قوّةٍ على حسابِ قوّةِ الشَّعبِ وسيادتِهِ الحرَّة؛ ومن ثم فمن يوهم نفسه بأنَّه قوةً على حسابِ قوَّة الشعب يُعَدُّ خطرًا ينبغي أَنْ يكسَّرَ قبل أن يصبح خطًّا متوازيا مع خط الوطن وإرادة شعبه، ومن هنا يجب أن نميّز بين القوَّة وفائض القوَّة؛ فالقوّة حيويَّةُ الحركة والتمدّد من أجل البقاء المشبع للحاجات المتطوّرة، والذي لا يكون على حساب الغير (القوّة خير). أمَّا فائض القوّة فهو زائدُ الحيويَّة التي تمكّن من التمدد قهرًا على حساب الغير؛ ذلك لأنَّ فائض القوّة عندما يتوازى مع خط الوطن لا خير فيه أبدا .

ومع أنَّ الخطوط المتوازية لا تكون إلا على حساب خط الوطن فإنَّ مجموع قوى الخطوط المتوازية يكون أكثر خطرًا من توازي الخطوطِ المتعددة معه؛ ولهذا فإنَّ جهود المبعوثين الأمميين كما هو الحال في ليبيا واليمن لا تكون إلا أكثر خطورة على الليبيين واليمنيين؛ وذلك لأنَّ تجميع الخطوط

المتوازية مع خطِّ الوطن تؤدّي إلى تعظيم فائض القوّة التي كانت فائض قوى متفرقة؛ ولذا وجب الانتباه لجهود المبعوثين الأمميين:

هل جهوده من أجل المواطنين أم إنَّها من أجل الرؤوس المالكة لفائض القوّة المتوازية مع خط الوطن؟ أي: إذا كانت الجهودُ الدوليَّةُ من أجل الوطن فهي الجهود الموجبة؛ لأنَّها لا بد وأن تؤدّي إلى تكسير فائض القوّة المتوازية مع خط الوطن سلاحًا ومالًا واحتكارًا لمؤسّسات الدولة، أمّا إذا كانت الجهودُ الدوليَّةُ من أجل إنقاذ القوى المتوازية مع خط الوطن فهنا يصبح المبعوث الأممي خطًّا إضافيًّا موازيًا لخط الوطن؛ وهنا لا يمكن أن يستقيم الظل والعود أعوج.

كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ يُمَكّن مِن إِعَادَةِ التَّوازنِ:

إِعَادَةُ التَّوازن تُمكِّن من إعادة الإنسان إلى عقله وذاكرته، التي تخرجه من التَّأزمات والوهم، وتلفته إلى حُسنِ التَّدبر إن تَدَبَّر، ومن ثم تُمكِّنه من الجلوسِ على كفَّة الاتِّزان في مقابلِ كفّة الخصم: (لكل فعلٍ ردُّ فعلٍ يساويه في القوّة، ويعاكسه في الاتجاه)، ومن هنا يصبح الصّفر نقطةَ تمركز الإرادةِ العادِلَة؛ ولهذا نقول دائمًا: (لا لفَائض القوّةِ ما لم يكن رأسَ مالٍ وطني، به يصنع المستقبل المأمول قمّةً وطينةً).

أمَّا عندما يصبحُ فائضُ القوَّة موظَّفًا في غير أوجهِهِ فيجب أن يكسر قبل أن يكون أداةَ كسرٍ واهمةٍ؛ ولذا ينبغي تكسير فائض القوَّة بغاية إعادة التَّوازن المفقود وفقًا للآتي:

- إعادة التَّوازن بين الرَّجل والمرأة في كل ما يتعلق بهما من أمرٍ (سياسي، واقتصادي، واجتماعي) وهذا الأمرُ يتطلّب كسر فائض القوّة الواهمة، الذي يحتكره الرَّجل بغير عدالة.

- كَسر فائضِ القوَّة الدائر بين الأجيال (الشَّباب-الكِبَار)؛ حتى تصبحَ المشاركةُ متَّزنةً على كفّتي الميزان العادل، ويجب أن تطوى صفحة الدّعايات الانتخابيّة باسم الشَّباب؛ فهم فِي حقيقة الأمر لَم يمكَّنوا من الجلوس على كفّتي الاتزان المتماثل إرادة؛ ولذَا فإن التَّوازن قادرٌ على ضبط الإيقاعِ السِّياسي والاقتصادي والاجتماعي مع ضبطه لإيقاعِ التَّنوع، الذي به تتزّين خريطة الوطن رفعةً ومكانةً.

- كسر فائض القوّة السّياسية المؤسّسة على المغالبة القهريَّة، والقبول بالأمر الواقع والرُّضوخ إليه؛ مما جعل رؤوس بعض الأنظمة السياسيَّة وكأنَّهم الأوصياء على الدَّولة، وكأنَّ الدّولة ملك لهم، والشّعب لا يزيد عن كونه أيد عاملة للمالك، ومن ثَّم وجب تكسير الفائض من القوَّة المهيمنة على الإرادة الوطنيّة في الدّولة، ولكن هذا الأمر لن يتمَّ إلا بقبول دفع الثّمن وقد يكون غاليًا ومع ذلك كلّما اشتدت فرجت، ولكي يستقر الاتزان عدلًا ينبغي صوغ الدستور الوطني الضامن للاتزان استقرارًا وتقدُّمًا، وبالتالي تصبح الديمقراطيّة تاجًا على رؤوس المواطنين، كما أصبحت تاجًا على رؤوس التونسيين الكرام، الذين تجاوزوا عقدةَ الخوف من ممارسة الحريّة ديمقراطيًّا؛ حيث سقطت رغبة الحكومة أمام رغبة الشّعب وإرادته، أي: سقط فائض القوّة السياسي، الذي كان بيد السّلطة أمام قوّة الشّعب

عندما أصبح التوازن ممكنًا في انتخابات شفافة؛ حيث الحكومة لم تعد هي المرجعيَّة، ولا الأحزاب بل الشّعب، ولا مرجعيّة غيره.

– تكسير فائض القوّة سياسة دوليَّة متبادلة؛ وكأنّه سلعة في ذاته؛ ولهذا تعمل الولايات المتحدة الأمريكية على تكسير فائض قوّة ميزان التَّبادل التُّجاري مع الصِّين بحيث لا تحدث المغالبة اقتصادًا وسياسةً في صالح الصّين، التي مالت كفّة التَّبادل التُّجاري معها على حساب كفّة التوازن الأمريكي، وهكذا الدول النوويّة الكبرى تسعى لكسر فائض القوّة لدى الدّول النامية تقدمًا كما هو الحال مع إيران وكوريا الشماليّة، الدولتين اللَّتين تسعيان إلى امتلاك السّلاح النووي في المجالات العسكريّة، ومع أنَّ تكسير فائض القوّة يُمكّن من إعادة التَّوازن فإنَّه أيضًا يؤدِّي إلى الرضوخ بأسباب فائض القوى الكبرى (فائض قوّة أمريكا يمكن من تكسير فائض القوّة الناشئة نهوضًا).

– تكسير فائض القوّة الاقتصاديّة المستغلة بغير شرعيَّة وطنيَّة، مع القضاء على الاحتكار متعدد الأوجه؛ حتى يصبح الميزان الاقتصادي عدالة سوق مع عدالة اجتماعيّة (ثروات الوطن تقسم على عدد مواطنيه) مع وافر الخدمات لكل من المنتج والمستهلك، ومع مراعاة إشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة؛ حتى تصبح سياسات السّوق الوطني تشكل نموًّا وطنيًّا يمكّن من إحداث النُّقلة للجميع استثمارًا لا استغلالًا.

– تكسير فائض القوَّة اقتتالًا؛ حتى تتوازن كفتي المتقاتلين، كما هو المشهد الليبي المدعوم اقتتالًا من الأجانب (إقليميين – ودوليين)؛ الذي

أصبحت الغاية من خلفه تكسير القوّة الزائدة لدى جميع الأطراف الليبية المتقاتلة، وبالتالي لا وجود لطرف خاسر إلا الليبيين المتخالفين بلا وفاق وطني؛ فالأجانب يدعمون الليبيين المتخالفين؛ حتى يتم تكسير فائض القوّة البشريّة الراغبة في الاقتتال، وكذلك تكسير السّلاح الذي بأيديهم؛ حتى يرضخوا للجلوس على طاولة الحوار السياسي المخرج من الاقتتال والتأزّم؛ ولهذا كلما استشعر الدَّاعم الأجنبي أنَّ أحد الأطراف يكاد يهزم يمده بالدّعم؛ حتى ينهض للمواجهة المؤدّية لإعادة التَّوازن الممكّن من الجلوس تفاوضًا.

- تكسير فائض قوّة العصبيّة الواهمة عرقيًّا يعد من ضروريات التوازن الوطني عندما يراد للعصبيّة العرقيّة أن تكون على حساب روح المواطنة والعدالة الوطنيّة؛ فليبيا على سبيل المثال عندما يتساوى فيها الأمازيغي الليبي مع العربي الليبي، والتارقي الليبي والتباوي الليبي في ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليّات؛ فلا مبرر للعصبيّة العرقيّة؛ حيث لا وجود لأيّة علة تخل بالتوازن الوطني لدى أبناء الشّعب الليبي؛ ولهذا عندما تمارس المواطنة بلا فوارق ظالمة تصبح الدولة الوطنيّة وحدها هي المنقذ.

- تكسير فائض قوّة العصبيّة الدينيّة الواهمة؛ حيث الرب واحد، والدين واحد، ولا إكراه؛ ولذا لا يليق أن يدعي أحد أنه الوصي عليه؛ وبالتالي فمن يضع نفسه وصيًّا يجد نفسه في مواجهة العدالة، التي بها يحتكم أهل الدين الواحد حتى يعود إلى صوابه وتوازنه النفسي والعقلي والفكري بلا خلل.

- تكسير فائض قوّة التعصّب الواهم أيديولوجيًّا الذي يلغي الآخرين؛ لمجرد عدم إيمانهم بأطروحاته، التي لا تزيد عن كونها رؤية فرديّة، يراد لها أن تعم على حساب الغير ورؤاهم؛ ولهذا ينبغي تكسير كل متجاوز فكري لحقوق المواطنة، وواجبات المواطنين؛ حتى تعتدل كفّتي (أنا وأنت) على موازين ممارسة الحريّة بأسلوب ديمقراطي، ومن ثمَّ يعتق الجميع من قيود القولبة الفكريّة، التي لا تنتج إلا التُّبَّع.

- تكسير فائض أوهام الأحقاد، التي تتراكم بأسباب عدم المبالاة، وإعطاء النَّاس الظهر؛ وكأنَّهم بلا قيمة إنسانيّة، في الوقت الذي ينبغي أن تسود فيه قيمة الإنسان حرًّا في كل ما يتعلق به من أمر (سياسي، اقتصادي، اجتماعي)؛ فالإنسان دائمًا قيمة عالية وغالية لا ينبغي الاستهانة به، بل يجب أن نلتمس له العذر؛ حتى يعود إلى توازنه الاجتماعي والأخلاقي، الذي يُمكّنه من الاندماج المتوازن، أو يمكّنه من الخروج الآمن.

وعليه: في ليبيا على سبيل المثال: فمن يرى (ديسمبر 1951م) كان حلًّا للتأزم الليبي فَلِمَ لا يحترم رأيه، ومن يرى (سبتمبر 1969م) كان حلًّا للتأزم الليبي لم لا يحترم رأيه؟! ومن يرى أن (فبراير 2017م) جاء حلًّا للتأزم الليبي لم لا يحترم رأيه؟! ولذا أقول: ينبغي أن يكسر فائض الأحقاد الواهمة بمشروع وطني متوازن به تطوى صفحات الخلاف، وتفتح صفحات آفاق المستقبل، وإحداث النُّقلة الوطنيَّة بلا أحقاد ومواجع؛ ومن ثم نسعى إلى صوغ دستور وطني يمكّن من ممارسة الحريّة والتداول السّلمي على السّلطة وبالتّالي يمكّن المواطنين من امتلاك الدّولة الليبيّة سياسةً

واقتصادًا واجتماعًا، مع تقدير منظومة القيم والعودة الى الذاكرة؛ حيث لا ولا الّا للوطن، ولا أحد فيه يقصى ويكسر إلا إذا كان فائضًا على حساب قوّة الوطن وسلامة شعبه وأمنه.

كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ مُغَالَبَةً:

(لا للمُغَالَبَة) مفهوم موجب لكلمة سالبة (المغالبة)، منهيًّا عنها بـ(لا)، ومع أنَّها أصبحت موجبة (لا للمغالبة) فإنَّها أصبحت واجبة القول؛ تجنبًا لسيادة الهيمنة والتهميش والقهر على حساب نظريَّة (استيعاب الآخر)، فـ(المغالبة) لغة الظالمين، الذين لا يَرَوْنَ مصلحةً إلا مصلحتهم، ولا يرون الآخرين إلا آخرين.

ومع أنَّ (المغالبة) قيمة سالبة فإنَّها في أوطاننا قد ورِّثَت من جيل إلى جيل؛ بها ينامون، وعليها يُصْبِحُون، وكأنّها القَرِينُ الذي لا يفارق إلا من رحم ربُّك.

ولأنّ وراء كل علّة معلول، فإنّ علّة (أوهام المغالبة) عند العربي كانت بعلّةِ استهدافه عبر التَّاريخ ظلمًا وعدوانًا، حتى أصبحت لغة (المغالبة الواهمة) تجري في دمه؛ خوفًا وعصبيَّةً، وكأنَّه لم يبلغ المَدَنِيَّة يومًا، وكأنَّه لم يكن أصلَ الحضارة، وأهلَ الرّسالة، وأصبحت لغة (المغالبة) لسان حاله، لا يطمئن إلا إليها، حتى أصبح لا يُفَرِّق بينها وبين الشّجاعة؛ إذ أصبحت لغة (المغالبة) في أسواق العرب رائجةً؛ كونها عادةً اعتادوها، عليها يُرَبَّى النشء، وبها يتفاخرون؛ ولهذا تُعَدُّ الوصيّة الأولى التي يوصي بها الآباء أبناءهم وهمًا يوم التحاقهم بمرحلة التَّعليم الابتدائي، ويا ليتها تموت.

ولأنَّها (المغالبة الواهمة) التي لم تَمُتْ بعدُ فها هي تملأ بلادنا حيويَّة؛ حيث يتدافعُ الإخوة اقتتالًا؛ بغاية الهيمنة، التي لن تتوقفَ ما لم يتم تكسيرُ فائضِ القوَّةِ من أيدي المتقاتلين، فمن وجهة نظر الآخر (المدوِّل للمشكل الوطني) لا إمكانيّة لتأسيس الدّولة الآمنة ما لم يتم تكسيرُ فائضِ القوَّة، أي: لا تأسيسَ ولا بناءَ إلا بعد الانتهاء من مرحلة التكسير، التي في أساسِ وجودها كانت ولادَةً أجنبيةً من (المدوِّل)؛ ولهذا لا بد من كسرِ الشَّوكة الواهمة، وتخييب الأمل لكل الأطراف الواهمة بفائض قوّتها؛ بحيث لا يكون طرفٌ قويٌّ في الدولة (لا غالبَ ولا مغلوبَ)، ومن بعدها ينبغي أنْ يمارس الشعب الديمقراطيَّة، ولكن أيَّة ديمقراطيَّة؟!

إنَّها ديمقراطيّة امتلاك الدّولة، التي لا تتحقّق إلا اقتصادًا وطنيًّا، فالليبيون على سبيل المثال: لا شك أنهم جرَّبُوا ديمقراطية الدولة الريعيّة (الدّولة النفطيّة)، ومركزيّة إدارتها، حتى سئموها، وبلغ الحال بهم رفضًا وتمرُّدًا وثورة حتى أسقطوها، وهنا وقفوا حيارى؛ حيث لا بديل، مما جعل بعض النّاس يصرخون: (أَعِيْدُوا لنَا الدَّوْلَةَ) وهم يقصدون بعودتها: (عودةُ الأَمْنِ إِلَيْهِم)، وكأنّه لا بديل للدّولة الريعيّة، ومركزيّة إدارتها، في الوقت الذي نرى فيه دولَ العالم المُتَقَدِّم دولًا لا ريعيّة؛ حيث المواطنون فيها أرقام يساوون قيمًا، في الوقت الذي فيه المواطنون في الدّول الريعيّة (الدول النفطيّة) يساوون أرقامًا بلا قِيْمَة.

ومن ثم إذا أراد الليبيون النهوض والتقدم فعليهم بحرق أوراق الدّولة الريعيّة ومركزيّة إدارتها، وتأسيس الدّولة الديمقراطيّة، التي يكون المواطن فيها رقمًا يساوي قيمةً وطنيَّةً؛ كونه المالك للدّولة، من خلال ما يُسْتَقْطَعُ منه

من ضرائبَ مقابل خدمة، أو إنتاج، أو صناعة أو تجارة، فالدولة الوطنيّة تكسب حيويّتها من هذه الضرائب، ويكتسب المواطن شرعيّته منها، أي: يعطي المواطن الضرائب التي تمكّنه من ملكيّة الدّولة، وفقًا لدخله، وأنشطته المتنوّعة والمتعددة قانونًا، إضافة إلى حقه في العائد العام من الموارد الطبيعيّة، واستثماراتها الوطنيّة، ومن هنا يكتسب المواطن حق المراقبة، والمحاسبة، والمساءلة من خلال ممثلين له في المجالس التّشريعيّة والتّنفيذيّة.

ولهذا لا يمكن أن تكون الدولة ديمقراطيّة والمواطن مغيبٌ، أي: إنّ المواطن الذي يعطي الضرائب من حقّه أن يحاسب الدولة عن أوجه صرفها؛ ولهذا إذا أراد الليبيون ديمقراطيّة فعليهم بقهر نظريّة (المغالبة الواهمة) بنظريّة (استيعاب الآخر)، التي فيها: (الحقوق تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسئوليّات تحمل)، وعليهم بقهر إدارة الدولة الريعيّة (النِّفطيَّة) التي رسَّخت المركزيّة، وهمَّشَت المواطن، وجعلت منه مجردَ تابعٍ للنِّظام، الذي ساد مركزيًّا في الدولة، التي حُرِمَ من حقِّ تملّكها بقولهم: المواطنُ غيرُ واعٍ حتى يُمكَّن من ملكيةِ الدَّوْلَةِ.

فالدولةُ النِّفطيّة دولةٌ ريعيّةٌ، ترسّخ المركزيّة الإداريّة، وتعيق انسياب الخدمات للمواطنين في مقار سكناهم، وأماكن ممارسة أنشطتهم الاقتصاديّة والتجاريّة والخدميّة، ومن ثم: تَفَشَّى الفسادُ حتى أصبح ثقافةً شَرْعَنَتْ لأكل المال العام، وكأن أكلَه حلالٌ؛ مما جعل الدولة تُنْهَبُ من الحاكم والمحكوم، كلٌّ وفق الفُرصِ المتاحةِ، حتى وإن كان الظَّاهر غير ذلك، أضف إلى ذلك أنَّ الحاكم في الدولة الريعيّة يرى الدولة وكأنَّها مزرعتُه الخاصَّة، يعمل فيها ما يشاء؛ حيث لا رقيبَ ولا حسيبَ؛ ولهذا لا يمكن

أن يشعر المواطن بأنَّه المالك للدولة، أي: إنَّه لا يشعر بشيء، سوى الغبن والاحتراق النفسي؛ مما يجعله يظهر ما لا يبطن، أي: إنَّه يظهر الولاء للحاكم، ويبطن الكيدَ به في أقربِ فرصةٍ ممكنةٍ؛ ولهذا يعمل الحاكم في الدولة الريعيّة على شراء الولاءات، وفي المقابل المواطن في حاجة لابتزاز الحاكم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وعليه: فعندما تؤسّس الدّولة على مرجعيّةٍ وطنيّةٍ تحتوي الرأي العامَ سياسةً واقتصادًا واجتماعًا) تصبح الحلولُ والمعالجات وطنيّة، أمّا إذا كانت المرجعيّة (الزّعيم، أو الرمز، أو القائد) فالبقاء لله وحده، وعلى البلادِ السّلام، وتأسيس المرجعيّة الوطنيّة يستوجب تأسيس قاعدةٍ دستوريّةٍ تمكّن من ممارسة الحريّة (ديمقراطيًّا ودكتاتوريًّا) في وقت واحد، أي: تمكّن من ممارسة الديمقراطيّة تشريعًا؛ حيث لا وجود لكلمة (قِفْ)، وتمكّن من التنفيذ دكتاتوريًّا؛ حيث لا وجود لشيء لم يقرَّ ديمقراطيًّا، ومن هنا يجب التوقف عند كلمة (قِفْ)؛ حيث الصلاحيّات، والاختصاصات الدستوريّة، والقانونيّة، ومن ثم فممارسة الحريّة بأسلوب ديمقراطي وحدها تَقْبُرُ لغة (المغالبة الواهمة)، وتجعل من فائض القوّة (الدّولة قوّة).

كسرُ أوهام فَائِضِ القُوَّةِ يَطْوِي صَفَحَاتِ الخِلافِ:

مع أَنَّ المتخالفين في الوطن الواحد يتألّمون مما تحتويه صفحاتُ الخِلافِ الممتَلِئةِ بينهم شتائم، وتنابز بالألقابِ فإنَّهم يسخرون ممَّن يتحدثُ باسمهم وباسم الوطن؛ ولهذا فإنَّ تكسيرَ فائضِ القوّةِ يمكّن من القضاءِ على مواجع تحدث بعللِ الخِلافِ.

ولذا فعندما يتقاتل المتخالفون في البلد الواحد، لا تشتد بينهم نار الحقد والفتنة إلَّا بسببِ فائضِ القَّوةِ، التي تُحدثُ فوارقَ مؤلمة بين الأخ وأخيه، والجار وجاره، وبخاصَّة إذا لم يعد للكبيرِ شأنٌ، مما يجعل المتقاتلين مثل المريض بالسُّكري، يشربُ المُرَّ، ويقول عنه: حلوٌ؛ ولهذا وجبَ تكسيرُ فائضِ القوَّة؛ الذي أصبحَ بأيدٍ لا تقدِّر الكبيرَ، ولا تقدِّر القيمَ الحميدة، ولا تقدِّر وحدة الوطن، وسلامة أمنه، وثروات شعبه، أضف إلى ذلك أن تكسير فائض القوَّة من يدي المخيف يطمئنُ الخائفَ، فعلى سبيل المثال: عندما يكون الحاكم خائفًا من المحكوم كرهًا يبالغُ في تشديد القبضة عليه سياسيًّا، واقتصاديًّا، وأمنيًّا؛ حتى يدفعه إلى قبول التَّحدّي والتَّمرّد والثَّورة، التي بها يستطيع أن يكسرَ عصا الحاكمِ، ثم ينتقم منه أشدَ انتقامٍ؛ ولهذا فلغة الانتقامِ وأساليبه فائض قوَّة ينبغي أن يُكَسَّر قبل أن يفعل فعلته بِرَدِّ فعلٍ مؤلمٍ.

وعليه: لا يمكن أن يكون في الوطن اقتتالٌ بين المواطنين ما لم يكن هناك فائض قوَّة يهدِّدُ استقرارَ البلاد وأمن مواطنيها؛ ففائضُ القوة يُشَكِّلُ خطرًا على الإرادة، وبالتّالي لا يمكن أن تُطْوَى صفحات الخلاف ما لم يكسرْ فائض القوّة، وتسود القوانين المستمدّة من الدُّستور الوطني، الذي يقضي على لغة الخائفِ والمخيفِ، والمهيمن والمهيمن عليه؛ حيث لا إقصاءَ، ولا تغييبَ، ولا تغوُّل بالسِّلاح والدَّاعم الأجنبي.

ومن ثمَّ إذا لم يُكسرْ فائضُ القوَّة سيظل المغلوبون على أمرهم مكسوري الخاطر، ومن هنا لا إمكانيّة لطيِّ صفحات الخلافِ ما لم تُجبرْ خواطرُهم بتكسيرِ فائض القوَّة، الذي أصبح بأيدي الكتلِ المارقَةِ عن

سيطرةِ الدَّولَةِ، وكذلك لن تُجبرَ خواطرُهم ما لم يجبر الضَّرر الذي تعرَّضوا له ظلمًا.

وعندما يكون رؤوس المشهد السِّياسي في أثناء الخلاف والاقتتال بين الأخوة في الوطن ليسوا برؤوس وطنيّة جامعة؛ فلن يكون لهم في الدولة مستقبلٌ سياسيٌّ، وبخاصّة الذين انحازوا لطرف على حساب آخر؛ ذلك لأنَّهم وضعوا أنفسهم موضع التَّضاد مع بعضهم بعضًا، أو مع بقية ألوان الطَّيف الوطني، وخير شاهد على رؤيتنا هذه ما جرى في تونس الشقيقة؛ حيث اصطفَّ الشَّعب ضدَّ العناوين التي كانت حاكمة في المنظومة السّابقة، وكذلك التي لا زالت تحكم، وبالتَّالي انحاز إلى من لم يصطبغ بصبغة الأنظمة الحاكمة، فانحازوا لاختياراتهم، التي اختاروها بأنفسهم من أجل تونس وصُنع نهضتها.

هكذا نأمل أن يكون المشهد السِّياسي الليبي بعد تكسيرِ فائضِ القوَّة، ومن هنا أقول: إن المستقبل السِّياسي في ليبيا سيكون للقوى السَّاكنة، التي لم تكن منحازةً لسابقٍ استنفد فرصتَه، ولا لحاضرٍ قد ضيَّعها وخسر الرّهنان.

ومن أجل الوطن ومستقبله المأمول، وتجاوز التأزُّمات ينبغي أن تكون الشّعارات:

-نعم للمصالحةِ الوطنيَّة، التي لا تُطْوَى صفحات الخلافِ إلا بها.

-نعم لدفع الضَّرر، الذي به تُطْوَى الصَّفحات.

-نعم للاعتراف بالآخر شريكًا في الوطنِ.

-نعم للمشاركة؛ حقوقًا تمارس، وواجبات تؤدى، ومسئوليَّات تحمل.

-نعم للبدء مع النَّاس من حيث هم؛ بغاية الوصول إلى ما يجب أن يكونوا عليه مكانةً ورفعةً.

-نعم للاعتراف بالأخطاء والإقدام على طيّ صفحاتِها.

-نعم الولاء للوطن، ولا أحدَ سواه.

-نعم للدستور، الذي يرسم خريطة الوطن؛ دولة ذات سيادة، ولا مرجعيَّة فيها إلا الشَّعب.

-نعم للتَّداول السِّلمي على السّلطة.

-نعم للانتخابات، التي تُفْرَزُ الأوراق فيها بكل شفافيّة.

-نعم لعيون الشّعب رقيبًا على كل العيون.

وفِي المُقَابِلِ:

-لا للعصبيَّة، سواء أكانت عرقيَّة، أم قبليَّة، أم مدنيَّة، أم جَهَوِيَّة، أم حزبيّة.

-لا للعزلِ السِّياسي وتغييب المختلف.

-لا للمركزيَّة وتهميش القُرى والمدن.

-لا للإقصاء والهيمنة بأي علةٍ كانت.

-لا مستقبل لأنشودة ولا لراية وطنيَّة لم يُقرّها الدّستور الوطني.

-لا لدولة بلا جيش وطني.

-لا لدولة بلا قضاء مستقل وعادل.

-لا للإرهاب والتطرّف.

وبهذا يكسر فائض القوّة، وتطوى صفحات الخلاف، وتنهض مؤسّسات الدّولة، وتسود لغة التّسامح، وتصبح العلاقة مباشرة بين الآمل، والأمل، والمأمول رفعة، وتنتهي مقولة: (الثورة مستمرة)؛ لتستمر الدولة وتبقى آمنة مستقرة.

كسرُ أوهامِ الخوف:

الخوفُ شُعور حذري ينتاب نفس الإنسان فيدفعه إلى أخذ الحيطة والحذر من المخيف سواء بتجنّبه أو بمواجهته مع تهيؤ واستعدادٍ وإعداد عدّة، ثمَّ تأهّب يُمكّن من الإقدام على تنفيذ أفعال المواجهة مع المخيف وكسر وهمه.

فإذا نظرنا إلى القبضة الحديدية للحاكم الدكتاتوري وأجهزته الكابحة لممارسة الحريّة فلا نجد لها علّة إلَّا الخوف، وفي المقابل إذا نظرنا للمتحدّين له وقبولهم دفع الثّمن فلن نجد لهم علّة ووهمًا إلَّا الخوف؛ ولهذا فالقضاء على الخوف وحده يكسر الوهم ويحرّر جميع الخائفين، ويحقّق لهم الأمن.

ومع أنَّ الخوف مُقلق للنّفس البشريّة فإنّه لا يعدّ سالبًا، بل موجبًا بغاية تفادي المخاطر والمكائد والمظالم، وبالتّالي فمن يظن أنّه بالتخويف يستقر له أمرٌ أو حُكمٌ فهو واهم؛ لأنَّ الخوف لا يصمد في أنفس المتحدّين.

ومن هنا فإذا وجدّت من يُقدّم لك التنازلات كرهًا فلا تظنّ أنَّه من أجل محبّتك، بل من أجل كسب الوقت الممكّن من إعداد العدّة لمواجهتك في الوقت الذي لا تتوقّعه؛ ولهذا كلّما اشتدت أفعال المخيف ضغوطًا على الخائف دفعته إلى تقوية علاقته مع الخوف.

وعندما يصبح الخوف رفيقًا ودودًا مع الخائف فلن يعود وهم الخوف مخيفًا لمن كان خائفًا؛ ولهذا يتمّ التحفّز إلى رفع الصّوت الخافت إلى صوتٍ جهورٍ، خالٍ من التلعثم مع فائق الوعي والإدراك بقبول ما يترتّب عليه من أفعال، (سالبة أو موجبة)، وبخاصّة إذا عرف الخائف أنَّ قبول الموت بالقوَّة هو المنقذ له من الخوف والموت معًا.

إذن: المخيف هو من لا يتَّقي الحقّ في الآخرين، وما يتعلّق بهم من أمر، أي: هو مَن يعرف الحقّ، ولا يعترف به؛ فيعتدي على الضّعفاء ظلمًا ووهمًا؛ ولهذا لا وجود لسبب إلَّا ومن ورائه مسبّب. فعلى سبيل المثال: إذا نظرنا في هذا العصر إلى ظهور الجماعات الإسلاميَّة المتطرّفة لا ينبغي أن نفصله عن ذلك الزّمن الذي ظهر فيه الخوارج، لنتبيّن أن علل ظهور هذه الجماعات علل خوف، أي: إنَّها المولودة من رحم الخوف.

ولذا؛ فعندما يَبُث المخيف مخاوفه باتجاه الآخر، ويتملّك الخوف منه؛ يصبح في دائرة المتوقَّع متهيئًا لردّة فعل على مصدر الخوف، وهذا الأمر يُفضي إلى ظهور العنف بشتى أشكاله، وبمظاهر متباينة، وبالتّالي فمن يُعدُّ العدَّة بقصد وإصرار وترصّد على إخافة الآخرين لا بدَّ أن يولِّد

خائفين، وإذا وَلّدَ خائفين فلا بدَّ أنْ يقدموا على أفعال المواجهة من الخوف.

ولذلك؛ من المهم أن يفهم من يقوم بدور المخيف أنّه بهذا النمط من السُّلوك الواهم قد أفرز جبهة من الخائفين، الذين يتربّصون بدرء الإخافة، وهذا دليل أنّه أوجد على أرضيَّة الواقع عددًا من الأعداء الذين يتربّصون به؛ من أجل منع مظاهر التخويف من النيل منهم، ولكن لو فكَّر المخيف في غير ذلك، ألا تكون الطمأنينة هي البديل الأنسب؛ ولتبيان ذلك علينا أن نفرِّق بين المرهب والمخيف، فالفرق بينهما: أنَّ المرهب يمتلك القوَّة، ويتحكّم في مقاليد الأمر، ولم يستخدمها في أيِّ مظهر عدواني، سوى الردّ على العدوان، وهو الذي يمتلك القوَّة؛ لكيلا تسود المظالم بين النَّاس وينكسر الوهم.

أمّا المخيف فهو بداية ونهاية يعدّ العُدّة بهدف الاعتداء على حقوق الآخرين وأوطانهم وثرواتهم ظلمًا؛ ولذا فكلّ من يُعتدىَ عليه ظلمًا سيظل خائفًا من الذي يشكّل خطرًا عليه؛ ولهذا لم يكن الخوف من العُدَّة التي تُرهب، بل الخوف من استخدامات العُدة بغير حقّ.

إذن: امتلاك القوَّة يجب تحقّقه في الأفراد والجماعات والمجتمعات، على أن يكون امتلاك القوَّة من أجل تعادل الأطراف على مركز الاتزان المعياري الذي كلّما تكرّر المقياس به كانت النتائج المتوصّل إليها هي كما هي من أجل الجميع، لا من أجل مغالبة طرف على طرفٍ، وبهذا النظرة الإنسانيَّة يختفي الخوف، وبخاصّة عندما يرى الأنا الآخر أنَّه لم يعدْ يشكّل

خطرًا عليه؛ فتنتهي مظاهر الإخافة التي تورِّث الظُّلم والعدوان، إلى جانب أنَّها ستبذر في النَّفس الإنسانيَّة بذور العداء التي من الصّعب اقتلاع جذورها.

ولو تسنّى أن نسأل اليابانيين الآن وبعد حوالي أكثر من ستّين سنة من استخدام أمريكا للقنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي، وبعد التقارب الحاصل بين الدَّولتين، ومنذ زمن بعيد، هل يرون أنَّ أمريكا صديقة أم عدوة؟ في اعتقادنا أنَّ كثيرًا من المواطنين اليابانيين لم ينسوا عدوان أمريكا عليهم، وكذلك كلّ الشّعوب التي تعرّضت للاحتلال تبقى تتذكّر تلك المذابح والمقابح والجرائم المؤلمة.

وعليه: فإنَّ مقولة الواهمين: (الخوف دائمًا يجعل من الخائف مستسلمًا للمخيف) مقولة واهمة، ومن يظن غير ذلك سيجد الزّمان كفيلًا بإظهار الحقيقة وكسر الوهم؛ ولذلك فالعلاقة بين الخائف والمخيف علاقة لا ثقة تسندها، بل الذي يسندها بوضوح هو العمل على كسب الوقت؛ فالزَّمن بالنّسبة إلى الخائف كفيل بترّويض الطّغاة، وكفيل برمي الخوف في أكياس زبالة التَّاريخ، وكفيل بامتلاك القوَّة لمن يسعى لامتلاكها، وكفيل بتغيير الأحوال من الغفلة إلى الإفاقة، وبالتّالي فهو كفيل بكسر الوهم.

ولأنَّ الخائف يعلم جيّدًا أنَّ الخوف مؤقّت؛ فهو لم يكن متسرّعًا ولا مستعجلًا، بل لثقته بأنَّ اليد التي امتدّت عليه ولا يستطع قطعها ليس له من بدٍّ إلّا أن يُقبّلها إلى أن يستطيع، وعندما يستطيع عُدّة وقدرة واستعدادًا سيكون الإعلان عن ذلك بالنّسبة إليه ضرورة، وستكون المعادلة الجديدة

مؤسَّسة على ردِّ الاعتبار، ونيل الاعتراف من الآخر الذي كان واهمًا عن حقيقة من أخافه ظلمًا، وإن لم تكن الاستجابة المرضيّة ستكون المواجهة معه حتميَّة.

وعليه: فإنَّ الإخافة لا تولِّد خائفين، بل تولّد المتمرِّدين والغاضبين والثائرين؛ ولهذا عُمْرُ الظَّالمين قصير؛ فلا يخيف، بل الذي يخيف ألا يَعدَّ الخائف العُدّة المرهبة للمخيف والكاسرة للوهم.

والمثال الحي لإظهار العلاقة بين الخائف والمخيف هو ما يجري بين الغرب وإيران، التي تسعى لإعداد العُدّة لمواجهة التخويف المتزايد تجاهها باستخدام القوَّة من قِبل الغرب تلميحًا وتصريحًا، وفي مقابل ذلك فإنَّ إيران تعلم أنَّها لو أعدَّت العُدّة القتاليّة واستعدَّت وتأهبت ورابطت فإنَّ الخوف بالنسبة إليها سينتهي والوهم يُكسر، ومع أنَّ العدوان على إيران في دائرة الممكن المتوقَّع لن يحدث، إلا أنَّه في دائرة غير المتوقَّع ممكن الحدوث؛ ولهذا فالمواجهة بين الغرب وإيران ممكنة، من حيث سباق الإخافة والتخويف المحتدم بين الطَّرفين اللذين أحدهما يعمل على رفع سقف الإخافة، والآخر يسعى لامتلاك القوَّة، التي تردع المخيف، وتوقفهُ عند حدّه، ومع ذلك فالمواجهة ليس بالضرورة أن تكون عسكريّة بل طرق تغيير الأحوال والسياسات والأنظمة متعدّدة ومتنوّعة.

وعليه: فالواهمون الذين يعتقدون أنَّ التخويف هو الحلّ، عليهم أن يعرفونه لو كان التخويف حلًّا لما كانت أحداث 11 سبتمبر المؤسفة ضربة موجعة في قلب الولايات المتحدة الأمريكيّة، وعليهم أن يعرفوا أنّ الخائف

سيظل دائمًا متربِّصا بالمخيف يُقبِّل يديه إلى أن يتمكَّن من قطعهما؛ لذلك فإنَّ أحداث سبتمبر ومهما كانت ألوان طيفها هي رد فعل خائف من مخيف.

ولهذا فنظريّة الإخافة لن تكون حلًّا، بل إنَّها نظريّة لاشتداد التأزُّمات، وإن لم يُنزع التخويف من عقل المخيف؛ فلن يُنزع من ذهن الخائف تقبيل اليدين حتى تتاح له الفرصة لقطعهما.

إنَّ نظرة المخوِّف ترى أنَّه بحاجة إلى تجويد ملامح التخويف وتقويتها، من خلال استعراض أكبر كمٍّ من صور الاعتداء والبطش والظُّلم؛ ولهذا فالولايات المتحدة الأمريكيّة لم تقم بضرب عناصر من القاعدة ردًّا على أحداث سبتمبر فحسب، بل قامت بما هو أكبر من ذلك تهديدًا ووعيدًا، كما جاء على لسان رئيسها آنذاك جورج بوش الابن: (من لم يكن معنا فهو ضدّنا)؛ فكان احتلال أفغانستان ثمَّ احتلال العراق، مع وافر أساليب التخويف، والإيماء بالعصا الغليظة[144].

وعليه: فإنَّ نظريّة التخويف تجاه الضعفاء من ميزاتها أنَّها كلّما ازداد التخويف شِدّةً حفّز الخائفين على قبول التحدّي، وحفّزهم على التمرُّد والثورة حتى امتلاك القوَّة التي بها يُرهب المخيف ويقف عند حدّه، ومن ميزاتها أيضًا أنّ النتيجة التي سيتمّ التوصل إليها هي حذف كلمتي: (خائفٍ ومخيفٍ)، ومن ثمَّ فعندما يعرف المخيف أنَّ الخائف لا يخاف الموت، فبما

[144] عقيل حسين عقيل، التطرف من الإرادة إلى الفعل، القاهرة، المصرية للنشر والتوزيع، 2019م، ص 82.

سيخوفه؟ أي: عندما يُكسر حاجز الخوف سيكون واهمًا من يعتقد أنَّه ما زال مخيفًا.

يقول جيمس ماتيل الذي كان رئيسًا لطاقم الموظفين بمكتب الخارجيّة الأمريكيَّة للمحاسبة والشفافيَّة ببغداد: (الخوفُ هو الخيط المشترك الذي يَنْسجُ الحركاتَ السياسيَّة العَنيفةَ سويّة، وهو لَيسَ الحافز الوحيد وراء العنفِ السياسي، ولا بالضرورة الأكثر وضوحًا، لَكنَّه عمليًّا دائمًا هناك حينما نَسْأَلُ: لماذا يَكْره النَّاس؟ أَو لِماذا هم راغبون في القَتْل أَو الموت من أجل قضيَّة ما؟ الجواب دائمًا .... الخوف).

وهنا يمكن القول: إنَّ الخائف ليس بالضّرورة أن يكون خائفًا من الموت؛ فالمؤمنون يعتقدون أنّ الموت حقّ، ويعتقدون أنّ الأحياء لن يموتوا قبل أن تنتهي أيَّام أعمارهم؛ ولهذا فهم لا يخافون الموت؛ لكونهم لن يموتوا إلَّا إذا كانت أيَّامهم التي أعدّها الله لهم قد انتهت، أي: إنَّهم يؤمنون أنّ الحرب والاقتتال لا ينهي الأيَّام والأعمار إذا لم تكن عند الله منتهية: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[145]؛ ولهذا يخوضون الحروب إذا ما كُتبت عليهم كرهًا بوافر الاستبسال.

وكذلك كثير من العقلانيين يعدُّون الموت واقعًا لا مفرَّ منه، أمّا الخوف فأمره لم يكن مثل أمر الموت؛ فالخوف يكون من أمور أخرى، منها: الإلغاء، والتحقير، والتهميش، أو التسفيه، أو التغييب، أو احتلال البلدان والأوطان، والاعتداء على أعراض الذين لم يمتلكوا القوَّة، الأمر

[145] النحل: 61.

الذي يفضي إلى التفكير بالتخلّص من مصدر التهديد بكلِّ الوسائل الممكنة في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع.

وعليه: الكلّ يسعى للتخلّص من الخوف، أي: إنّ كلّ الأطراف خائفة من الخوف، ممّا يجعلهم يسعون إلى التخلّص منه، وبكلّ الوسائل والأساليب؛ فالخائف هو خائف؛ لأنَّه يستشعر الخوف، ويريد أن يتخلّص منه؛ ولذلك يرى أنَّ العدوان على المخيف يُخرجه من حالة الخوف إلى حالة الاطمئنان؛ فالخوف شعور يعبّر عن عميق المعاناة المسيطرة على الإنسان؛ فيشلُّ رغباته في التفكير ممّا يجعل الإنسان في دائرة التوتّر والقلق المتَّصلين، من أجل البحث عن حلٍّ يفضي للوصول إلى حالة الاطمئنان المنشودة، الأمر الذي يوجّه السُّلوك إلى دائرة الممكن؛ للإقدام على الفعل المتوقَّع، والفعل غير المتوقَّع.

إنَّ المخيف من دون شكٍّ يعرف أنَّ الخوف شعور لدى كلِّ الكائنات؛ فما بالك بالبشر، إنّه شعور قوي يُحفّز على اتخاذ قرار المهاجمة للدفاع عن النَّفس، دفاعًا شديدًا واضح المنهج، ومعلوم النتائج، أو دفاعًا هائجًا هستيريًّا ينتج ضررًا ربما يتجاوز حدود المهاجم إلى غيره، وما هو أبعد منه.

ولأنّ الخوف مشكلة أنتجت قاعدة: (الخائف والمخيف)، وجعلت بعضًا من الخائفين يقبل الموت، ويُقدم على تنفيذ أفعاله دون تردّد، ولأنَّ لكلِّ مشكلة حلًّا؛ إذن: لماذا لم يلتقِ الخائف والمخيف لفكّ الفتيل وكسر أوهام الخوف؟

نقول:

الفتيل لا يمكن أن يُفكّ إلا بالتقاءِ أيدي المخيفين بأيد الخائفين، ولكن هذا الأمر لن يتحقّق إلّا إذا امتلك الخائف القوَّة الفاعلة عُدّة وإعدادًا وتدريبًا ومهارةً وتأهّبًا، حينها يعرف المخيف أنّ زمن تخويفه قد ولّى إلى النهاية.

قال تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}[146].

يُفهم من هذه الآية الكريمة: أنَّ كفّة الصدام قد تعادلت؛ فلم يعدّ وجود لخائفٍ ومخيف، بل الوجود لطرفين هم على القوَّة التي بها قد تحقّق فعل الإرهاب؛ فالمؤمنون من جهة هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الله تعالى، والذين لا يفقهون هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الذين آمنوا.

ومع أنَّ الله هو أشدّ رهبة، فإنَّ الذين لا يفقهون عندما رأوا قوَّة الذين آمنوا ارتهبوا؛ فاعتقدوا أنَّها أشدّ رهبة من رهبة الله، ولكن الذين آمنوا يؤمنون بأنّ رهبة العظيم جلَّ جلاله هي الأعظم، ولو أدرك الذين لا يفقهون أنّ الله هو الشديد لآمنوا أنّ الله أشدّ رهبة.

[146] الحشر: 13.

كسرُ أوهام إدارة العقل:

مع أنَّ العقل يُعدُّ من أهم ما تميَّز به الإنسان خَلقًا فإنَّه لا يدير شئون الإنسان كُلّها وحدهُ، ومع أنَّ الوهم حادث على العقل فإنَّه لا عقل إلَّا بوهمٍ غير أنَّ رقابة الضمير على العقل تعيده مركزًا؛ ولذا وجب كسر أوهام من يعتقد إنَّه المسيطر، أو أنَّه سيسيطر ويصبح مركزًا ولا غيرهُ.

ولأنَّ العقل مركز الإدارة العامَّة فهو الذي يدير الحواس كما يدير المدركات ويدير المجرّد والمحسوس، والمشاهد والملاحظ، ويتدبَّر ويتذكَّر، ومع أنَّ العقل هو مركز الإدارة إلا أنّه لا يتولى تنفيذ كلّ شيء، بل يترك التنفيذ لكلٍّ وفقًا لاختصاصه؛ مما يجعل الكلّ مراكز لا تدار إلا بهم؛ ولهذا فبالنسبة إلى المشي فإنَّ القدمين هي المركز، فإن لم يُعطِ العقل حريّة الحركة للقدمين فإنّ الخطوات لن تتبادل بمرونة وإن حاول أحدٌ مبادلتها فسيكون صاحبها من المتعثرين؛ ولذا لن تخطو القدمين بصاحبها خطوات ثابتة إلا بقرار واضح من العقل لأداء واجبات محدّدة.

إذن الخطى عندما تطوي المسافات بقرارٍ من الإدارة العامّة (العقل) تصبح علاقة التطابق تامّة بين خطى القدمين ورؤية العقل؛ وبالتّالي لا وهمَ يتعارض مع الأمر أو يخالفه.

أمّا إذا أُجبرت القدمين على قطع المسافات، فلا شكّ أنّهَّا ستتعثَّر عندما يحاول آخر أن يجرَّها أو يجبرها بما لا يصدره لها العقل من قرارات واضحة ومحددة، وعندما يكون قرار الإدارة العليا (العقل) وفقًا لِما يجب تصبح الخطوات متهيّئة ومستعدّة ومتأهِّبة لقطع المسافات دون تردّد، ولذا

فمن دون وهم فإنَّ المدير العام (العقل) لا يدير شيئًا باستقلال عن غيره إلَّا في حدود الوظيفة الخاصّة به؛ إذ خصَّصَ مهام العين للنّظر، واللسان للذّوق، والأنف للشّم، والأذن للسّمع، وجعل كل منها في حالة تهيّؤ لإرشاد غيره إلى ما يجب عند كلّ أمر يصدر له، كما يرشد البصر القدمين إلى السير في الاتجاه الذي يشاء العقل بلوغه، وعندما لا يكون الوهم مرافقًا لقطع المسافات تزداد القدمين ثباتًا تجاه الهدف الذي يستوجب الإنجاز، ومعها العينين تحمْل مسئوليَّاتها تجاه ما يجب أن تقدِّمه للقدمين من إرشاد، مما يجعل الإنسان متمكّنًا من الوقوف على أدق الأشياء بإرادة، وظهورها أمام المركز برؤية واضحة؛ ولهذا عندما تُجبر العينين جبرًا فلا يكون للرؤية وضوح، ولا تُكشف الحقيقة أمام الإدارة العليا ما يجعل المدير العام غير قادرٍ على اتخاذ قرارات مُرضية وواضحة للأنا والآخر والوسطي وإن حاول واجتهد؛ فيترتّب على ذلك فوضى إن لم يُحسم الأمر فيها قد يشتدّ الصراع ليكون فيه كلّ طرفٍ متطرِّفًا. ومع أنَّ العقل هو المسئول الأوَّل الذي يدير الإدارة العليا إلَّا أنَّ الإدارة العليا لا تدار به وحده، فهناك القلب، وهناك العاطفة، ولكلٍّ منهما غاياته التي تمتدّ بين قوّة وضعف، فإن تطابقت رؤى المدير العام (المسئول الأوَّل) مع المساعد له (القلب) كانت القرارات الصادرة ضميريّة، تُطمئن الأنا والآخر والوسطي، وإن غَلَبت رؤى العاطفة المساعد الثّاني للمدير العام مالت القرارات إلى ما يُشبع الغرائز على حساب ما يُشبع النفس التي لا تطمئن إلا بقرارات الضمير العادلة التي لا تغفل عمَّا يرغبه القلب وما ترغبه العاطفة، ولكلٍّ حاجاته التي يجب أن تُشبع باعتدال، دون أن تكون على حِساب طرفٍ من الأطراف، وعندما

تكون قرارات العقل مع الضمير حاسمة فإنَّ العينين لا تقومان بتزوير الحقائق البصريَّة وإن رغبت العاطفة أو وهمت[147].

إذن تتعدّد مراكز الإدارة في الإنسان من المدير العام ومُسَاعِديه إلى الإدارات المركزيّة الأخرى وفقًا للصلاحيّات والاختصاصات التي بها يُدار السَّمع بمتخصّصين كما يُدار البصر بمتخصّصين، والشّم واللَّمس والذّوق بمتخصّصين، وكما تدار الإدارات التي تليها في الأهمية بمتخصّصين بالنّطق، والمشي، والرمش، وما يتعدد من إدارات فرعيّة أخرى؛ تقرّر ما تشاء، ولكنّ التنفيذ الموضوعي عندما يتعلّق الأمر بالمراكز الأخرى لا يتمّ إلّا بعلم الإدارة العامّة؛ ولهذا كلّما وجب ظهور أو وجود المركز العام وجب ظهور المراكز الخاصّة، مراكز السّمع والشّم واللَّمس والذّوق والبصر وغيرها، ومن يحاول أن يجعل الأمر كلّ الأمر في إدارة عامّة يجعل الحواسّ غير قادرة على أداء وظائفها التي خُلقت من أجلها، ويدفع بعضها إلى التطرُّف الذي به تشوَّه الحقائق وتزوَّر فلا تُقدَّم للمسئول الأوّل (هي كما هي) ما يجعله في كثيرٍ من الأحيان يتخذ قرارات غير صائبة، وقد يتمسَّك بها ويجبر النّاس عليها. وسواء أكان يدري أم لا يدري يجد نفسه قد دفع بعض الذين تمّ إجبارهم بغير حقّ إلى التطرُّف فكرًا وتأدلجًا مع الإقدام على أفعال التنفيذ وأعمال؛ فتنجم ردود أفعال بأسباب المعلومات الخاطئة والمزوَّرة التي قُدِّمت للمسئول الأوّل وترتّب عليها ما ترتّب من إجراءات غير موضوعيّة؛ ولذلك سيكون واهما من يعتقد أنَّ العقل يدير كلّ شيء طوعًا وكرها.

147 عقيل حسين عقيل، التطرف من التهيؤ إلى الحل، القاهرة: المجموعة الدولية، 2011م، ص 78.

ومن هنا فبوجود الإدارة المركز تظهر مراكز متعدّدة، ولكلّ مركز أهميّة تستوجب الاعتراف، والتقدير، والاعتبار، إذ لا تجاوز، وكل وفقًا للتخصّص والاختصاص والخصوصيّة، وهكذا المراكز تتعدّد بما يُمكِّن المواطنين من ممارسة الحقوق، وأداءِ الواجبات، وحمْل المسئوليَّات، وإن لم يتمّ الاعتراف بذلك فستكون أوهام التطرُّف من الأساليب المنتشرة بين من يريد نيل الاعتراف ومن لا يريد الاعتراف به.

فالمركز الذي يريد أن يكون على حساب طمس مراكز الآخرين سيكون واهمًا إن ظنَّ أنَّه لن يتعرَّض هو الآخر للطمس وبكلّ الأساليب، ومن يريد من المراكز الأخرى أن تُقدِّم له التنازلات تلو التنازلات فلن يكون قادرًا على إدارة ما يُراد له أن يديره بنجاح؛ مما يجعل الوهم مرافقًا له أينما حلّ، ثمَّ تلاحقه شتائم المواطنين إلى أن يرحل بإرادة أو يرحّل بالقوّة.

ولأنَّ الحقوق الوطنيَّة متماثلة، والواجبات متباينة، والمسئوليَّات غير متوازنة، إذن لا إمكانيَّة إلَّا وهما أن تكون كلّها بيد مركزٍ واحدٍ، فهذه ينبغي أن تدور حول المركز بقوّة جذبه لها إرادة، وإدارة متماسكة.

وكما أنَّ الإنسان خُلق مركزًا لا يتطابق مع أيٍّ آخر في قدراته، واستعداداته، وخصوصيَّاته الفرديّة، والجماعيّة، والمجتمعيّة؛ فهو على الأرض المدحاة أينما وجد، أو وقف، أو جلس هو المركز، وهكذا الآخرون كلّ منهم على الأرض هو المركز من خلال النقطة التي يكون عليها، ولا يتغير مركزه إلَّا بتغيُّر مكان وجوده على الأرض أينما تحرَّك، وبما أنَّ الأمر كذلك خَلقًا إذن فلماذا لا يكون الإنسان مركزًا أينما وُجد؟، وبالتَّالي فالوطن

الواحد لا ينبغي أن يكون فيه مواطنو العاصمة هم المركز، والآخرون لا يعدّون إلَّا أطرافًا على الحدود، وكأنَّ المواطنة تضعف كلّما بعد المواطن عن المركز.

كسرُ أوهام الوسطيّة:

مع أنَّ الوهم حادثٌ على العقل فإنَّ الكسر حادثٌ على الوهم، وكما تعيق الأوهام العقل تذكرًا وتدبُّرًا وتفكُّرًا، فإنَّ الكسر يعيقُ الوهم تمدّدًا واتساعًا. وعندما تتباين المواقف وتتسع دوائر الخلاف فإنَّ ترميم العلاقة بين الوهم وكسره تصبح في حاجة للوسيطيّة.

والوَسيطي لغة ثالثة ذات بُعدٍ ثالث، فهو من يقبل الجلوس بين طرفين بغرض جذبهما إليه؛ لتكون رؤاه الفكريّة هي الحلّ، ولكي يصل الطّرفان إلى ما يرضيهما في دائرة النسبيّة على يدي الوسطي عليهما بوضع راحتي يديهما مع راحة يداه؛ ليتمّ القبض الممكِّن من الجذب بقوّة وإلَّا لن يصلا إلى المكان الذي يضع الوسيطي قدميه عليه، وفي دائرة الممكن احتمالات أربع:

الاحتمال الأوَّل: أن يكون الجذبُ معسَّرًا بما يواجهه الوسيطي من جهد مقاوم من كلا الطّرفين، وهنا يكون التعسُّر مصحوبًا بمرارة التنازلات المستوجب تقديمها في سبيل الوصول إلى الوسيطيّة أو حتى الوسطيّة التي عليها الوسطي يبذل الجهد من أجل قبول الوسطيّة حلًّا بغض النّظر عن مرارة التنازلات.

وفي هذه الحالة إن قَبِل الطَّرفان ذلك بدايةً قد لا يقبلانها وسطًا ولا يقبلانها نهايةً، وهنا تكمن معطيات الانتكاسة الميسِّرة سُبل العودة إلى ذلك التطرُّف أو إلى تطرُّفٍ آخر.

الاحتمال الثّاني: أن تكون نتائج الجذب معسَّرة بما يواجهه الوسيطي من جُهدٍ مقاوم من أحد الأطراف؛ وفي مقابل هذا التعسير تكون نتيجة من يُقدِّم التنازلات سريعة أن يحيد عنها بسرعة أكثر، مما يجعله يعود إلى ذلك الطرّف الذي جاء منه مجرورًا بمجموعة من التنازلات.

ومن يكون معسَّرًا في أمر جرّه بالقوّة الوسيطيّة بتنازلات يعرف أنَّها سَتُلقي عليه عبئًا آخر لا يطيقه فكريًّا أو نفسيًّا فهو كمن قبل بداية وتخلى وسطًا وتطرَّف نهايةً[148].

الاحتمال الثّالث: أن تكون نتائج الجذب ميسَّرة من كلا الطَّرفين مع ما يبذله الوسطي أو الوسيطي من جهد لجذبهما تجاهه. هذه الحالة في دائرة الممكن إمَّا على احتمال اعتراف الطَّرفين بأنّهما كانا واهمين فيما قاما به من تطرُّفٍ؛ فغلبت الموضوعيّة بعد نُضجٍ ورُشدٍ على تفكيرهما؛ فقرّرا العودة الميسَّرة، وإمَّا أنَّهما لظروف مؤقّتة قبلا بذلك دون أن يُشْعِرَ طَرَف الطَّرف الآخر بحقيقة أمره، ودون أن يعرف الوسطي حقيقة أمرهما أيضًا مما يجعل التنازلات المقدّمة بغرض أخذ ثمن لِيُسهِمَ في دعم الاتجاهين اللذين كان كلّ منهما متطرِّفًا عليه عن الآخر. أو من أجل أن يقترب الطّرفان

---

148 عقيل حسين عقيل، العدل لا وسطية ولا تطرف، القاهرة: المصرية، 2020م، ص 44.

ماديًّا لتكون الخطورة ميسَّرة بينهما كلّ ضدّ الآخر، فتحدث المواجهة المؤلمة أثناء إتاحة فرص التقابل.

الاحتمال الرَّابع: أن تكون نتائج الجذب غير متوازنة بسبب اختلاف قوّة شد أحد الأطراف عن قوّة شد الطّرف الآخر، أو باختلاف قوّة توازن اليدين الجاذبتين لهما في دائرة الانحياز النسبي. فعندما لا تكون الأطراف متوازنة في أثناء الجذب بقوّة الوسطي، يسبق أحدهما الآخر وصولًا، وقد يغادر بأسباب تأخر الذي تعنَّتت به العلل والأسباب فأخّرته عن تقديم التنازلات أو تعنَّتت به في تفهُّم الظّروف التي بها يتمّ استيعاب الآخَرين (المواجه للأنا في الطّرف الآخر + الوسطي).

أمَّا إذا كان الوسيطي منحازًا وهمًا ولو ضئيلًا لطرفٍ على حساب آخر فإنَّه إذا ما اكتشف الطَّرف المنحاز ضدَّه أوهام الوسيطي انحيازًا ثار غضبًا وازداد بعدًا وتطرُّفًا، ومن هنا يصبح أمامنا أوهام متعدّدة، وهي: أوهام المتخالفين (طرفي الخصام)، ثمَّ الوهم الذي نتج عن انحياز الوسيطي لأحد الأطراف، ثم وهم من اكتشف انحياز الوسيطي ضدّه، وهو الأمر الذي دعاه إلى عدم قبوله وسيطًا.

ومع أنّ كلًّا من الوسطي والوسيطي هما في دائرة الممكن على التساوي دلالة ومفهومًا، إلَّا أنَّ لكلٍّ منهما ما يخصُّه من دلالةٍ ومفهومٍ؛ فالوسيطي هو الثالث الذي يتوسّط بين الأنا والآخر ليجرّهما إلى حلّ بعد إعطاء تنازلات. والوسطي كذلك يُعدُّ هو الثالث بالنّسبة إلى الأنا والآخر، ومن حيث خصوصيّة المفهوم فالوسطي هو الاعتدالي وليس العدلي،

فالاعتدالي هو من يميل إلى العدل ميلًا، مما يجعل الميل إلى العدل نسبيًّا يختلف من شخص لآخر قربًا وبعدًا، ولذا فإنَّ بلوغ العدل ليس الميل إليه؛ ولهذا فالوسطيّة تدعو إلى الميل إلى العدل وليس إلى الأخذ بالعدل هو كما هو؛ ولأنَّ الاعتدليّة ميليّة؛ فالميل (إلى) يُعد استحسًانًا من باب الجواز (يجوز ولا يجوز) حسب الحالة والظرف النفسي والاجتماعي والسّياسي والاقتصادي والمصلحة، وهذا ما ليس بعدلٍ، العدل هو الأخذ بالحقّ والعمل على إحقاقه هو كما هو، بأساليب متنوّعة؛ إذ لا إكراه، بل كلّ شيء عن الإرادة ولا وهم.

ولأنّ الوسطيّة اعتداليّة والاعتداليّة تميل بالأنا والآخر عمَّا هما عليه تجاه العدل؛ فإنّ الاتجاه نحو العدل يُمكِّن من الأخذ منه ما يُمكِن أخذه وترك ما لا يرغب أحد الأطراف الأخذ به. ولكن هل هذا من العدل أم إنَّ العدل هو الأخذ بالحقيقة التي إن تمَّ الأخذ بها بإرادة أصبحت الهوّة بين الأنا والآخر في خبر كان، وإذا ما تمَّ ذلك فلن يكون هناك مكانٌ لوجود من أوهامه وسطيّة أو وسيطيّة.

وإذا قبل البعض بأنّ الميل إلى العدل مرحلّة ضرورية لمن كانوا متطرِّفين عن الاعتدال مع المركز، إذن: ألا يكون ذلك الميل دليل اعتراف من قِبل هذا البعض بقبول التنازلات ولو كانت مرحليَّة؟! وإذا أجاز أحدٌ هذا الأمر ألا تكون المرحليّة مؤقّتة وهي في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع ليس بمضمونة النتائج حيث تغيُّر الظروف ومعطيات الانتكاسات المتعدّدة؟!

ولهذا لا حلّ إلَّا بالعدليّة وحدها، أمَّا الاعتداليّة (الوسطيّة) فهي ليست بحلٍّ، بل هي من يأمل الحلّ؛ ولهذا فالفرق كبير بين الحلّ، ومن يرى واهمًا أنَّ الميل إلى الحلّ هو الحلّ.

ومن يقبل الوسطيَّة حلًّا فليس له بدٌّ إلَّا أن يتخلّى عمَّا هو عليه من تطرُّف، ثم يقبل بتقديم التنازلات التي بها يتمكَّن من الجلوس مع الآخر ليشكِّل معه جناحي الوسطيّة اللذين بهما تُحلّق، ولكن إن اكتشف الطّرفان أنَّ وظيفة الجناحين تنفيذ قرار الطيران الذي ليس لهما رأي فيه؛ فقد ينقبضان، ولا يمتدان ثانية، مما يجعل الوسطيَّة وجناحيها ضحيّة ما كانت تدعو إليه.

ومن ثمَّ؛ تُرفض الوسطيَّة كونها على حساب إحقاق الحقّ؛ فهي (أنا) بين (آخَرَين) كلّ منهما يعتقد أنّه على صواب وهو صاحب الحقّ، فتحاول الوسطيّة أن تُقدِّمَ حلًّا مرضيًا لكلٍّ من الطّرفين، وهذا الحلّ لا يمكن التوصّل إليه إلّا من خلال تنازلات يُقدِّمها كلّ طرفٍ للطّرف الآخر ووفقًا لرؤية الوسطي، الذي يرى أنّ الأمور لا تُحلّ إلا بما يُمكِّن من امتصاص الغضب وقبول الآخر هو كما هو، ثم قبول كلّ منهما بتقديم التنازلات؛ لأجل أن يتمّ التفاوض والتحاور والمراجعة التي رسم خيوط نسيجها الوسطي.

ولأنَّ كلًّا من الأنا والآخر يرى نفسه أنّه على حقٍّ وغيره على باطل فالوسطي يرى أن الحقَّ ما ليس عليه الاثنان، وفي هذه الحالة يُعدُّ الوسطي طرفًا ثالثًا، وهذا يُظهر تعدّد الأطراف إلى ما هو أكثر من الأنا والآخر،

وبإجازة ظهور التعدّد في إظهار الحقّ من الباطل فإنّنا نقبل بظهور رابع يمكن أن نسميه المواجه لهؤلاء الثّلاثة بالحقيقة؛ أو أنّه الوسيطي الذي يعرف أنّ الأنا قد يكون على حقّ والآخر على باطلٍ ومع ذلك يتدخل لجرّهما إلى نقطة الالتقاء المؤقّتة وفقًا لِما يقبل به كلّ طرفٍ من تقديم التنازلات، وفي هذه الحالة إذن: كيف يكون الحلّ؟ هل يكون بقبول ما جاء به الرَّابع، أم من الأفضل أن ننتظر خامسًا في دائرة ظهور الممكن؟

ولهذا ينبغي كسر الوهم الذي يسيطر على عقول الجميع وإن تنوّعت صفاتهم وتعدّدت؛ ذلك لأنَّ الوهم لا يفارق العقل وإن أنَّبه الضمير لوقتٍ، وكلّ المعطيات على أرض الواقع تُثبِتُ التعدّد والحقيقة واحدة؛ فاليمين المتطرّف يرى أنّه المالك للحقيقة؛ ولهذا يَدعو إليها كما هي متهيّئة له، واليسار المتطرِّف يرى أنّه المالك للحقيقة وغيره لا حقيقة عنده، والوسط كذلك، ويمين الوسط هو الآخر لم يرَ الحقيقة إلَّا كما هي متهيّئة له، وهكذا كان الماركسيُّون والبعثيُّون والناصريُّون والإخوان المسلمون، وكلّ حزب بما لديهم فرحون وكأنّه امتلك الحقيقة دون أن يترك لغيره شيئًا منها، وفي هذا التعدّد يذوب الوسطي الذي يعتقد أنّه جاء بالحقيقة، مما يجعل العدل هو توازن المركز الذي لا يميل عن أحدٍ، ولا يميل به أحد، وهو الذي يسع الجميع دون أن يجعل أحدًا منهم طرفًا متضادًّا لغيره، ومن هنا يكسر الوهم.

فالوسطي لو لم يرَ أنّ الطَّرفين ليسا على حقٍّ، ما قدَّم بينهما حلًّا آخر (الحقُّ كما هو متهيّئ له)، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون وسطيًّا، بل إنّه الآخر غير الطّرفين السّابقين، الطّرفان السّابقان ليسا على الحقّ،

والطّرف الثّالث إن كان على الحقّ فهو ليس بذلك الوسطي، بل إنّه المواجه للجميع بالحقيقة وأهميّة إحقاقها؛ وهذه الحقيقة لا تتطلّب تقديم التنازلات، بل تتطلّب التخلّي، التخلّي التّام عن كلِّ ما من شأنه أنّه قد يؤدّي بالطّرفين أو الأطراف إلى الاعتقاد في التطرُّفِ وارتكاب أفعاله بأساليب غير مشروعة وإن شَرَّعَ لَهَا من شرَّع تحت أيّ صفة من صفات امتلاك القوّة بوهمٍ.

وعليه: عندما تكون الأطراف المتعدِّدة على غير حقيقة، يكون الواهمون هم الميدان الواسع لانتشار الفرقة بادعاءات الحقيقة التي لا يمكن أن تتجزأ؛ ولأنَّ الحقيقة واحدة لا تتجزأ، فإنَّه لا شرعيَّة لمن يدَّعيها، بل الشرعيَّة لمن لا يحيد عنها. وهنا على العقل البشري أن يُفرِّق بين مُدّعي الحقيقة والحقيقة هي كما هي؛ فإنْ لم يتمكَّن من التمييز سيجد نفسه مُنجرًّا تحت مظلة أحد المدَّعين لها غفلة لا صحوة. وهؤلاء ومن هو على مثلهم هم الذين في حاجة لوسطي؛ ليجذبهم عمَّا هم فيه من غفلة؛ لتكون الصّحوة لهم من بعد ذلك دافعة تجاه الوقوف على الحقيقة التي سبق لهم الغفلة عنها.

أمَّا أولئك الذين بقوا على الحقيقة فهم ليسوا في حاجة لوسطي يجرُّهم إلى الوسطيَّة، أو الوسيطيَّة، أمَّا غيرهم ممن مالوا عن الحقيقة فهم على حالتين: حالة أنَّ ما يشكّل حقيقة معرفتهم أصبح مهجّنًا من: (الحقيقة والوهم)؛ ولذلك فهم لا يستطيعون قول الحقيقة كما هي ولا يستطيعون إظهار الوهم كما هو، وبالتّالي نجدهم بوهمهم هذا يميلون عن قول الحقيقة عمدًا، وهنا يجوز أنَّ الخوف هو من جعلهم على هذا الموقف حذرًا، ومثل هذه الحالات تجعل من تفكير الوسطيَّة أو الوسيطيَّة مكوّنًا

مركَّبًا من: (قبول جزءٍ من الحقِّ مع قبول جزءٍ من الباطل) ومن ثَمَّ لن تصبح الحقيقة بحقيقة، ولا الوهم الباطل بباطل، ولكن يصبح الوسطاء بهذه الكيفيّة هم على باطل، أي: تصبح بين أيدينا لا حقيقة بأسباب خلط جزءٍ من الحقيقة مع الباطل، وكذلك لا تصبح باطلا بأسباب خلط الباطل بالحقيقة؛ ولهذا وجب كسر أوهام الوسطيّة بعد أنْ أصبحت جزءًا من المشكل، وليس بجزءٍ من الحلّ.

وعليه: فعندما تطرح الوسطيّة رأيها حلًّا ثالثًا بين طرفين تكون قد بعُدت عن الوسط الذي يرسم نقطة التمركز العدل دون ميل؛ فعلى سبيل المثال: لو كانت الوسطيّة بين طرفين يمثِّل أحدهما قمّة السّلطان (الحاكم)، والطّرف الآخر يمثل التطرّف عن السّلطة، فسيكون رأي الوسطيّة موضوعيًّا بلا انحياز، ليس مع رؤية الحاكم بالتمام، ولا مع رؤية المتطرّف بالتمام، وإذا ارتضى الطّرفان بما قدَّمت الوسطيَّة من حلّ؛ فهذا يستوجب تنازلات من الحاكم ومن المتطرّف، تجعل كلًّا منهما على حالةٍ من الالتقاء مع الآخر، ولكنَّه ليس معه بالتمام؛ حيث إنّه لا زال كلّ من الطرفين متمسِّكا بنصف ما كان لديه من أفكار تجاه الآخر ورؤاه مع فتحه خانة جديدة تشغل حَيّز النصف الثَّاني الذي فُرّغ بتقديم التنازلات ليمتلئ بما يتم الاتفاق عليه بين الطّرفين؛ ولهذا فإنَّ بذور الفتنة التي أنبتت التطرُّف لا زالت متأهِّبة للظهور من النصف الذي لم يمسَّه تقديم التنازلات كلَّما توافرت لها بيئة مناسبة للنمو.

إنَّ الوسطيَّة في مفهومها اللفظي لا الاصطلاحي تحْمِل مدلولات وجوب تقديم تنازلات تستدعي حلًّا من أجل فكّ التوترات والخصومات

والمصادمات التي تدور رحاها بين الأنا والآخر، وبهذه النظرة هي أقرب لأن تكون شرطيًّا لا قاضيًا؛ فالشرطي إنْ حدثت اشتباكات بين الأطراف الذين هم في دائرة اختصاصه يأتي لفكِّ الاشتباكات ويترك الأمر، وإن اشتكى أحد الأطراف ضد الآخر سيكون الأمر متعلقًا بوجوب قاضٍ عدل؛ ليحكم بالحقِّ لا بتنازلات من أحدٍ لحساب آخر، ومع ذلك الصّلح خير؛ لأنَّه إرادي فيه يتمّ التقدير المتبادل بين الأطراف المتنازعة.

وللتعرُّف على الوسطيَّة ينبغي تحديدها ظرفيًّا بين مَن ومَن؟

. هل هي بين الحقِّ والباطل؟

. هل هي بين حاكم ومحكوم؟

. هل الوسطيَّة هي المائلة؟ أم هي التي يُمال إليها؟ أم إنَّها هي المحفِّزة على الميل؟

. هل الوسطيَّة بين وسطٍ ومتطرّف، أم إنَّها بين متطرّفين؟

. هل الوسطيَّة بين معتدل ومتطرّف؟ أم هي بين متطرّف وأكثر تطرّفًا؟

. هل ستتحقّق الوسطيّة فعلًا بما تتركه مجازًا لأن يؤخذ ميلًا تجاه العدل؟

. ألا تكون الوسطيَّة حاملة لبذور فنائها؛ كونها تحمل مبررات العودة إلى التطرّف بمن قَبِل بإعطاء التنازلات حلًّا مؤقتًا لأن يعود إلى ما كان عليه؟!

. ألا يعدُّ تقارب الأطراف بتنازل كلّ منهما عن جزءٍ من الحقيقة تطرّفًا جديدًا عن ملامسة الحقيقة هي كما هي؟!

. ألا يكون الميل إلى العدل دليل إثبات أنّه ليس بعدلٍ؟

. هل الحقيقة أن تكون الوسطيَّة على مسافة واحدة من جميع الأطراف عادلها وظالمها، وحاكمها ومحكومها، وحاميها وحراميها؟!

إنَّ الذي يتنازل عن جزء من حقِّه ولظرفٍ ما، فإنَّه عندما تتغيَّر الظّروف التي فرضت عليه التنازلات ويكون قادرًا ومن ثمَّ يلغي تلك التنازلات، وبالتّالي سيكون واهمًا من يثق في التنازلات الظرفيَّة، وهكذا بالتمام المتطرّف عندما يقبل الحلّ تحت ضغط الظّروف، ويتفاوض من أجل تقديم التنازلات، فإنَّه عندما تتهيأ له الظروف التي تمكِّنه من الرفض أو المواجهة سيكون أكثر شدّة أو تطرّف تجاه كسر الوهم، وفي المقابل إن كانت تلك التنازلات عن قناعة تامّة فلن يعود إلى ما تخلّى عنه، ويكون أكثر تمسُّكًا بما وصل إليه من حلٍّ.

بهذه الرُّؤية تكون الوسطيّة والوسيطيّة تقريبيتين، تهدفان إلى تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتطرِّفة، مما يجعل الاتفاق على ما هو ممكن وبقاء غير الممكن ساكنًا قدر الإمكان، ومن ثمَّ فإنَّ سكون البركان لا يعني انتهاء أمره، بل يعني أنّه في دائرة غير المتوقَّع سيكون مفاجئًا لمن يعتقد أنّه خمد إلى النهاية؛ ولهذا فالفكر المتطرِّف والرؤية المتطرِّفة إن هدأت وسكنت تدلُّ على أنّها ستثور من جديد، ويكون الغبار المنفوض بقوّة نفخِ الثوران

كافيًا لأن يعيق الحركة التي في مجاله، أو حتى توقُّفها كما فعل بركان أيزلندا بالملاحة الجوّيّة في أوروبا شهر مايو 2010م.

ولأنَّ الإنسان لا يمكن أن يتنازل عن حقه إلَّا إذا كان غافلًا، أو مُغفَّلا، أو قاصرًا، أو مغلوبًا، أو مقهورًا، ومغيّبًا، فإنَّه متى ما امتلك مقاليد القوّة وزمام أمره كسر الوهم وتمكَّن من إعادة حقوقه بالقوّة، حتى وإن وُصِفَ من الآخرين بأنّه متطرِّف.

وعندما يُثار التساؤل عمَّا إذا كان التطرُّف قوّة أم ضعفًا! يُثبت التطرُّف ذاته بأنّه لو لم يكن قوّة ما كان سببًا للتفاوض؛ فهو من وجهة نظر الأنا الحاكمة تطرُّفٌ، ومن وجهة نظر الآخر قوّة مُمكِّنة من نيل الاعتراف والتقدير وإعادة الحقوق، وتقويم الاعوجاج.

ولذا يجب أن يُكسر وهم التطرُّف بتمكين الشّعوب من ممارسة الحريّة بأسلوب ديمقراطي، وكسر مسبباته التي منها: الإجراءات القهرية وانتشار المظالم، والحرمان من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليات، ومنها احتلال الأوطان وسلب خيراتها، ومن معطياته الرّئيسة أيضًا المعلومات المزوَّرة، والمساس بالدين والعرف، والمغالبة بغير حقٍّ على المستوى الداخلي (داخل البلد) أو على المستوى الخارجي (في الهيئات والمنظّمات والجمعيّات الدّوليّة والعالميّة)، ومع أنَّ البعض يعتقد أنّ الفقر هو الذي يدفع الشباب إلى ارتكاب أفعال التطرُّف، إلَّا أنَّ القادرين هم الذين يتصدَّرونه فكرًا وفعلًا، أمَّا أولئك الذين هم على الحاجة لا وقت لهم غير البحث عمَّا يُشبع حاجاتهم وحاجات من له الحق عليهم.

وهذا لا يعني أنَّ الفقر لا تأزُّمات بأسبابه، ولكن التأزُّمات المترتِّبة على الفقر أكثرها جرائم وانحرافات سرقة، وتعاطي، وتسوّل، وقلقلة أمن الشّارع بما يُخيف المواطنين على أمن ما يمتلكون، وقد يُجنَّدُ أولئك المنحرفون بأسباب الحاجة من قِبَلِ الآخرين ويُستخدمون بموجَّهات داخليّة وأجنبيّة ضدّ النظام ومصالح الوطن، وقد يكون البعض من النَّاس (مواطنين وأجانب) ضحية بين أيدي الذين دفعتهم الحاجة إلى الجريمة.

ومع أنَّ التطرُّف في أساسه غير منظّم إلَّا أنّه بعد التهيّؤ والاستعداد والتأهُّب والفعل الإرادي يصبح في دائرة الممكن ظهور التجمُّع واتساع دائرة المعارف ممكنًا؛ ليكون الجهد الموحَّد أقوى من الجهد المنفرد وفقًا لقاعدة: (الفرد قوّة، والجماعة أقوى، والمجتمع أكثر قوّة) وتكون المناصرة قاعدة لتبادل المعلومات وتمكين المتطرِّفين من تنفيذ أفعال التطرُّف بنجاح قدر الإمكان.

ولأنَّ التطرُّفَ قوّة فهو المسبب للتصدُّعات والتأزُّمات الحكوميَّة والمرهق لأجهزتها الأمنية، والمرهق للاقتصاد الوطني والاستقرار الاجتماعي، ولأنَّه كذلك فإنَّ القوّة تُعد لمقاومته وردعه ومحاولة قهره وكسر أوهامه.

ولأنَّ التطرُّف قوّة بلا نعومة يأتي الوسطاء قوّة ناعمة بين القوّتين المتخالفتين من أجل الحل، وكف دوائر السّوء؛ ولأنّ التطرُّف قوّة فإنَّ البعض يخشونه ويجتنبون أصحابه الذين هم في كثيرٍ من الأحيان غير مأموني الجانب.

ومع أنَّ التطرُّف قوّة إلَّا أنّه لا يخلو مِن نِسبة الضّعف فيه، وفقًا لقاعدة (لا قوّة مطلقة إلَّا من القويّ المطلق) مما يجعل من هم في دائرة النسبيَّة على القوّة والضّعف من متغير لمتغيِّر، ومن سالبٍ إلى موجبٍ؛ فالذي يُستدرج بداعي الضّعف لتقديم تنازلات ويقبل في فترة ما فهو في زمنٍ آخر يمكن أن يكون قادرًا على الانقضاض بغاية استرجاع ما تمّ التنازل عنه في زمن الضّعف والوهن.

إذن: من معطيات الضّعف تولد معطيات القوّة؛ ولهذا ما يظهره الإنسان من ضعفٍ في القولِ أو العملِ أو السُّلوكِ قد لا يكون كما هو مُظهَرٌ؛ بل قد يكون مغايرًا لما في باطنه، أو ما يضمره من أجل توفير هذه القوّة التي يراها الآخر ضعفًا إلى أن تتهيّأ لها الظروف المناسبة لإظهارها قوّة، وقد يكون إظهار الضّعف من أجل استنفاذ قوّة الآخر، أو من أجل استدرار عطفه وتغفيله عمَّا يمكن أن يُفكِّر فيه تجاه الآخر الذي يظهر الضّعف من أجل غاية في نفسه، وعندما يكون الضّعف على هذه الحالة فهو في أعلى درجة من القوّة؛ لِمَا وفّره من جهد في نيل الوطر، وبهذه المعطيات يسقط الواهم ويُكسر وهمه.

وهنا وجب النظر إلى القضايا بأبعادها الكامنة وليس بما يبدو ظاهرًا منها أمام الآخرين؛ فمعطيات القوّة تتوافر بمتغيّراتها والظّروف التي تسمح لها بالظهور كلّما تهيّأت، مما يجعل القوّة نبتة قويّة في بيئة الضّعفاء والمستضعفين، وفي مقابل ذلك يصبح الضعف هو البِذْرَةُ التي تنمو في نفوس الأقوياء.

ومن خلال ذلك فإنَّ الأنا والآخر والوسيطي هم على أطراف القوّة والضّعف؛ فالوسيطيّة تقبل أن تعالج القوّة بقوّة والضّعف بضعف، ولأنّها وسيطيّة فهي لم تُقرّ العلاج بالقوّة المطلقة ولم تُقرّهُ بالضعف المطلق؛ الأمر الذي جعلها على طرفي نقيض من الطّرفين.

ولأنّ الوسيطيّة مؤسّسة على ضعف وقوّة، فهي تقبل بمعطيات وجوب التنازل النسبي عن الضّعف بالميل إلى القوّة، كما تقبل بمعطيات وجوب التنازل النسبي عن القوّة بالميل إلى الضّعف، وأينما يلتقي القويّ مع الضّعيف أو القويّ مع من هو أقوى منه تعتمده الوسيطيّة حلًّا مناسبًا ومرضيًا للطّرفين حتى وإن كان وهمًا.

ولكن:

. هل تُعدُّ نقطة الالتقاء (على الوسطيَّة) هي الحلّ بالحقّ والعدلِ؟

. هل تُعد نقطة الالتقاء (على الوسيطيَّة) إنصافًا بموضوعيّة؟

ومع أنّ الوسطيَّة تطرح الحلّول التوفيقيّة إلاّ أنَّها تعلم الحلّ (الحقيقة)، ولكنَّها من أجل نزع فتيل الاشتعال تقبل غض النّظر عن بعض الحقائق وما يستوجب أن يكون من حلٍّ عدلٍ.

ولأنّ الأمر كذلك ألا تكون معطيات التطرّف قد تأسّست من جديد برؤية وسطيّة تعلم أنَّها قد نزعت الفتيل وأبقت اللَّغم بجانبه الأمر الذي يُمكِن لأيٍّ كان أن يُعيد الفتيل إليه لِيَنفَجِرَ من جديد بقوّة أعنف مما كان عليه ويصبح الغافلون هم الضحيَّة المعرَّضة للتفخيخ في الصّدامات الدّائرة رحاها بين متطرِّفٍ وأكثر تطرُّفًا.

وعليه: فهناك مفاهيم ثلاثة تستوجب فك الملابسات بينها:

1 . الوسيطيَّة: تدخُّل بين طرفين أو أكثر بهدف الالتقاء وفك الفتيل وفقًا لما يقدَّم من تنازلات مقبولة.

2 . الوسطيَّة الوسط بين البينين (التأرجح).

3 . الوسط: مركز الالتقاء الذي يمتلك الحجَّة العدل التي لم تكن عند الغير؛ ولهذا خصَّ الله بها أمّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام لتكون شاهدًا بالحق على النَّاس؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[149].

قال (أمَّةً وسَطًا) ولم يقل: (أمّةً وسَطيَّة)؛ فالأولى أمّةً وسطًا تدلّ على استقلاليّة الأمّة حُجَّةً، أمَّا الثانية فتدل على الوجود البيني (الوسيط المتكوّن من مجموع الأمم) أي: وكأنَّ الأمّة الوسط لم تكن أمّة برسالتها التي أنزلت على رسولٍ منها هو محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام الشَّاهد على الأمَّة الشاهدة عدلًا على الأمم الأخرى.

والأمّة الوسط هي الأمّة المستقلّة بذاتها شِرعةً ومنهاجًا، وفي المقابل الأمّة الوسطيّة غير المستقلة شرعة ومنهاجًا، وهذا ما لم ينطبق على مفهوم الأمّة الوسط التي خصّها الله تعالى بالشهادة على النَّاس.

ومما يلفت النّظر إليه ويستوجب التوقّف عنده تفكيرًا قوله عزَّ وجلَّ: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس) أي: إنَّه قال: (لتكونوا شهداء على النَّاس) ولم يقل: (لتكونوا شهداء بين النَّاس) ولم يقل: (لتكونوا شهداء على الأمم)

---

[149] البقرة: 143.

وهذا دليل إثبات آخر أنَّ الأمّة لم تكن وسطيّة ولا وسيطيَّة، فلو كان القصد أن تكون الأمّة وسيطية أو وسطيَّة ينبغي أن تتوسط الأمم لا أن تتوسط النَّاس (الأفراد) ولا أن تتوسط بينهم، أي: جاءت الأمَّة ليس أفرادًا بل حجّة؛ لأنَّ حجّة الأمّة واحدة (الحقّ ولا شيءَ غيره) وهذا الحقّ هو قول الأمّة المتعددة أفرادًا والمجموعة على الكلمة الحقّ التي أنزلت رسالة للكافّة.

ولهذا فكلمة وسط تعنى: مركز الالتقاء، وليس المركز البيني؛ مصداقًا لقوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس)؛ أي: إنَّه قال: (شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس) ولم يقل: (شهداء بين النَّاس) فلو قال: بين النَّاس تصبح الأمة وسيطيَّة، ولأنَّه لم يقلها جلَّ جلاله فلا إمكانيَّة للتطويع؛ ولهذا فالوسط مجمع الالتقاء، مثل العواصم فلا أحد يقول: العاصمة لي؛ لأنَّ العاصمة عاصمة الجميع؛ فهكذا لتقريب المعنى هي الأمّة الوسط.

إذن: الأمّة الوسط أمّة (مكانة)، وليست أمّة (بين)، وأمّة المكانة هي أمّة بلوغ الرّفعة، فمن رغب رفعةً فلا مكان للاطمئنان فيه رفعة إلّا الأمّة الوسط (أمّة الحقّ حُجّة)؛ ومن هنا فمن أراد أن يحكم عدلًا فعليه بحجّة الأمّة الحقّ (رسالة محمَّد) التي لا تخصّ أمّة بعينها، بل إنّها رسالة الكافّة؛ أي: إنَّ الأمّة هنا ليست دمًا، بل معتقدًا، بمعنى: أنَّ النَّاس متفرِّقون بين الأمم والأقوام العرقيّة تعصّبًا؛ ولهذا فهم غير متحرِّرين من التحيّز والتحزُّب والتعصّب، وفي المقابل أمّة الإسلام أمّة الجميع فمن يؤمن بـ(رسالة الكافّة)، ومِن أيِّ أمّة يصبح من أمّة الإسلام، ولا يفتقد انتماءه العرقي لأيَّة أمّة كانت.

ولأنَّ الأمّة الوسط مركز الالتقاء (العاصمة) رفعة عن كلِّ خصوصيّة فهي بيت الجميع وأمن الجميع، وحقّ الجميع، ولكن كلّ شيء عن إرادة {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[150].

وختامًا: فإنْ وفقت فالحمد لله ربِّ العالمي، وإن أخطأت في شيء فاستغفر الله، وما التوفيق إلَّا بالله؛ عليه توكّلت.

[150] البقرة 256.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدكتور عقيل حسين: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (162) مؤلّفا منها: خمس موسوعات.

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركية.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 ـ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 ـ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 ـ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 ـ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 ـ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 ـ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 ـ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 ـ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (162) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: Dr-Aqeel.com